

(٩٣٢)

الاعتراف بالذنب ومنزلته

من مصنفات التفسير وشروح الأحاديث

د/ يوسف بن حمود الحوشان

١٤٤٤هـ

نسخة أولية من غير ترتيب او مراجعة

ومتاح لكل أحد الاستفادة منها

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله اما بعد

فهذه نصوص جمعت باستخدام برنامج شاملة وورد من برمجيات الدكتور سعود العقيل بواسطة المكتبة الشاملة

معتمدة على توظيف الكلمة المفتاحية وتوفير النصوص للباحثين لتحريرها والاستفادة منها وهي مشاعة لمن يستفيد منها

وسيتبعها نصوص أخرى يسر الله نشرها والله الموفق

يوسف بن حمود الحوشان

yhoshan@gmail.com

تليجرام https://t.me/dralhoshan

WWW.NSOOOS.COM

"وَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَى صِحَّةِ التَّوْبَةِ بَعْدَ نَقْضِهَا بِمُعَاوَدَةِ **الذَّنْبِ**، لِأَنَّ التَّوْبَةَ الْأُولَى طَاعَةٌ وَقَدِ انْقَضَتْ وَصَحَّتْ، وَهُوَ مُحْتَاجٌ بَعْدَ مُوَاقَعَةِ **الذَّنْبِ** الثَّانِي إِلَى تَوْبَةٍ أُخْرَى مُسْتَأْنَفَةٍ، وَالْعَوْدُ إِلَى **الذَّنْبِ** وَإِنْ كَانَ أَقْبَحَ مِنَ ابْتِدَائِهِ، لِأَنَّهُ أَضَافَ «١» إِلَى **الذَّنْبِ** نَقْضَ التَّوْبَةِ، فَالْعَوْدُ إِلَى التَّوْبَةِ أَحْسَنُ مِنَ ابْتِدَائِهَا، لِأَنَّهُ أَضَافَ «٢» إِلَيْهَا مُلَازَمَةَ الْإِلْحَاحِ بِبَابِ الْكَرِيمِ، وَإِنَّهُ لَا غَافِرَ لِلذُّنُوبِ سِوَاهُ. وَقَوْلُهُ فِي آخِرِ الْحَدِيثِ (اعْمَلْ مَا شِئْتَ) أَمْرٌ مَعْنَاهُ الْإِكْرَامُ فِي أَحَدِ الْأَقْوَالِ، فَيَكُونُ مِنْ بَابِ قَوْلِهِ:" ادْخُلُوها بِسَلامٍ" [الحجر: ٤٦] «٣». وَآخِرُ الْكَلَامِ خَبَرٌ «٤» عَنْ حَالِ الْمُخَاطَبِ بِأَنَّهُ مَغْفُورٌ لَهُ مَا سَلَفَ مِنْ ذَنْبِهِ، وَمَحْفُوظٌ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى فِيمَا يَسْتَقْبِلُ مِنْ شَأْنِهِ. وَدَلَّتِ الْآيَةُ وَالْحَدِيثُ عَلَى عَظِيمِ فَائِدَةِ **الِاعْتِرَافِ بِالذَّنْبِ** وَالِاسْتِغْفَارِ مِنْهُ، قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا اعْتَرَفَ بِذَنْبِهِ ثُمَّ تَابَ إِلَى اللَّهِ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ) أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ. وَقَالَ:

يَسْتَوْجِبُ الْعَفْوَ الْفَتَى إِذَا اعْتَرَفْ ... بِمَا جَنَى مِنَ الذُّنُوبِ وَاقْتَرَفْ

وَقَالَ آخَرُ:

أَقْرِرْ بِذَنْبِكَ ثُمَّ اطْلُبْ تَجَاوُزَهُ ... إِنَّ الْجُحُودَ جُحُودَ **الذَّنْبِ** ذَنْبَانِ

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللَّهُ بِكُمْ وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ وَيَسْتَغْفِرُونَ فَيُغْفَرُ لَهُمْ). وَهَذِهِ فَائِدَةُ اسْمِ اللَّهِ تَعَالَى الْغَفَّارِ وَالتَّوَّابِ، عَلَى مَا بَيَّنَّاهُ فِي الْكِتَابِ الْأَسْنَى فِي شَرْحِ أَسْمَاءِ اللَّهِ الْحُسْنَى. الْخَامِسَةُ- الذُّنُوبُ الَّتِي يُتَابُ مِنْهَا إِمَّا كُفْرٌ أَوْ غَيْرُهُ، فَتَوْبَةُ الْكَافِرِ إِيمَانُهُ مَعَ نَدَمِهِ عَلَى مَا سَلَفَ مِنْ كُفْرِهِ، وَلَيْسَ مُجَرَّدُ الْإِيمَانِ نَفْسَ تَوْبَةٍ، وَغَيْرُ الْكُفْرِ إِمَّا حَقٌّ لِلَّهِ تَعَالَى، وَإِمَّا حَقٌّ لِغَيْرِهِ، فَحَقُّ اللَّهِ تَعَالَى يَكْفِي فِي التَّوْبَةِ مِنْهُ التَّرْكُ، غَيْرَ أَنَّ مِنْهَا مَا لَمْ يَكْتَفِ الشَّرْعُ فِيهَا بِمُجَرَّدِ التَّرْكِ بَلْ أَضَافَ إِلَى ذَلِكَ فِي بَعْضِهَا قَضَاءً كَالصَّلَاةِ وَالصَّوْمِ، وَمِنْهَا مَا أَضَافَ إِلَيْهَا كَفَّارَةً كَالْحِنْثِ فِي الْأَيْمَانِ وَالظِّهَارِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَأَمَّا حُقُوقُ الْآدَمِيِّينَ فَلَا بُدَّ مِنْ إِيصَالِهَا إِلَى مُسْتَحِقِّيهَا، فَإِنْ لَمْ يُوجَدُوا تَصَدَّقَ عَنْهُمْ، وَمَنْ لَمْ يَجِدِ السَّبِيلَ لِخُرُوجِ مَا عَلَيْهِ لِإِعْسَارٍ فَعَفْوُ اللَّهِ مَأْمُولٌ، وَفَضْلُهُ مَبْذُولٌ، فَكَمْ ضَمِنَ مِنَ التَّبِعَاتِ وَبَدَّلَ مِنَ السَّيِّئَاتِ بِالْحَسَنَاتِ. وَسَتَأْتِي زِيَادَةُ بَيَانٍ لهذا المعنى «٥».

---

(١). في ب ود وه: انضاف.

(٢). في ب ود وه: انضاف.

(٣). راجع ج ١٠ ص ٣٢، وج ١٧ ص ٢١.

(٤). في أوح: أخبر. [.....]

(٥). راجع ج ١٣ ص ٧٧.." [١]

"وَقَوْلُهُ: (أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبادِهِ «١»). وَقَوْلُهُ: (وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تابَ «٢») فَإِخْبَارُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَنْ أَشْيَاءَ أَوْجَبَهَا عَلَى نَفْسِهِ يَقْتَضِي وُجُوبَ تِلْكَ الْأَشْيَاءِ. وَالْعَقِيدَةُ أَنَّهُ لا يجب عليه شي عَقْلًا، فَأَمَّا السَّمْعُ فَظَاهِرُهُ قَبُولُ تَوْبَةِ التَّائِبِ. قَالَ أَبُو الْمَعَالِي وَغَيْرُهُ: وَهَذِهِ الظَّوَاهِرُ إِنَّمَا تُعْطِي غَلَبَةَ ظَنٍّ، لَا قَطْعًا عَلَى اللَّهِ تَعَالَى بِقَبُولِ التَّوْبَةِ. قَالَ ابْنُ عَطِيَّةَ: وَقَدْ خُولِفَ أَبُو الْمَعَالِي وَغَيْرُهُ فِي هَذَا الْمَعْنَى. فَإِذَا فَرَضْنَا رَجُلًا قَدْ تَابَ تَوْبَةً نَصُوحًا تَامَّةَ الشُّرُوطِ فَقَالَ أَبُو الْمَعَالِي: يَغْلِبُ عَلَى الظَّنِّ قَبُولُ تَوْبَتِهِ. وَقَالَ غَيْرُهُ: يَقْطَعُ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى بِقَبُولِ تَوْبَتِهِ كَمَا أَخْبَرَ عَنْ نفسه عز وجل. قَالَ ابْنُ عَطِيَّةَ: وَكَانَ أَبِي رَحِمَهُ اللَّهُ يَمِيلُ إِلَى هَذَا الْقَوْلِ وَيُرَجِّحُهُ، وَبِهِ أَقُولُ، وَاللَّهُ تَعَالَى أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ أَنْ يَنْخَرِمَ فِي هَذَا التَّائِبِ الْمَفْرُوضِ مَعْنَى قَوْلِهِ: (وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبادِهِ) وَقَوْلُهُ تَعَالَى: (وَإِنِّي لَغَفَّارٌ). وَإِذَا تَقَرَّرَ هَذَا فَاعْلَمْ أَنَّ فِي قَوْلِهِ (عَلَى اللَّهِ) حَذْفًا وَلَيْسَ عَلَى ظَاهِرِهِ، وَإِنَّمَا الْمَعْنَى عَلَى فَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ بِعِبَادِهِ. وَهَذَا نَحْوَ قَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِمُعَاذٍ: (أَتَدْرِي مَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ)؟ قَالَ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: (أَنْ يُدْخِلَهُمُ الْجَنَّةَ). فَهَذَا كُلُّهُ مَعْنَاهُ: عَلَى فَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ بِوَعْدِهِ الْحَقِّ وَقَوْلِهِ الصِّدْقِ. دَلِيلُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: (كَتَبَ عَلى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ «٣») أَيْ وَعَدَ بِهَا. وقيل: (عَلَى) ها هنا مَعْنَاهَا (عِنْدَ) وَالْمَعْنَى وَاحِدٌ، التَّقْدِيرُ: عِنْدَ اللَّهِ، أَيْ إِنَّهُ وَعَدَ وَلَا خُلْفَ فِي وَعْدِهِ أَنَّهُ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ إِذَا كَانَتْ بِشُرُوطِهَا الْمُصَحِّحَةِ لَهَا، وَهِيَ أَرْبَعَةٌ: النَّدَمُ بِالْقَلْبِ، وَتَرْكُ الْمَعْصِيَةِ فِي الْحَالِ، وَالْعَزْمُ عَلَى أَلَّا يَعُودَ إِلَى مِثْلِهَا، وَأَنْ يَكُونَ ذَلِكَ حَيَاءً مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لَا مِنْ غَيْرِهِ، فَإِذَا اخْتَلَّ شَرْطٌ مِنْ هَذِهِ الشُّرُوطِ لَمْ تَصِحَّ التَّوْبَةُ. وَقَدْ قِيلَ مِنْ شُرُوطِهَا: **الِاعْتِرَافُ بِالذَّنْبِ** وَكَثْرَةُ الِاسْتِغْفَارِ، وقَدْ تَقَدَّمَ فِي (آلِ عِمْرَانَ) كَثِيرٌ مِنْ مَعَانِي التَّوْبَةِ وَأَحْكَامِهَا «٤». وَلَا خِلَافَ فِيمَا أَعْلَمُهُ أَنَّ التَّوْبَةَ لَا تُسْقِطُ حَدًّا «٥»، وَلِهَذَا قَالَ عُلَمَاؤُنَا: إِنَّ السَّارِقَ وَالسَّارِقَةَ وَالْقَاذِفَ مَتَى تَابُوا وَقَامَتِ الشَّهَادَةُ عَلَيْهِمْ أُقِيمَتْ عَلَيْهِمُ الْحُدُودُ. وَقِيلَ: (عَلَى) بِمَعْنَى (مِنْ) أَيْ إِنَّمَا التَّوْبَةُ مِنَ اللَّهِ لِلَّذِينَ، قَالَهُ أَبُو بَكْرِ بْنُ عَبْدُوسٍ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَسَيَأْتِي فِي (التَّحْرِيمِ «٦») الْكَلَامُ فِي التوبة النصوح والأشياء التي يتاب منها.

---

(١). راجع ج ٨ ص ٢٥٠.

---

(١) تفسير القرطبي، شمس الدين القرطبي ٤/٢١٣

(٢). راجع ج ١١ ص ٢٣١.

(٣). راجع ج ٦ ص ٣٩٥.

(٤). راجع ج ٤ ص ١٣٠.

(٥). راجع ج ٦ ص ١٧٤ ففيها الخلاف في المسألة.

(٦). راجع ج ١٨ ص ١٩٧ فما بعد.." [١]

"أَنَّهُمْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: نَزَلَتْ فِي عَشَرَةٍ تَخَلَّفُوا عَنْ غَزْوَةِ تَبُوكَ فَأَوْثَقَ سَبْعَةٌ مِنْهُمْ أَنْفُسَهُمْ فِي سَوَارِي الْمَسْجِدِ. وَقَالَ بِنَحْوِهِ قَتَادَةُ وَقَالَ: وَفِيهِمْ نَزَلَ" خُذْ مِنْ أَمْوالِهِمْ صَدَقَةً" [التوبة: ١٠٣]، ذَكَرَهُ الْمَهْدَوِيُّ. وَقَالَ زَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ: كَانُوا ثَمَانِيَةً. وَقِيلَ: كَانُوا سِتَّةً. وَقِيلَ: خَمْسَةٌ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: نَزَلَتِ الْآيَةُ فِي أَبِي لُبَابَةَ الْأَنْصَارِيِّ خَاصَّةً فِي شَأْنِهِ مَعَ بَنِي قُرَيْظَةَ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ كَلَّمُوهُ فِي النُّزُولِ عَلَى حُكْمِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَشَارَ لَهُمْ إِلَى حَلْقِهِ. يُرِيدُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَذْبَحُهُمْ إِنْ نَزَلُوا، فَلَمَّا افْتُضِحَ تَابَ وَنَدِمَ وَرَبَطَ نَفْسَهُ فِي سَارِيَةٍ مِنْ سَوَارِي الْمَسْجِدِ، وَأَقْسَمَ أَلَّا يَطْعَمَ وَلَا يَشْرَبَ حَتَّى يَعْفُوَ اللَّهُ عَنْهُ أَوْ يَمُوتَ، فَمَكَثَ كَذَلِكَ حَتَّى عَفَا اللَّهُ عَنْهُ، وَنَزَلَتْ هَذِهِ الآية، وَأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِحَلِّهِ، ذَكَرَهُ الطَّبَرِيُّ عَنْ مُجَاهِدٍ، وَذَكَرَهُ ابْنُ إِسْحَاقَ فِي السِّيرَةِ أَوْعَبَ مِنْ هَذَا. وَقَالَ أَشْهَبُ عَنْ مَالِكٍ: نَزَلَتْ" وَآخَرُونَ" فِي شَأْنِ أَبِي لُبَابَةَ وَأَصْحَابِهِ، وَقَالَ حِينَ أَصَابَ **الذَّنْبَ**: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أُجَاوِرُكَ وَأَنْخَلِعُ مِنْ مَالِي؟ فَقَالَ: (يَجْزِيكَ مِنْ ذَلِكَ الثُّلُثُ وَقَدْ قَالَ تَعَالَى:" خُذْ مِنْ أَمْوالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِها" [التوبة ١٠٣] وَرَوَاهُ ابْنُ الْقَاسِمِ وَابْنُ وَهْبٍ عَنْ مَالِكٍ. وَالْجُمْهُورُ أَنَّ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي شَأْنِ الْمُتَخَلِّفِينَ عَنْ غَزْوَةِ تَبُوكَ، وَكَانُوا رَبَطُوا أَنْفُسَهُمْ كَمَا فَعَلَ أَبُو لُبَابَةَ، وَعَاهَدُوا اللَّهَ أَلَّا يُطْلِقُوا أَنْفُسَهُمْ حَتَّى يَكُونَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هُوَ الَّذِي يُطْلِقُهُمْ وَيَرْضَى عَنْهُمْ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (وَأَنَا أُقْسِمُ بِاللَّهِ لَا أُطْلِقُهُمْ وَلَا أَعْذِرُهُمْ حَتَّى أُومَرَ بِإِطْلَاقِهِمْ رَغِبُوا عَنِّي وَتَخَلَّفُوا عَنِ الْغَزْوِ مَعَ الْمُسْلِمِينَ) فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ، فَلَمَّا نَزَلَتْ أَرْسَلَ إِلَيْهِمُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَطْلَقَهُمْ وَعَذَرَهُمْ. فَلَمَّا أُطْلِقُوا قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَذِهِ أَمْوَالُنَا الَّتِي خَلَّفَتْنَا عَنْكَ، فَتَصَدَّقْ بِهَا عَنَّا وَطَهِّرْنَا وَاسْتَغْفِرْ لَنَا. فَقَالَ: (مَا أُمِرْتُ أَنْ آخُذَ مِنْ أَمْوَالِكُمْ شَيْئًا) فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى:" خُذْ مِنْ أَمْوالِهِمْ صَدَقَةً" [التوبة: ١٠٣] الْآيَةَ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: كَانُوا عَشَرَةَ أَنْفُسٍ مِنْهُمْ أَبُو لُبَابَةَ، فَأَخَذَ ثُلُثَ أَمْوَالِهِمْ وَكَانَتْ كَفَّارَةَ الذُّنُوبِ الَّتِي أَصَابُوهَا. فَكَانَ عَمَلُهُمُ السَّيِّئُ التَّخَلُّفَ بِإِجْمَاعٍ مِنْ

---

(١) تفسير القرطبي، شمس الدين القرطبي ٥/٩١

أَهْلِ هَذِهِ الْمَقَالَةِ. وَاخْتَلَفُوا فِي الصَّالِحِ، فَقَالَ الطَّبَرِيُّ وَغَيْرُهُ: **الِاعْتِرَافُ وَالتَّوْبَةُ** وَالنَّدَمُ. وَقِيلَ: عَمَلُهُمُ الصَّالِحُ الَّذِي عَمِلُوهُ أَنَّهُمْ لَحِقُوا بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وربطوا." [١]

"فتصير يده مسقوطاً فيها لأن فاه قد وقع فيها، وفي الجمل سقط فعل ماض مبني للمجهول وأصله سقطت أفواههم على أيديهم، فـ (في) بمعنى (على) وذلك من شدة الندم فإن العادة أن الإنسان إذا ندم بقلبه على شيء عض بفمه على أصابعه فسقوط الأفواه على الأيدي لازم للندم فأطلق اسم اللازم وأريد الملزوم على سبيل الكناية.

وهذا التركيب لم تعرفه العرب إلا بعد نزول القرآن، ولم يوجد ذلك في أشعارهم والسقوط: عبارة عن النزول من أعلى إلى أسفل، وقال الأزهري والزجاج والنحاس وغيرهم: معنى سقط في أيديهم أي في قلوبهم وأنفسهم كما يقال حصل في يده مكروه وإن كان محالاً أن يكون في اليد تشبيهاً لما يحصل في القلب والنفس بما يحصل في اليد لأن مباشرة الأشياء في الغالب باليد، قال تعالى (ذلك بما قدمت يداك).

وأيضاً الندم وإن حلَّ القلب فأثره يظهر في اليد لأن النادم يعض يده ويضرب إحدى يديه على الأخرى، قال تعالى (فأصبح يقلب كفّيه على ما أنفق فيها) ومنه: (ويوم يعض الظالم على يديه) أي من الندم وأيضاً النادم يضع ذقنه في يده.

(ورأوا) أي تبينوا وتيقنوا (أنهم قد ضلوا) باتخاذهم العجل وأنهم قد ابتلوا بمعصية الله سبحانه في عبادتهم العجل (قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكوننَّ من الخاسرين) وفي هذا الكلام منهم ما يفيد الاستغاثة بالله والتضرع والابتهال في السؤال **والاعتراف بعظم** ما أقدموا عليه من **الذنب**، والندم على ما صدر منهم والرَّغب إلى الله في إقالة عثرتهم واعترافهم على أنفسهم بالخسران إن لم يغفر لهم ربهم ويتب عليهم ويتجاوز عنهم ويرحمهم، وسيأتي في سورة طه إن شاء الله ما يدل على أن هذا الكلام المحكي عنهم هنا وقع بعد رجوع موسى، وإنما قدم هنا على رجوعه لقصد حكاية ما صدر عنهم من القول والفعل في موضع واحد.." [٢]

"(و) ممن حولكم أو من أهل المدينة قوم (آخرون اعترفوا بذنوبهم) المعنى إن هؤلاء الجماعة تخلفوا عن الغزو بغير عذر مسوغ للتخلف ثم ندموا على ذلك ولم يعتذروا بالأعذار الكاذبة كما اعتذر المنافقون، بل تابوا واعترفوا **بالذنب** ورجوا أن يتوب الله عليهم.

---

(١) تفسير القرطبي، شمس الدين القرطبي ٨/٢٤٢

(٢) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ٥/٢٢

(خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً) المراد بالعمل الصالح ما تقدم من إسلامهم وقيامهم بشرائع الإسلام وخروجهم إلى الجهاد في سائر المواطن، والمراد بالعمل السيء هو تخلفهم عن هذه الغزوة، وقد أتبعوا هذا العمل السيّء عملاً صالحاً وهو **الاعتراف به** والتوبة عنه. وأصل **الاعتراف الإقرار** بالشيء ومجرد الإقرار لا يكون توبة إلا إذا اقترن به الندم على الماضي والعزم على تركه في الحال والاستقبال، وقد وقع منهم ما يفيد هذا.

ومعنى الخلطة أنهم خلطوا كل واحد منهما بالآخر كقولك خلطت الماء باللبن واللبن بالماء؛ ذكره غالب المفسرين وأنكره الرازي وقال: الواو لمطلق الجمع، وفيه تنبيه على نفي القول بالمخالطة وأنه بقي كل واحد منهما كما كان من غير أن يتأثر أحدهما بالآخر.

ويجوز أن يكون الواو بمعنى الباء، كقولك بعت الشاء شاة ودرهماً أي بدرهم وقال الواحدي: الواو أحسن من الباء لأنه أريد به معنى الجمع لا حقيقة الخلط ألا ترى أن العمل الصالح لا يختلط بالسيء كما لا يختلط الماء باللبن لكن قد يجمع بينهما؛ وقال التفتازاني: وتحقيقه أن الواو للجمع والباء." [1]

"(يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله) في مخالفة أمر الرسول صلى الله عليه وسلم (وكونوا مع الصادقين) هذا الأمر بالكون مع الصادقين بعد قصة الثلاثة يفيد الإشارة إلى أن هؤلاء الثلاثة حصل لهم بالصدق ما حصل من توبة الله، وظاهر الآية الأمر للعباد على العموم، قال نافع: قيل للثلاثة كونوا مع محمد وأصحابه. وقال سعيد بن جبير: كونوا مع أبي بكر وعمر وزاد الضحاك وأصحابهما وعن ابن عباس مع علي بن أبي طالب، وعن جعفر قال: مع الثلاثة الذين خلفوا.

قال ابن جرير: مع المهاجرين وقيل مع الذين خرجوا مع رسول الله – صلى الله عليه وسلم – إلى تبوك، وقيل مع الذين صدقوا في **الاعتراف بالذنب** ولم يعتذروا بالأعذار الباطلة، وهذه الآية تدل على فضيلة الصدق.

روي أن أبا بكر احتج بهذه الآية على الأنصار في يوم السقيفة حين قال الأنصار منا أمير ومنكم أمير، فقال: إن الله يقول في كتابه (للفقراء المهاجرين) إلى قوله: (أولئك هم الصادقون) فمن هؤلاء قال الأنصار أنتم هم؛ فقال إن الله يقول: (اتقوا الله وكونوا مع الصادقين) فأمركم أن تكونوا معنا ولم يأمرنا أن نكون معكم.." [2]

---

(١) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ٣٨٧/٥

(٢) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ٤٢٠/٥

"الوجه الحادي عشر : أن هذا الكلام فيه ـ مع **الاعتراف / بالذنب** ـ الاعتذار بذكر سببه، فإن قولها : ﴿ أَنَاْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ [يوسف : ٥١] ، فيه اعتراف **بالذنب**، وقولها : ﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ﴾ [يوسف : ٥٣] ، إشارة تطابق لقولها : ﴿ أَنَاْ رَاوَدتُّهُ ﴾ أي : أنا مقرة **بالذنب** ما أنا مبرئة لنفسي . ثم بينت السبب فقالت : ﴿ إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ﴾ . فنفسي من هذا الباب، فلا ينكر صدور هذا مني . ثم ذكرت ما يقتضي طلب المغفرة والرحمة، فقالت : ﴿ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

فإن قيل : فهذا كلام من يقر بأن الزنا ذنب، وأن اللّه قد يغفر لصاحبه .

قلت : نعم . والقرآن قد دل على ذلك، حيث قال زوجها : ﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ ﴾ [يوسف : ٢٩] ، فأمره لها بالاستغفار لذنبها دليل أنهم كانوا يرون ذلك ذنباً ويستغفرون منه، وإن كانوا مع ذلك مشركين، فقد كانت العرب مشركين وهم يحرمون الفواحش، ويستغفرون اللّه منها، حتى إن النبي صلى الله عليه وسلم لما بايع هند بنت عتبة بن ربيعة بيعة النساء على ألا تشرك باللّه شيئًا، ولا تسرق ولا تزني . قالت : أو تزني الحرة ؟ وكان الزنا معروفًا عندهم في الإماء .

ولهذا غلب على لغتهم أن يجعلوا الحرية في مقابلة الرق، وأصل / اللفظ هو العفة، ولكن العفة عادة من ليست أمة، بل قد ذكر البخاري في صحيحه عن أبي رجاء العطاردي، أنه رأى في الجاهلية قرداً يزنى بقردة، فاجتمعت القرود عليه حتى رجمته .

وقد حدثني بعض الشيوخ الصادقين، أنه رأي في جامع نوعًا من الطير قد باض، فأخذ الناس بيضه، وجاء ببيض جنس آخر من الطير، فلما انفقس البيض خرجت الفراخ من غير الجنس، فجعل الذكر يطلب جنسه، حتى اجتمع منهن عدد فما ز ا لوا بالأنثي حتى قتلوها، ومثل هذا معروف في عادة البهائم .
". (١)

"فجملة ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ عطف على جملة ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ﴾ [الأنعام: ٤٠] ، والواو لعطف الجمل، فتكون استئنافية إذ كانت المعطوف عليها استئنافا.وافتتحت هذه الجملة بلام القسم و"قد"لتوكيد مضمون الجملة، وهو المفرع بالفاء في قوله: ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ .نزل السامعون المعرض بإنذارهم منزلة من ينكرون أن يكون ما أصاب الأمم الذين من قبلهم عقابا من الله تعالى على إعراضهم.

---

(١) <مجموع فتاوى ابن تيمية (التفسير)، ٣/٣٣٦

وقوله: ﴿فأخذناهم﴾ عطف على ﴿أرسلنا﴾ باعتبار ما يؤذن به وصف ﴿مِنْ قَبْلِكَ﴾ من معاملة أممهم إياهم بمثل ما عاملك به قومك، فيدل العطف على محذوف تقديره: فكذبوهم.

ولما كان أخذهم بالبأساء والضراء مقارنا لزمن وجود رسلهم بين ظهرانيهم كان الموقع لفاء العطف للإشارة إلى أن ذلك كان بمرأى رسلهم وقبل انقراضهم ليكون إشارة إلى أن الله أيد رسله ونصرهم في حياتهم؛ لأن أخذ الأمم بالعقاب فيه حكمتان: إحداهما زجرهم عن التكذيب، والثانية: إكرام الرسل بالتأييد بمرأى من المكذبين.وفيه تكرمة للنبي صلى الله عليه وسلم بإيذانه بأن الله ناصره على مكذبيه.

ومعنى ﴿أخذناهم﴾ أصبناهم إصابة تمكن.وتقدم تفسير الأخذ عند قوله تعالى: ﴿أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾ في سورة البقرة[٢٠٦] .

وقد ذكر متعلق الأخذ هنا لأنه أخذ بشيء خاص بخلاف الآتي بعيد هذا.

والبأساء والضراء تقدما عند قوله تعالى: ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ في سورة البقرة[١٧٧] .وقد فسر البأساء بالجوع والضراء بالمرض، وهو تخصيص لا وجه له، لأن ما أصاب الأمم من العذاب كان أصنافا كثيرة.ولعل من فسره بذلك اعتبر ما أصاب قريشا بدعوة النبي صلى الله عليه وسلم.

و"لعل"للترجي.جعل علة لابتداء أخذهم بالبأساء والضراء قبل الاستئصال.

ومعنى ﴿يتضرعون﴾ يتذللون لأن الضراعة التذلل والتخشع، وهو هنا كناية عن الاعتراف بالذنب والتوبة منه، وهي الإيمان بالرسل.

والمراد: أن الله قدم لهم عذابا هينا قبل العذاب الأكبر، كما قال: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [السجدة: ٢١]

وهذا من فرط رحمته الممازجة لمقتضى حكمته؛ وفيه إنذار لقريش بأنهم سيصيبهم البأساء والضراء قبل." (١)

"قوله: ﴿فَجَاءَهَا بَأْسُنَا﴾ لأنه من بقية المذكور، ويصح أن يكون للترتيب المعنوي لأن دعواهم ترتبت على مجيء البأس.

والدعوى اسم بمعنى الدعاء كقوله: ﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾ [يونس: ١٠] وهو كثير في القرآن. والدعاء هنا لرفه العذاب أي الاستغاثة عند حلول البأس وظهور أسباب العذاب، وذلك أن شأن الناس إذا حل بهم العذاب أن يجأروا إلى الله بالاستغاثة، ومعنى الحصر أنهم لم يستغيثوا الله ولا توجهوا إليه بالدعاء

---

(١) التحرير والتنوير، ٩٨/٦

ولكنهم وضعوا **الاعتراف بالظلم** موضع الاستغاثة فلذلك استثناه الله من الدعوى.

ويجوز أن تكون الدعوى بمعنى الادعاء أي: انقطعت كل الدعاوى التي كانوا يدعونها من تحقيق تعدد الآلهة وأن دينهم حق، فلم تبق لهم دعوى، بل اعترفوا بأنهم موكلون، فيكون الاستثناء منقطعا لأن اعترافهم ليس بدعوى.

واقتصارهم على قولهم: ﴿إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ إما لأن ذلك القول مقدمة التوبة لأن التوبة يتقدمها **الاعتراف بالذنب**، فهم اعترفوا على نية أن ينتقلوا من **الاعتراف إلى** طلب العفو، فعوجلوا بالعذاب، فكان اعترافهم آخر قولهم في الدنيا مقدمة لشهادة ألسنتهم عليهم في الحشر، وإما لأن الله أجرى ذلك على ألسنتهم وصرفهم عن الدعاء إلى الله ليحرمهم موجبات تخفيف العذاب.

وأياما كان فإن جريان هذا القول على ألسنتهم كان نتيجة تفكرهم في ظلمهم في مدة سلامتهم، ولكن العناد والكبرياء يصدانهم عن الإقلاع عنه،ومن شأن من تصيبه شدة أن يجري على لسانه كلام، فمن اعتاد قول الخير نطق به، ومن اعتاد ضده جرى على لسانه كلام التسخط ومنكر القول، فلذلك جرى على لسانهم ما كثر جولاته في أفكارهم.

والمراد بقولهم: ﴿كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ أنهم ظلموا أنفسهم بالعناد، وتكذيب الرسل، والإعراض عن الآيات، وصم الأذان عن الوعيد والوعظ، وذلك يجمعه الإشراك بالله، قال تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، وذلك موضع الاعتبار للمخاطبين بقوله: ﴿وَلا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ [الأعراف: ٣] أي أن الله لم يظلمهم، وهو يحتمل أنهم علموا ذلوا بمشاهدة العذاب وإلهامهم أن مثل ذلك العذاب لا ينزل إلا بالظالمين، أو بوجدانهم إياه على الصفة الموعود بها على ألسنة رسلهم، فيكون الكلام إقرارا محضا أقروا به في أنفسهم، فصيغة الخبر مستعملة في إنشاء الإقرار، ويحتمل أنهم كانوا يعلمون أنهم ظالمون، من قبل نزول العذاب، وكانوا مصرين عليه ومكابرين، فلما رأوا العذاب ندموا." (١)

"والفتنة ما يقع به اضطراب الاحوال، ومرجها، وتشتت البال، وقد مضى تفسيرها عند قوله تعال ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ﴾ في سورة البقرة [١٠٢]، وقوله ﴿وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ في سورة العقود [٧١] وقوله: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ في سورة الأنعام [٢٣].

والقصد من جملة ﴿أَنْتَ وَلِيُّنَا﴾ **الاعتراف بالانقطاع** لعبادة الله تعالى، تمهيدا لمطلب المغفرة والرحمة،

---

(١) التحرير والتنوير، ١٩/٨

لان شأن الولي أن يرحم مولاه وينصره.

والولي: الذي له ولاية على أحد، والولاية حلف أو عتق يقتضي النصرة والإعانة، فان كان من جانبين متكافئين فكلا المتعاقدين يقال له مولى، وان كان أحد الجانبين أقوى قيل للقوي ولي وللضعيف مولى وإذ قد كانت الولاية غير قابلة للتعدد، لان المرء لا يتولى غير مواليه، كان قوله: ﴿أَنْتَ وَلِيُّنَا﴾ مقتضيا عدم الانتصار بغير الله، وفي صريحه صيغة قصر.

والتفريع عن الولاية في قوله: ﴿فَاغْفِرْ لَنَا﴾ تفريع كلام على كلام وليس المراد أن الولي يتعين عليه الغفران.

وقدم المغفرة على الرحمة لان المغفرة سبب لرحمات كثيرة، فان المغفرة تنهية لغضب الله المترتب على الذنب، فإذا انتهى الغضب تسنى أن يخلفه الرضا.والرضا يقتضي الإحسان.

و ﴿خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾ الذي يغفر كثيرا، وقد تقدم قريب منه في قوله تعالى: ﴿بَلِ اللَّهُ مَوْلاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ﴾ في سورة آل عمران [١٥٠].

وإنما عطف جملة ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾ لأنه خبر في معنى طلب المغفرة العظيمة، فعطف على الدعاء، كأنه قيل: فاغفر لنا وارحمنا واغفر لنا جميع ذنوبنا، لان الزيادة في المغفرة من آثار الرحمة.

﴿وَاكْتُبْ﴾ مستعار لمعنى العطاء المحقق حصوله، المجدد مرة بعد مرة، لان الذي يريد تحقيق عقد، أو عدة، أو عطاء، وتعلقه بالتجدد في المستقبل يكتب به في صحيفة، فلا يقبل النكران، ولا النقصان، ولا الرجوع، وتسمى تلك الكتابة عهدا، ومنه ما كتبوه في صحيفة القطيعة، وما كتبوه من حلف ذي المجاز، قال الحارث ابن حلزة.

حذر الجور والتطاخي وهل ينقض ما في المهارق الأهواء." (١)

"والاعتراف: افتعال من عرف. وهو للمبالغة في المعرفة، ولذلك صار بمعنى الإقرار بالشيء وترك إنكاره، **فالاعتراف بالذنب** كناية عن التوبة منه، لأن الإقرار **بالذنب** الفائت إنما يكون عند الندم والعزم على عدم العود إليه، ولا يتصور فيه الإقلاع الذي هو من أركان التوبة لأنه ذنب مضى، ولكن يشترط فيه العزم على أن لا يعود.

وخلطهم العمل الصالح والسيئ هو خلطهم حسنات أعمالهم بسيئات التخلف عن الغزو وعدم الإنفاق على الجيش.

وقوله: ﴿خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا﴾ جاء ذكر الشيئين المختلطين بالعطف بالواو على اعتبار استوائهما

---

(١) التحرير والتنوير، ٣٠٩/٨

في وقوع فعل الخلط عليهما. ويقال: خلط كذا بكذا على اعتبار أحد الشيئين المختلطين متلابسين بالخلط، والتركيبان متساويان في المعنى، ولكن العطف بالواو أوضح وأحسن فهو أفصح.

وعسى: فعل رجاء. وهي من كلام الله تعالى المخاطب به النبي صلى الله عليه وسلم فهي كناية عن وقوع المرجو، وأن الله قد تاب عليهم؛ ولكن ذكر فعل الرجاء يستتبع معنى اختيار المتكلم في وقوع الشيء وعدم وقوعه.

ومعنى: ﴿أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ أي يقبل توبتهم، وقد تقدم عند قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ﴾ في سورة البقرة[٣٧].

وجملة: ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ تذييل مناسب للمقام.

[١٠٣] ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاَتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ .

لما كان من شرط التوبة تدارك ما يمكن تداركه مما فات وكان التخلف عن الغزو مشتملا على أمرين هما عدم المشاركة في الجهاد، وعدم إنفاق المال في الجهاد، جاء في هذه الآية إرشاد لطريق تداركهم ما يمكن تداركه مما فات وهو نفع المسلمين بالمال، فالأنفاق العظيم على غزوة تبوك استنفد المال المعد لنوائب المسلمين، فإذا أخذ من المخلفين شيء من المال انجبر به بعض الثلم الذي حل بمال المسلمين.

فهذا وجه مناسبة ذكر هذه الآية عقب التي قبلها.وقد روي أن الذين اعترفوا بذنوبهم قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم: هذه أموالنا التي بسببها تخلفنا عنك خذها فتصدق بها وطهرنا." (١)

"بالأسباب يكسب كلامه على المسببات قوة وتحقيقا.

ولذلك عطف على ذلك قوله: ﴿أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ بفاء التفريع عاطفة استفهاما إنكاريا عن عدم تعقلهم، أي تأملهم في دلالة حاله على صدقه فيما يبلغ ونصحه لهم فيما يأمرهم. والعقل: العلم.

وعطف جملة ﴿وَيَا قَوْمِ﴾ مثل نظيرها في قصة نوح – عليه السلام – آنفا.

والاستغفار: طلب المغفرة للذنب، أي طلب عدم المؤاخذة بما مضى منهم من الشرك، وهو هنا مكنى به عن ترك عقيدة الشرك لأن استغفار الله يستلزم **الاعتراف بوجوده** ويستلزم اعتراف المستغفر بذنب في جانبه ولم يكن لهم ذنب قبل مجيء هود عليه السلام إليهم غير ذنب الإشراك إذ لم يكن له شرع من قبل. وأما ذنب الإشراك فهو متقرر من الشرائع السابقة جميعها فكان معلوما بالضرورة فكان الأمر بالاستغفار جامعا

---

(١) التحرير والتنوير، ١٩٥/١٠

لجميع هذه المعاني تصريحا وتكنية.

والتوبة: الإقلاع عن **الذنب** في المستقبل والندم على ما سلف منه. وفي ماهية التوبة العزم على عدم العود إلى **الذنب** فيؤول إلى الأمر بالدوام على التوحيد ونفي الإشراك.

و ﴿ثُمَّ﴾ للترتيب الرتبي، لأن الدوام على الإقلاع أهم من طلب العفو عما سلف.

و ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ﴾ جواب الأمر من ﴿اسْتَغْفِرُوا﴾ .

والإرسال: بعث من مكان بعيد فأطلق الإرسال على نزول المطر لأنه حاصل بتقدير الله فشبه بإرسال شيء من مكان المرسل إلى المبعوث إليه.

والسماء من أسماء المطر تسمية للشيء باسم مصدره. وفي الحديث "خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على أثر سماء" .

و ﴿مِدْرَاراً﴾ حال من السماء صيغة مبالغة من الدرور وهو الصب، أي غزيرا. جعل جزاءهم على الاستغفار والتوبة إمدادهم بالمطر لأن ذلك من أعظم النعم عليهم في الدنيا إذ كانت عاد أهل زرع وكروم فكانوا بحاجة إلى الماء، وكانوا يجعلون السداد لخزن الماء. والأظهر أن الله أمسك عنهم المطر سنين فتناقص نسلهم ورزقهم جزاء على الشرك بعد أن أرسل إليهم هودا – عليه السلام –؛ فيكون قوله: ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ﴾ وعدا وتنبيها على غضب الله عليهم، وقد كانت ديارهم من حضرموت إلى الأحقاف مدنا وحللا وقبابا.." (١)

"﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [سورة الأنبياء: ١٨].

والكيد: تقدم.

[٥٣] ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

ظاهر ترتيب الكلام أن هذا من كلام امرأة العزيز، مضت في بقية إقرارها فقالت ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي﴾. وذلك كالاحتراس مما يقتضيه قولها ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ [سورة يوسف: ٥٢] من أن تبرئة نفسها من هذا **الذنب** العظيم ادعاء بأن نفسها بريئة براءة عامة فقالت ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي﴾ ، أي ما أبرئ نفسي من محاولة هذا الإثم لأن النفس أمارة بالسوء وقد أمرتني بالسوء ولكنه لم يقع.

فالواو التي في الجملة استئنافية، والجملة ابتدائية.

وجملة ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ تعليل لجملة ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي﴾. أي لا أدعي براءة نفسي من ارتكاب **الذنب**، لأن النفوس كثيرة الأمر بالسوء.

---

(١) التحرير والتنوير، ٢٧٨/١١

والاستثناء في ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ استثناء من عموم الأزمان، أي أزمان وقوع السوء، بناء على أن أمر النفس به يبعث على ارتكابه في كل الأوقات إلا وقت رجمة الله عبده، أي رحمته بأن يفيض له ما يصرفه عن فعل السوء، أو يقيض حائر بينه وبين فعل السوء، كما جعل إباية يوسف – عليه السلام – من أجابتها إلى ما دعته إليه حائلا بينها وبين التورط في هذا الإثم، وذلك لطف من الله بهما.

ولذلك ذيلته بجملة ﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ثناء على الله بأنه شديد المغفرة لمن أذنب، وشديد الرحمة لعبده إذا أراد صرفه عن **الذنب**.

وهذا يقتضي أن قومها يؤمنون بالله ويحرمون الحرام، وذلك لا ينافي أنهم كانوا مشركين فإن المشركين من العرب كانوا يؤمنون بالله أيضا. قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [سورة العنكبوت: ٦١] وكانوا يعرفون البر **والذنب**.

وفي اعتراف امرأة العزيز بحضرة الملك عبرة بفضيلة **الاعتراف بالحق**، وتبرئة البريء مما ألصق به، ومن خشية عقاب الله الخائنين.

وقيل: هذا الكلام كلام يوسف – عليه السلام – متصل بقوله: ﴿ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ." [1]

"فعل ناشئ عن وسوسة الشيطان ولولاها لكان عمله جاريا على الأحوال المأذونة.

وفي هذا دليل على أن الأصل في النفس الإنسانية هو الخير وأنه الفطرة وأن الانحراف عنها يحتاج إلى سبب غير فطري وهو تخلل نزع الشيطان في النفس.

ومتعلق ﴿عَدُوٌّ﴾ محذوف لدلالة المقام أي عدو لآدم وذرية آدم.

ورتب على الأخبار عنه بالعداوة وصفه بالإضلال لأن العدو يعمل لإلحاق الضر بعدوه. و ﴿مُبِينٌ﴾ وصف لـ ﴿مُضِلٌّ﴾ لا خبر ثان ولا ثالث.

[١٦] ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾

بدل اشتمال من جملة ﴿قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ [القصص: ١٥] لأن الجزم بكون ما صدر منه من عمل الشيطان وتغريره يشتمل على أن ذلك ظلم لنفسه، وأن يتوجه إلى الله **بالاعتراف بخطئه** ويفرع عليه طلب غفرانه. وسمى فعله ظلما لنفسه لأنه كان من أثر فرط الغضب لأجل رجل من شيعته، وكان يستطيع أن يملك من غضبه فكان تعجيله بوكز القبطي وكزة قاتلة ظلما جره لنفسه. وسماه في [سورة الشعراء: ٢٠] ضلالا ﴿قَالَ فَعَلْتُهَا إِذاً وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾.

---

(١) التحرير والتنوير، ٧٩/١٢

وأراد بظلمه نفسه أنه تسبب لنفسه في مضرة إضمار القبط قتله، وإنه تجاوز الحد في عقاب القبطي على مضاربته الإسرائيلي. ولعله لم يستقص الظالم منهما وذلك انتصار جاهلي كما قال وداك ابن ثميل المازني يمدح قومه:

إذا استنجدوا لم يسألوا من دعاهم ... لأية حرب أم بأي مكان

وقد اهتدى موسى إلى هذا كله بالإلهام إذ لم تكن يومئذ شريعة إلهية في القبط. ويجوز أن يكون علمه بذلك مما تلقاه من أمه وقومها من تدين ببقايا دين إسحاق ويعقوب.

ولا التفات في هذا إلى جواز صدور **الذنب** من النبي لأنه لم يكن يومئذ نبيا، ولا مسألة صدور **الذنب** من النبي قبل النبوة؛ لأن تلك مفروضة فيما تقرر حكمه من الذنوب بحسب شرع ذلك النبي أو شرع نبي هو متبعه مثل عيسى عليه السلام قبل نبوءته لوجود شريعة التوراة وهو من أتباعها.." [1]

"﴿تَوَّاباً﴾ [النصر:٣].

وجملة ﴿إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ قرار **بالذنب**، والتأكيد لتحقيق الإقرار والاهتمام به. ويفيد حرف "إن" مع ذلك تعليلا للتسبيح الذي قبله. وحذف مفعول ﴿ظَالِمِينَ﴾ ليعم ظلمهم أنفسهم بما جروه على أنفسهم من سلب النعمة، وظلم المساكين بمنعهم من حقهم في المال.

وجرت حكاية جوابهم على طريقة المحاورة فلم تعطف وهي الطريقة التي نبهنا عليها عند قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾ في [البقرة: ٣٠].

ولما استقر حالهم على المشاركة في منع المساكين حقهم أخذ بعضهم يلوم بعضا على ما فرط من فعلهم: كل يلوم غيره بما كان قد تلبس به في هذا الشأن من ابتكار فكرة منع المساكين ما كان حقا لهم في حياة الأب، ومن الممالاة على ذلك، ومن الاقتناع بتصميم البقية، ومن تنفيذ جميعهم ذلك العزم الذميم، فصور قوله ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلاوَمُونَ﴾ هذه الحالة والتقاذف الواقع بينهم بهذا الإجمال البالغ غاية الإيجاز، ألا ترى أن إقبال بعضهم على بعض يصور حالة تشبه المهاجمة والتقريع، وأن صيغة التلاوم مع حذف متعلق التلاوم تصور في ذهن السامع صورا من لوم بعضهم على بعض.

وقد تلقى كل واحد منهم لوم غيره عليه بإحقاق نفسه بالملامة وإشراك بقيتهم فيها فقال كل واحد منهم ﴿يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ﴾ إلى آخره، فأسند هذا القول إلى جميعهم لذلك.

فجملة ﴿ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ﴾ إلى آخرها يجوز أن تكون مبينة لجملة ﴿يَتَلاوَمُونَ﴾ أي يلوم

---

(١) التحرير والتنوير، ٣١/٢٠

بعضهم بعضا بهذا الكلام فتكون خبرا مستعملا في التقريع على طريقة التعريض بغيره والإقرار على نفسه، مع التحسر والتندم بما أفاده ﴿يَا وَيْلَنَا﴾ . وذلك كلام جامع للملامة كلها ولم تعطف الجملة لأنها مبينة. ويجوز أن تكون جواب بعضهم بعضا عن لومه غيره، فكما أجمعوا على لوم بعضهم بعضا كذلك أجمعوا على إجابة بعضهم بعضا عن ذلك الملام فقال كل ملوم للائمه ﴿يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ﴾ الخ جوابا بتقرير ملامة **والاعتراف بالذنب** ورجاء العفو من الله وتعويضهم عن جنتهم خيرا منها إذ قبل توبتهم وجعل لهم ثواب الدنيا مع ثواب الآخرة، فيكون ترك العطف لأن فعل القول جرى في طريقة المحاورة.." (١)

"فكانت تضرب بهما ليسمعهما الرجال فنهى الله عز وجل عن ذلك قال الزجاج إسماع صوت الزينة أشد تحريكا للشهوة من إبدائها وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون التوبة واجبة على كل مؤمن مكلف بدليل الكتاب والسنة وإجماع الأمة وفرائضها ثلاثة الندم على **الذنب** من حيث عصى به ذو الجلال لا من حيث أضر ببدن أو مال والإقلاع عن **الذنب** في أول أوقات الإمكان من غير تأخير ولا توان والعزم أن لا يعود إليها أبدا ومهما قضى عليه بالعود أحدث عزما مجددا وآدابها ثلاثة **الاعتراف بالذنب** مقرونا بالانكسار والإكثار من التضرع والاستغفار والإكثار من الحسنات لمحو ما تقدم من السيئات ومراتبها سبع فتوبة الكفار من الكفر وتوبة المخلطين من الذنوب والكبائر وتوبة العدول من الصغائر وتوبة العابدين من الفترات وتوبة السالكين من علل القلوب والآفات وتوبة أهل الورع من الشبهات وتوبة أهل المشاهدة من الغفلات والبواعث على التوبة سبعة خوف العقاب ورجاء الثواب والخجل ... ٤٥٩." (٢)

"قال ابن جني : " وهو قوي في القياس ، شاذ في السماع ".

والثاني : أنها لام الأمر ، وهذا وإن تمشى في " ليرضوه وليقترفوا : فلا يتمشى في : " ولتصغى " إذ حرف العلة يحذف جزما.

قال أبو البقاء : " وليست لام الأمر ؛ لأنه لم يجزم الفعل ".

قال شهاب الدين : قد ثبت حرف العلة جزما في المتواتر ، فمنها : ﴿أرسله معنا غدا يرتع ويلعب﴾ [يوسف : ١٢] ﴿إنه من يتق ويصبر فإن الله﴾ [يوسف : ٩٠] ﴿سنقرئك فلا تنسى ﴾ [الأعلى : ٦] ﴿لا تخاف دركا ولا تخشى ﴾ [طه : ٧٧] وفي كل ذلك تاويلات ستقف عليها – إن شاء الله تعالى – فتلكن هذه القراءة الشاذى مثل هذه المواضع ، والقول بكون لام " لتصغى " لام "كي " سكنت ؛ لتوالي

---

(١) التحرير والتنوير، ٨٢/٢٩

(٢) التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزى، ٢٥٩/٢

الحركات واللامين بعدها لامي أمر بعيد وتشه.

وقال النحاس : ويقرأ : " وليقترفوا " يعني بالسكون ، قال : " وفيه معنى التهديد ".

يريد : أنه أمر تهديد ؛ كقوله : ﴿اعملوا ما شئتم إنه بما تعملون بصير﴾ [فصلت : ٤٠] ولم يحك التسكين في " لتصغى " ، ولا في " لترضوه ".

و " ما " في " ما هم مقترفون " موصولة اسمية ، أو نكرة موصوفة مصدرية ، والعائد على كلا القولين الأولين محذوف ، أيك " ما هم مقترفوه ".

[و] قال أبو البقاء : " وأثبت النون لما حذفت الهاء " يريد : أن الضمير المتصل باسم الفاعل المثنى والمجموع على حده ، تحذف له نون التثنية والجمع ، نحو : " هذان ضارباه " و " هؤلاء ضاربوه " فغذا حذف الضمير ، وقد ثبتت ؛ قال القائل : [الطويل] ٢٢٩٥ - ولم يرتقق والناس محتضرونه

جميعا وأيدي المعتفين رواهقه

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٣٨٧

وقال القائل في ذلك : [الطويل] ٢٢٦٩ - هم الفاعلون الخير والآمرونه

....

والاقتراف : الاكتساب ، واقترف فلان لأهله ، أي : اكتسب ، وأكثر ما يقال في الشر والذنب ، ويطلق في الخير ، قال - تعالى - ﴿ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسنا﴾ [الشورى : ٢٣].

وقال ابن الأنباري : " قرف واقترف : اكتسب " وأنشد في ذلك : [الطويل]

٣٩٠

٢٢٩٧ - وإني لآت ما أتيت وإنني

لما اقترفت نفسي علي لراهب

وأصل القرف والاقتراف : قشر لحاء الشجر ، والجلدة من أعلى الحرج وا يؤخذ منه قرف ، ثم استعير الاقتراف للاكتساب حسنا كان ، أو سئا وفي السيئ أكثر استعملا وقارف فلان أمرا : تعاطى ما يعاب به.

وقيل : الاعتراف يزيل الاقتراف ، ورجل مقرف ، أي : هجين : قال الشاعر : [الرمل] ٢٢٩٨ - كم بجود مقرف نال العلى

وشريف بخله قد وضعه

وقرفته بكذا : اتهمته ، أو عبته به ، وقارف الذنب وعبره ، إذا أتاه ولا صقه ، وقارف امرأته ، وإذا جامعها

، والمقترف من الخيل : الهجين ، وهو الذي أمه برذون ، وأبوه عربي.
وقيل : بالعكس.
وقيل : هو الذي دان الهجنة وقارفها ، ومن حديث عمر – رضي الله عنه – : كتب إلى أبي موسى في البراذين ما قارف العتاق منها ، فأجعل له منهما واحدا ، أي : قاربها وداناها ، نقله ابن الأثير.
فصل في تقدير الآية قال ابن الخطيب [قال أصحابنا] تقدير الآية الكريمة : وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا من شياطين الجن والإنس ، وصفته : أنه يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروا ، وإنما فعلنا ذلك لتصغى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة أي : أوجدنا العداوة في قلب الشياطين الذين من صفتهم ما ذكرناه ، ليكون كلامهم المزخرف مقبولا عند هؤلاء الكفار.
قالوا : وإذ حملنا الآية على هذا الوجه ، يظهر أنه – تبارك وتعالى – يريد الكفر من الكافر.
أجاب المعتزلة عنه من ثلاثة أوجه : الأول : قال الجبائي : إن هذا الكلام خرج مخرج الأمر ، ومعناه : الزجر ؛ كقوله – تبارك وتعالى – : ﴿واستفزز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم﴾ [الإسراء : ٦٤] وكذا قوله : " وليرضوه ، وليقترفوا " وتقدير الكلام : كأنه قال للرسول – عليه السلام – : " فذرهم
٣٩١
". (١)

"والثواب ، والمعصية تبقى موجبة للذم والعقاب ؛ لأن قوله تعالى : ﴿خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا﴾ [التوبة : ١٠٢] يدل على أن كل واحد منهما يبقى كما كان من غير أن يتأثر أحدهما بالآخر ، لأنه وصفه بالاختلاط ، والمختلطان لا بد وأن يكونا باقيين حال اختلاطهم ، لأن الاختلاط صفة للمختلطين ، وحصول الوصف حال عدم الموصوف محال ؛ فدل على بقاء العملين حال الاختلاط.
فصل قوله : ﴿عسى الله أن يتوب عليهم﴾ يقتضي أن هذه التوبة إنما تحصل في المستقبل.
وقوله : ﴿وآخرون اعترفوا بذنوبهم﴾ يدل على أن ذلك الاعتراف حصل في الماضي ، وذلك يدل على أن ذلك الاعتراف ما كان مقرونا بنفس التوبة ؛ بل كان مقدما على التوبة ، والتوبة إنما حصلت بعده.
جزء : ١٠ رقم الصفحة : ١٧٧
قوله : ﴿خذ من أموالهم صدقة﴾ قال الحسن : هذا راجع إلى الذين تابوا ؛ لأنهم بذلوا أموالهم للصدقة ؛ فأوجب الله تعالى أخذها ، وصار ذلك معتبرا في كمال توبتهم ، فتكون جارية مجرى الكفارة.

(١) تفسير اللباب لابن عادل . موافق للمطبوع، ص/٢١٨٨

وليس المراد منها الصدقة الواجبة ، وإنما هي كفارة الذنب.

وهذا بناء على القول بأنهم ليسوا منافقين ، ويدل عليه قوله عليه الصلاة والسلام : " ما أمرت أن آخذ من أموالكم شيئا " فلو كانت واجبة لم يقل ذلك.

وأيضا روي أنه عليه الصلاة والسلام : أخذ الثلث وترك الثلثين.

والواجبة ليست كذلك.

وقيل : إن الزكاة كانت واجبة عليهم ، فلما تابوا عن تخلفهم عن الغزو ، وحسن إسلامهم ، وبذلوا الزكوات أمر الله رسوله أن يأخذها منهم.

وهذا بناء على أنهم كانوا منافقين.

وقيل : هذا كلام مبتدأ ، والمقصود منه إيجاب أخذ الزكاة من الأغنياء ، وعليه أكثر الفقهاء ، واستدلوا بقوله ﴿خذ من أموالهم صدقة﴾.

فدل على أن المأخوذ بعض تلك الأموال لا كلها ؛ لأن " من " للتبعيض ، ثم إن مقدار ذلك البعض غير مصرح به ، بل المصرح به قوله : " صدقة " ، وليس المراد منه التنكير حتى يكفي أخذ أي جزء كان ، وإن كان في غاية

١٩٣

". (١)

"فصل معنى : ﴿ضاقت عليهم الأرض بما رحبت﴾ تقدم تفسيره في هذه السورة وسببه : إعراض الرسول عنهم ، ومنع المؤمنين من مكالمتهم ، وأمر أزواجهم باعتزالهم ، وبقائهم على ذهه الحالة خمسين يوما ، وقيل : أكثر حتى ضاقت عليهم أنفسهم ، أي : ضاقت صدورهم بالغم والهم ، ومجانية الأولياء ، ونظر الاس إليهم بعين الإهانة ، و " ظنوا " أي : استيقنوا " أن لا ملجأ " لا مفزع من الله إلا إليه.

قال ابن الخطيب : يقرب معناه من قوله عليه الصلاة والسلام : " أعوذ برضاك من سخطك وأعوذ بعفوك من غضبك ، وأعوذ بك منك ".

قوله : ﴿ثم تاب عليهم ليتوبوا اا﴾ فيه وجوه : أحدها : قال أهل السنة : المراد منه أن فعل العبد مخلوق لله تعالى ، فقوله : " تاب عليهم " يدل على أن التوبة فعل الله وقوله : " ليتوبوا " يدل على أنها فعل العبد ؛ فهو نظير قوله : ﴿فليضحكوا قليلا﴾ [التوبة : ٨٢] مع قوله ﴿وأنه هو أضحك﴾ [النجم : ٤٣] وقوله

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . موافق للمطبوع، ص/٢٦٧٥

﴿كمآ أخرجك ربك من بيتك﴾ [الأنفال : ٥] مع قوله ﴿إذ أخرجه الذين كفروا﴾ [التوبة : ٤٠] وقوله ﴿هو الذي يسيركم﴾ [يونس : ٢٢] مع قوله : ﴿قل سيروا﴾ [الأنعام : ١١].

وثانيا : تاب عليهم في الماضي ليكون داعيا لهم إلى التوبة في المستقبل.

وثالثها : أصل التوبة الرجوع أي : تاب عليهم ؛ ليرجعوا إلى حالهم وعادتهم في الاختلاط بالمؤمنين ، وزوال المباينة فتسكن نفوسهم عند ذلك.

ورابعها : ﴿ثم تاب عليهم ليتوبوا اا﴾ أي : ليداوموا على التوبة ولا يراجعوا ما يبطلها.

وخامسها : ﴿ثم تاب عليهم﴾ لينتفعوا بالتوبة ﴿إن الله هو التواب الرحيم﴾.

واعلم أن ذكر " الرحيم " عقب ذكر " التواب " يدل على أن قبول التوبة لمحض الرحمة والكرم ، لا لأجل الوجوب ، كما تقول المعتزلة ، وذلك يقوي أنه لا يجب عقلا على الله قبول قوله تعالى : ﴿يأيها الذين آمنوا اتقوا الله﴾ الآية.

لما قبل توبة هؤلاء الثلاثة ، ذكر ما يكون كالزاجر عن فعل مثل ما مضى ، وهو التخلف عن رسول الله في الجهاد ، أي : اتقوا الله في مخالفة أمر الرسول ﴿وكونوا مع الصادقين﴾ أي : مع النبي وأصحابه في الغزوات ، ولا تتخلفوا عنها ، وتجلسوا مع المنافقين في البيوت.

قال نافع : " مع الصادقين " أي : مع محمد.

وقال سعيد بن جبير : مع أبي بكر وعمر.

٢٣٤

قوال ابن جريج : مع المهاجرين ، لقوله تعالى : ﴿للفقرآء المهاجرين﴾ [الحشر : ٨] إلى قوله ﴿أولائك هم الصادقون﴾ [الحشر : ٨].

وقال ابن عباس : مع الذين صدقت نياتهم ؛ فاستقامت قلوبهم وأعمالهم ، وخرجوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى تبوك بإخلاص ونية.

وقيل : من الذين صدقوا في **الاعتراف بالذنب** ، ولم يعتذروا بالأعذار الكاذبة.

فصل دلت الآية على فضيلة الصدق ، وكمال درجته ، قال ابن مسعود : إن الكذب لا يصلح في جد ولا هزل ، ولا أن يعد أحدكم صبية شيئا ثم لا ينجز له ، اقرءوا إن شئتم ، وقرأ الآية.

" وروي أن رجلا جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقال : إني أريد أن أومن بك إلا أني أحب الزنا ، والخمر ، والسرقة ، والكذب ، والناس يقولون : إنك تحرم هذه الأشياء ، ولا طاقة لي على تركها بأسرها ،

فإن قنعت مني بترك واحد منها آمنت بك ، فقال عليه الصلاة والسلام : " فقبل ذلك ثم أسلم ، فلما خرج من عند النبي صلى الله عليه وسلم عرضوا عليه الخمر ، فقال : إن شربت الخمر فسألني رسول الله صلى الله عليه وسلم عن شربها ، وكذبت فقد نقضت العهد ، وإن صدقت أقام الحد علي ، فتركها ، ثم عرضوا عليه الزنا ؛ فجاء ذلك الخاطر ، فتركه ، وكذا في السرقة ، فعاد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : ما أحسن ما قلت ، لما منعتني من الكذب انسدت أبواب المعاصي علي ، " وتاب عن الكل وقال ابن مسعود : " عليكم بالصدق فإنه يقرب إلى البر ، والبر يقرب إلى الجنة ، وإن العبد ليصدق ؛ فيكتب عند الله صديقا ، وإياكم والكذب ، فإن الكذب يقرب إلى الفجور ، والفجور يقرب إلى النار ، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذابا ، ألا ترى أنه يقال : صدقت ، وبررت ، وكذبت ، وفجرت ".

وقيل في قول إبليس : ﴿قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين﴾ [ص : ٨٢ ، ٨٣] إن إبليس لو لم يذكر هذا الاستثناء لصادر كاذبا في ادعاء إغواء الكل ، فكأنه استنكف عن الكذب ؛ فذكر هذا الاستثناء ، وإذا كان الكذب شيئا يستنكف منه إبليس ، فالمسلم أولى أن يستنكف منه ومن فضائل الصدق أن الإيمان منه لا من سائر الطاعات ، ومن معايب الكذب أن الكفر منه لا من سائر الذنوب.

٢٣٥

". (١)

" صفحة رقم ٢٧٥

الآيات ما مثله آمن عليه البشر) أخرجه الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه .

ولما كان التقدير : فلو أطاعوك لكان خيراً لهم ، عطف عليه قوله : (ولو أنهم إذ) أي حين) ظلموا أنفسهم) أي بالتحاكم إلى الطاغوت أو غيره) جاءوك) أي مبادرين) فاستغفروا الله) أي عقبوا مجيئهم بطلب المغفرة من الملك الأكرم لما استحضروه له من الجلال) واستغفر لهم الرسول) أي ما فرطوا بعصيانه فيما استحقه عليهم الطاعة) لوجدوا الله) أي الملك الأعظم) تواباً رحيماً) أي بليغ التوبة على عبيده والرحمة ، لإحاطته بجميع صفات الكمال ، فقبل توبتهم ومحا ذنوبهم وأكرمهم .

ولما أفهم ذلك أن إباءهم لقبول حكمه **والاعتراف بالذنب** لديه سبب مانع لهم من الإيمان ، قال – مؤكداً للكلام غاية التأكيد بالقسم المؤكد لإثبات مضمونه و (لا) النافية لنقيضه : (فلا وربك) أي المحسن

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . موافق للمطبوع، ص/٢٧٠١

إليك) لا يؤمنون) أي يوجدون هذا الوصف بأداة التراخي فقال : (ثم لا يجدوا في نفسهم حرجاً) أي نوعاً من الضيق) مما قضيت) أي عليهم به ، وأكد إسلامهم لأنفسهم بصيغة التفعيل فقال : (ويسلموا) أي يوقعوا لتسليم البليغ لكل ما هو لهم من أنفسهم وغيرها لله ورسوله (صلى الله عليه وسلم) خالصاً عن شوب كره ؛ ثم زاده تأكيداً بقوله : (تسليماً (وفي الصحيح أن الآية نزلت في الزبير وخصم له من الأنصار ، فلا التفات إلى من قال : إنه حاطب رضي الله عنه .

ولما كان التقدير : فقد كتبنا عليهم طاعتك والتسيم لك في هذه الحنيفية السمحة التي دعوتهم إليها وحملتهم عليها ، عطف عليه قوله : (ولو أنا كتبنا عليهم) أي هذا المخاصم للزبير رضي الله عنه وأشباه هذا المخاصم ممن ضعف إيمانه كتابة مفروضة) إن اقتلوا أنفسكم) أي كما كان ي التوراة ي كفارة بعض الذنوب مباشرة حقيقة ، وكما فعل المهاجرون بتعريض أنفسهم لذلك ثلاث عشرة سنة ، هم فيها عند أعداء الله مضغة لحم بين يدي نسور يتخاطفونها) أو اخرجوا (كما فعل المهاجرون – رضي الله عنهم – الذين الزبير من رؤوسهم) من دياركم) أي التي هي لأشباحكم كأشباحكم لأرواحكم – توبة لربكم) ما فعلوه) أي لقصور إيمانهم وضعف إيقانهم ، ولو كتبناه عليهم ولم يرضوا به كفروا ، فاستحقوا القتل." (1)

" صفحة رقم ٧١٧

الأوجاع والأوجال ، أو يقال : فقد بان أن كلاً من ظالمي الإنس والجن كان ولياً لكل ، وكما جعلنا بعضهم أولياء بعض في الدنيا نفعل إذا حشرناهم في النار فنجعل بعضهم أولياء – أي أتباع بعض ، ليستمتع بعضهم ببعض وينصر بعضهم بعضاً إن قدروا ، وهيهات منهم ذلك هيهات شغلهم البكاء والعويل والندم والنحيب .

ولما انقضت هذه المحاورة وما أنتجته من بغيض الموالاة والمجاورة وكان حاصلها أنها موالاة من ضرت موالاته ، أتبعها سبحانه بمحاورة أخرى حاصلها معاداة من ضرت معاداته ، فقال مبدلاً من الأولى إتماماً للتقريع والتوبيخ والتشنيع : (يا معشر الجن (قدمهم لأن السياق لبيان غلبتهم) والإنس (وبكتهم بقوله محذراً للسامعين الآن ومستعطفاً لهم إلى التوبة : (ألم يأتكم رسل (ولما صار القبيلان بتوجيه الخطاب نحوهم دفعة كالشيء الواحد قال : (منكم (وإن كان الرسل من الإنس خاصة .

ولما كان النظر في هذه السورة إلى العلم غالباً لإثبات تمام القدرة الذي هو من لوازمه بدليل ٧٧ ( ) يعلم سركم وجهركم ( ) ٧

---

(١) نظم الدرر . (– ت: عبدالرزاق غالب)، ٢٧٥/٢

[الأنعام : ٣] ،

٧٧ ( ) أليس الله بأعلم بالشاكرين ( ) ٧

[الأنعام : ٥٣]

٧٧ ( ) وعنده مفاتح الغيب ( ) ٧

[الأنعام : ٥٩] وغيرها ، ولذلك أكثر فيها من ذكر التفصيل الذي لا يكون إلاّ للعالم ، كان القص – الذي هو تتبع الأثر – أنسب لذلك فقال) يقصون (بالتلاوة والبيان لمواضع الدلائل) عليكم آياتي) أي يتبعون بالعلامات التي يحق لها بما لها من الجلال والعظمة أن تنسب إلى مواضع شبهكم ، فيحلونها حلاً مقطوعاً به) وينذرونكم) أي يخوفونكم) لقاء يومكم هذا) أي بما قالوا لكم أنه يطلبكم طلباً حثيثاً وأنتم صائرون إليه في سفن الأيام ومراكب الآثام وأنتم لا تشعرون سيراً سريعاً) قالوا (معذرين من أنفسهم بالذل والخضوع) شهدنا (بما فعلت بنا أنت سبحانك من المحاسن وما فعلنا نحن من القبائح) على أنفسنا) أي بإتيان الرسل إلينا ونصيحتهم لنا بدليل الآية الأخرى

٧٧ ( ) قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين ( ) ٧

[الزمر : ٧١] وبين أن ضلالهم كان بأردإ الوجوه وأسخفها الدنيا ، بحيث إنهم اغتروا بها مع دناءتها لحصورها عن الآخرة مع شرفها لغيابها فقال : (وغرتهم) أي شهدوا هذه الشهادة والحال أنهم قد غرتهم) الحياة الدنيا) أي الحاضرة عندهم إذ ذاك الدنية في نفسها لفنائها ، عن اتباع الرسل دأب الجاهل في الرضى بالدون والدابة في القناعة بالحاضر ، فشهادتهم ضارة بهم ، ولكن لم يستطيعوا كتمانها ، بل) وشهدوا) أي في هذا الموطن من مواطن القيامة الطوال) على أنفسهم (أيضاً بما هو أصرح في الضرر عليهم من هذا ، وهو) أنهم كانوا (جبلة وطبعاً) كافرين) أي غريقين في الكفر ، ويجوز أن يكون الغرور بأنهم ظنوا أحوال الآخرة تمشي على ما كانوا يألفونه في الدنيا من أن **الاعتراف بالذنب** والتكلم بالصدق قد ينفع المذنب ويكف من سورة المغضب." (١)

" صفحة رقم ١٨

الشيطان) أي الذي تكبر عن السجود حسداً لك يا ىدم ونفاسه عليك فاحترق بغضبي فطرد وابعد عن رحمتي) لكما) أي لك ولزوجك ولكل من تفرغ منكما ونسب إليكما) عدو مبين (ظاهر العداوة يأتيكم من كل موضع يمكنه الإتيان منه مجاهرة ومساترة ومماكرة فهو مع ظهور عداوته دقيق المكر بما أقرته عليه

---

(١) نظم الدرر . (– ت: عبدالرزاق غالب)، ٧١٧/٢

من غقامة الأسباب فإني أعطيته قوة على الكيد واعطيتهم قوة على الكيد قوة الخلاص وقلت لكم تغالبوا فإن غلبتموه فأنتم من حزبي وغن غلبكم فأنتم من حزبه مع ما له إليكم كم العداوة فالآتيه منبهة على أن من غوى فإنما هو تابع لأعدى أعدائه تارك لأولى أوليائه .

ولما كان هذا تشوف السامع إلى جوابهما فأجيب بقوله : (قالا) أي آدم وحواء – عليهما السلام وأزكى التحية والإكرام – قول الخزاص بإسراعهما في التوبة) ربنا (اي أيها المحسن إلينا والمنعم علينا) ظلمنا أنفسنا) أي ضررناها بأن أخرجناها م ن نور الطاعة إلى ظلام المعصية فإن لم ترجع بنا وتتب علينا لنستمر عاصيين) اوإن لم تغفر لنا) أي تمح ما عملناه عيناً واثراً) وترحمن (فتعلى درجاتنا) لنكونن من الخاسرين (فأعربت الآية عن انهما فزعا إلى الا نتصاب **بالاعتراف وسيما** ذنبهما وغنة كان إنما هو خلاف الولى لأنه بطريق النسيان كما في طه ظلماً كما هي عادة الأكابر في استعظام الصغيرة منهم ولم يجادلا كما فعل إبليس وفي ذلك إشارة إلى أن المبادرة إلى الإقرار **بالذنب** من فعال الأشراف لكونه من معالي الأخلاق وأنه لا مثيل له في اقتضاء العفو وإزالة الكدر وأن الجدال من فعال الأرذال ومن مساوي الأخلاق وموجبات الغضب المقتضى للطرد ولما تشوفت النفس إلى وجوب العلي الكبير سبحانه أجيبت بقوله) قال اهبطوا) أي إلى دار المجاهده والمقارعة والمناكدة حال كونكو) بعضكم لبعض عدو) أي أنتما ومن ولدتماه أعداء إبليس ومن ولد ، وبعض أولادكم أعداء لبعض ولا خلاص إلا باتباع ما منحتكم من هدى العقل وما أنزلت إليكم من تاييده بالنقل وفي ذلك تهديد صادع لمن له أدنى مسكة بالأشارة إلى قبح مغبة المخالفة ولو مع التوبة وحث على دوام المراقبة خوفاً من سوء المعاقبة) ولكم في الأرض) أي جنسها) مستقر) أي موضع استقرار كالسهول وما شابهها) ومتاع إلى حين) أي انقضاء آجالكم ثم انقضاء اجل الدنيا الأعراف : (٢٥ – ٢٧) قال فيها تحيون. .. . . .

) قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ يَابَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي." [١]

" صفحة رقم ٣٨٣

ندموا هلى التخلف عنك فحلفوا : لا يطلقهم إلا أنت ، فقال : وأنا أطلقهم حتى أومر بذلك ، فأنزل الله سبحانه وتعالى هذه الآيات فقالوا : يارسول الله هذه أموالنا التي خلفتنا عنك فتصدق بها فقال : ما أمرت بذلك ، فلما أنزل الله هذه الآية أخذ الثلث فتصدق به .

ولما ساق توبتهم سبحانه في حيز) عسى (، وكان الأصل فيها الترجمة في المحبوب والإشفلق في المكروه

---

(١) نظم الدرر . (– ت: عبدالرزاق غالب)، ٣/١٨

، وأمر سبحانه بالأخذ من أموالهم لذلك ، وكان إخراج المال شديداً على النفوس لا سيما في ذلك الزمان ، كان ربما استوقف الشيطان من لم يرسخ قدمه في الإيمان عن التوبة وما يترتب عليها من الصدقة لعدم الجزم بأنها تقبل ، فأتبع ذلك سبحانه بقوله : (ألم تعلموا) أي المعترفون بالذنوب حتى تسمح أنفسهم بالصدقة أو غيرهم حتى يرغبوا في التوبة والصدقة) أن الله) أي الذي له الكمال كله) هو) أي وحده) ويأخذ) أي يقبل) التوبة ، تجاوزاً) عن عبادة (اي التائبين المخلصين) ويأخذ) أي يقبل قبول الآخذ لنفسه) الصدقات) أي ممن يتقرب بها إليه بنية خالصة) وأن الله) أي المحيط بصفتي الجلال والإكرام) هو) أي وحده) التواب الرحيم (اي لم يزل التجاوز والإكرام من شأنه وصفته ، وفي ذلك إنكار على غيرهم من المختلفين في كونهم لم يفعلوا مثل فعلهم من الندم الحامل على أن يعذبوا أنفسهم بالإيثاق في السواري ويقربوا بعض أموالهم كما فعل هؤلاء أو نحو ذلك مما يدل على **الاعتراف والندم** .

التوبة : (١٠٥ – ١٠٨) وقل اعملوا فسيرى. . . .

) وَقُلِ اعْمَلُواْ فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ وَالَّذِينَ اتَّخَذُواْ مَسْجِداً ضِرَاراً وَكُفْراً وَتَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَاداً لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفَنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ لاَ تَقُمْ فِيهِ أَبَداً لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ (( )

ولما أمره من تطهيرهم بما يعيدهم إلى ما كانوا عليه قبل **الذنب** ، عطفعلى قوله) خذ (قوله تحذيراً لهم من مثل ما وقعوا فيه : (وقل اعلموا (اي بعد طهارتكم) فسيرى الله) أي الذي له الإحاطة الكاملة) عملكم) أي بما له من إحاطة العلم." [١]

" صفحة رقم ٩٢

واوياً : تاف بصره يتوف : تاه – كأنه لسلب الشدة أو المعنى أنه وقع في توقة ، أي شدة ، وما فيه توفة – بالضم – ولا تافة : عيب أو مزيد أو حاجة وأبطأ وكل ذلك يدل على شدته ، وطلب علي توفة بالفتح ، : عثرة وذنباً – من ذلك لأن العثرة **والذنب** لا يصيبان شيئاً إلا عن شدتهما وضعفه ؛ ومن مقلوبه مهموزاً : الأفت – بالفتح : الناقة التي عندها من الصبر والبقاء ما ليس عند غيرها ، والسريع الذي يغلب الإبل على السير ، والكريم من الإبل – ويكسر – والداهية والعجب ، وكل ذلك واضح في القوة ، والإفت –

---

(١) نظم الدرر . (– ت: عبدالرزاق غالب)، ٣/٣٨٣

بالكسر : الأول - لأنه أصل كل معدود ، وأفته عن كذا : صرفه .

ولما أخبرهم عليه السلام أن علمه فوق علمهم ، أتبعه اشتئنافاً ما يدل عليه فقال : (يابني اذهبوا (ثم سبب عن هذا الذهاب وعقب به قوله : (فتحسسوا) أي بجميع جهدكم) من يوسف وأخيه) أي اطلبوا من أخبارهم بحواسكم لعلكم تظفرون بهما ، وهذا يؤكد ما تقدم من احتمال ظنه أن فاعل ذلك يوسف - عليهم الصلاة والسلام .

ولما لم يكن عندهم من العلم ما عنده ، قال : (ولا تيأسوا) أي تقنطوا) من روح الله) أي الذي له الكمال كله ؛ والروح - قال الرماني - يقع بريح تلذ ، وكأن هذا أصله فالمراد : من رحمته وفرجه وتيسره ولطفه في جمع الشتات وتيسير المراد ؛ ثم علل هذا النهي بقوله : (إنه لا ييأس) أي لا يقنط) من روح الله) أي الذي له جميع صفات الجلال والإكرام) إلا القوم) أي الذين لهم قوة المحاولة) الكافرون) أي العريقون في الكفر ، فأجابوه إلى ما أراد ، فتوجهوا إلى مصر لذلك ولقصد الميرة لما كان اشتد بهم من القحط ، وقصدوا العزيز ؛ وقوله : (فلما دخلوا عليه (بالفاء يدل على أنهم أسرعوا الكرة في هذه المرة) قالوا (منادين بالأداة التي تنبه على أن ما بعدها له وقع عظيم) يا أيها العزيز (.

ولما تلطفوا تعظيمه ، ترققوا بقولهم : (مسنا) أي أيتها العصابة التي تراها) وأهلنا) أي الذين تركناهم في بلادنا) الضر) أي لابسنا ملابسة نحسها) وجئنا ببضاعة مزجاة) أي تافهة غير مرغوب فيها بوجه ، ثم سببوا عن هذا **الاعتراف -** لأنه أقرب إلى رحمة أهل الكرم - قولهم : (فأوف لنا) أي شفقة علينا بسبب ضعفنا) الكيل وتصدق) أي تفضيل) علينا (زيادة على الوفاء كما عودتنا بفضل ترجو ثوابه .

ولما رأوا أفعاله تدل على تمسكه بدين الله ، عللوا ذلك بقولهم : (إن الله) أي الذي له الكمال كله) يجزي المتصدقين) أي مطلقاً وإن أظهرت - بما أفاد الإظهار - وإن كانت على غنى قوي ، فكيف إذا كانت على أهل الحاجة والضعف .." [١]

" صفحة رقم ٩٧

حياة يوسف ؛ قال الرماني : و الضلال : الذهاب عن جهة الصواب .

فصحح الله قوله وحقق وجدانه ، وعجلوا إليه بشيراً فأسرع بعد الفصول ، ولذلك عبر بالفاء في) فلما (وزيدت) أن (لتأكيد مجيئه على تلك الحال وزيادتها قياس مطرد) جاء البشير (وهو يهوذا بذلك ، معه القميص) ألقاه) أي القميص حين وصل إلى يعقوب عليه الصلاة والسلام من غير فاصل ما بين أول

---

(١) نظم الدرر . (- ت: عبدالرزاق غالب)، ٩٢/٤

المجيء وبينه كما أفادته زيادة (أن) لتأكيد ما تفيده (لما) من وقوع الفصل الثاني وهو هنا الإلقاء عقب الأول وترتبه عليه وهو هنا المجيء) على وجهه) أي يعقوب عليه الصلاة والسلام) فارتد (من حينه) بصيراً (والارتداد : انقلاب الشيء إلى حال كان عليها ، فالتفت الخاطر إلى حاله مع فنده ، فأخبر تعالى عن ذلك بقوله مستأنفاً : (قال) أي يعقوب عليه الصلاة والسلام) ألم أقل لكم (: إني أجد ريحه ؛ ثم علل هذا التقرير بقوله مؤكداً لأن قولهم قول من ينكر : (إني أعلم من الله) أي المختص بصفات الكمال) ما لا تعلمون (لما خصني به تعالى من أنواع المواهب ، وهو عام لأخبار يوسف عليه الصلاة والسلام وغيرها ، وهو من الحديث بنعمة الله .

ولما كان ذلك تشوفت النفس إلى علم ما يقع بينه وبين أولاده في ذلك ، فدفع عنها هذا العناء بقوله : (قالوا يأابانا (منادين بالأداة التي تدل على الاهتمام العظيم بما بعدها لما له من عظيم الوقع : (استغفر) أي اطلب من الله أن يغفر) لنا ذنوبنا (ورد كل ضمير من هذه الضمائر إلى صاحبه في غاية الوضوح ، فلذلك لم يصرح بصاحبه .

ولما سألوه الاستغفار لذنوبهم ، عللوه **بالاعتراف بالذنب** ، لأن **الاعتراف شرط** التوبة – كما قال (صلى الله عليه وسلم) : (إن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب تاب الله عليه) فقالوا مؤكدين تحقيقاً للإخلاص في التوبة : (إنا كنا خاطئين) أي متعمدين للإثم بما ارتكبنا في أمر يوسف علية الصلاة والسلام ؛ ثم حكى جوابه بقوله مستأنفاً : (قال) أي أبوهم عليه السلام مؤكداً لكلامه : (سوف أستغفر) أي أطلب أن يغفر) لكم ربي) أي الذي لم يزل يحسن إليّ ويربيني أحسن تربية ، فهو الجدير بأن يغفر لبني حتى لا يفرق بيني وبينهم في دار البقاء ؛ والربوبية : ملك هو أتم الملك على الإطلاق ، وهو ملك الله تعالى لإنشاء الأنفس باختراعها وتصريفها أتم التصريف من الإيجاد والإعدام والتقليب من حال إلى حال في جميع الأمور من غير تعب ؛ ثم علل ذلك بقوله : (إنه هو) أي وحده) الغفور الرحيم (كل ذلك تسكيناً لقلوبهم وتصحيحاً لرجائهم ليقوى أملهم ، فيكون تعالى عند ظنهم بتحقيق الإجابة وتنجيزاً لطلبه ؛ ولعله عبرب (سوف) لتقديم هاتين الجملتين على المسألة لما ذكرته من الأغراض ، وقيل : لأنه أخر الدعاء إلى صلاة." [(1)]

" صفحة رقم ٤٩٠

والتباغض والنجاة من النار باجتناب السيئات ولذلك قالوا : (وذلك) أي الأمر العظيم جداً) هو) أي

---

(١) نظم الدرر . (– ت: عبدالرزاق غالب)، ٤/٩٧

وحده) الفوز العظيم (فالآية من الاحتباك : ذكر إدخال الجنات أولاً دليلاً على حذف النجاة من النار ثانياً ، ووقاية السيئات ثانياً دليلاً على التوفيق للصالحات أولاً ، وسر ذلك التشويق إلى المحبوب – وهو الجنان – بعمل المحبوب – وهو الصالح – والتنفير من النيران باجتناب الممقوت من الأعمال ، وهي السيء فذكر المسبب أولاً وحذف السبب لأنه لا سبب في الحقيقة إلا الرحمة ، وذكر السبب ثانياً في إدخال النار وحذف المسبب .

ولما أتم الذين آمنوا ، فتشوفت النفس إلى معرفة ما لأضدادهم ، قال مستأنفاً مؤكداً لإنكارهم هذه المناداة بانكار يومها : (إن الذين كفروا) أي أوقعوا الكفر ولو لحظة) ينادون) أي يوم القيامة بنداء يناديهم به من أراد الله من جنوده أو في الدار أرفع نعماً - أنهم آثر عند الله من فقراء المؤمنين ، أكد قوله : (لمقت الله) أي الملك الأعظم إياكم بخذلانكم) أكبر من مقتكم (وقوله : (أنفسكم (مثل قوله تعالى : (انظر كيف كذبوا على أنفسهم (جاز على سبيل الإشارة إلى تنزه الحضرة المقدسة عما لزم فعلهم من المقت ، فإن من دعا إلى أحد فأعرض عنه إلى غيره كان إعراضه مقتاً للمعرض عنه ، وهذا المقت منهم الموجب لمقت الله لهم موصل لهم إلى عذاب يمقتون به أنفسهم ، والمقت أشد البغض ؛ ثم ذكر ظرف مقتهم العائد وباله عليهم بقوله : (إذا) أي حين ، وأشار إلى أن الإيمان لظهور دلائله ينبغي أن يقبل من أي داع كان ، فبنى الفعل لما لم يسم فاعله فقال : (تُدعون إلى الإيمان) أي بالله وما جاء من عنده) فتكفرون) أي فتوقعون الكفر الذي هو تغطية الآيات موضع إظهارها والإذعان بها ، وهذا أعظم العقاب عند أولي الألباب ، لأن من علم أن مولاه عليه غضبان علم أنه لا ينفعه بكاء ولا يغني عنه شفاعة ولا حيلة في خلاصه بوجه .

ولما كان من أعظم ذنوبهم إنكار البعث ، وكانوا قد استقروا العوائد ، وسبروا ما جرت به الأقدار في الدهور والمدائد ، من أن كل ثان لا بد له من ثالث ، وكان الإحياء لا يطلق عرفاً إلا من كان موت ، حكى سبحانه جوابهم بقوله الذي محطه الإقرار بالبعث والترفق **بالاعتراف بالذنب** حيث لا ينفع لفوات شرطه وهو الغيب : (قالوا ربنا) أي أيها المحسن إلينا بما تقدم في دار الدنيا) أمتَّنا اثنتين (قيل : واحدة عند انقضاء الآجل في الحياة الدنيا وأخرى بالصعق بعد البعث أو الإرقاد بعد سؤال القبر ، والصحيح أن تفسيرها آية البقرة

٧٧ ( ) كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم." (١)

---

(١) نظم الدرر . (– ت: عبدالرزاق غالب)، ٤٩٠/٦

" صفحة رقم ٤٩٧

وحزناً ، ساكتين مكروبين ، قد انسدت مجاري أنفاسهم وأخذ بجميع إحساسهم .

ولما كان من المعلوم أن ذلك الكرب إنما هو للخوف من ديان ذلك اليوم ، وكان من المعهود أن الصداقات تنفع في مثل ذلك اليوم والشفاعات ، قال مستانفاً : (ما للظالمين) أي العريقين في الظلم منهم) من حميم) أي قريب صادق في مودتهم مهتم بأمورهم مزيل لكروبهم ، قال ابن برجان : والحميم : الماء الحار الناهي في الحرارة ، سمي القريب به لأنه يحمي لقريبه غضباً ، والغضب حرارة تعرض في القلب تخرج إلى الوجه فيحمر وتنتفخ الأوداج فيستشيط غيظاً) ولا شفيع يطاع) أي ليس شفيع أصلاً لأن الشفيع يعلم أنه لو شفع ما أطيع فهو لا ينفع ، وقد يشفع في بعضهم بعض المقربين لعلامة فيهم يحصل بها اشتباه يظن بهم أنهم ممن يستحق الشفاعة فينبه على أنهم ليسوا بذلك ، فيبرأ منهم .

ولما كانت الشفاعة إنما تقع وتنفع بشرط براءة المشفوع له من **الذنب** إما **بالاعتراف بما** نسب إليه والإقلاع عنه ، وإما بالاعتذار عنه ، وكان ذلك إنما يجري عند المخلوقين على الظاهر ، ولذلك كانوا ربما وقع لهم الغلط فيمن لو عملوا باطنه لما قبلوا الشفاعة فيه ، علل تعالى ما تقدم بعلمه أن المشفوع له ليس بأهل لقبول الشفاعة فيه لإحاطة علمه فقال : (يعلم خائنة (ولما كان السياق هنا للابلاغ في أن علمه تعالى محيط بكل كلي وجزئي ، فكان من المعلوم أن الحال يقتضي جمع الكثرة ، وأنه ما عدل عنه إلى جميع القلة إلا للإشارة إلى أن علمه تعالى بالكثير كعلمه بالقليل الكل ، عليه هين ، فالكثير عنده في ذلك قليل فلذا قال : (الأعين) أي خيانتها التي هي أخفى ما يقع من أفعال الظاهر ، جعل الخيانة مبالغة في الوصف وهي الإشارة بالعين ، قال أبو حيان : من كسر وغمز ونظر يفهم منه ما يراد - انتهى .

وذلك يفعل بفعل ما يخالف الظاهر ، ولما ذكر أخفى أفعال الظاهر ، أتبعه أخفى ما في الباطن فقال : (وما تخفي الصدور) أي عن المشفوع عنده وغير ذلك .

ولما كان العفو عن الظالم الذي لا يرجع عن ظلمه نقصاً ، لكونه لا حكمة فيه ، عبر بالاسم الأعظم في جملة حالية فقال : (والله) أي والحال أن المتصف بجميع صفات الكمال) يقضي بالحق) أي الثابت الذي لا يصح أصلاً نفيه ، فلو قضى ذلك الكمال) والذين يدعون) أي الظالمون - على قراءة الجماعة ، وأيها الظالمون - على قراءة نافع وابن عامر بخلاف عن ابن ذكوان بالخطاب للمواجهة بالأزراء .

ولما كانت المراتب جون عظمته سبحانه لا تنحصر ولا يحتوي عليها كلها شيء ، أثبت الجار فقال :." (١)

" صفحة رقم ٧٣

من السمع والعقل عدم لكونه لميدفع عنهم هذا البلاء بالقبول من الرسل لما ذكروهم به من نصائح ربهم وشهادة الشواهد من الآيات البينات) ما كنا) أي كونا دائماً) في أصحاب السعير) أي في عداد من أعدت له النار التي هي في غاية الاتقاد والحر والتلهب والتوقد حتى كأن بها جنوناً ، وحكم بخلودهم في صحبتها ، وأعظم ما في هذا من العذاب بكونهم ألجئوا إلى أن يباشروا توبيخ أنفسهم ومقتها بأنفسهم أنه لا يقبل منها خروجاً عن العادة في الدنيا من أن الإنسان إذا أظهر الخضوع باعترافه ولومه نفسه وإنصافهرحم وقبل ، وفي الآية أعظم فضيلة للعقل ، روى ابن المحبر في كتاب العقل والحارث عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال : (لكل شيء دعامة ودعامه المؤمن عقله فبقدر عقله تكون عبادته ، أما مسعتم قول الفجار لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير) ولما كان هذا الإقرار زائداً في ضررهم ، وإنما كان يكون نافعاً لهم لو قالوه في دار العمل وندموا عليه وأقلعوا عنه ، سبب عنه قوله ضاماً - إلى ما تقدم من تعذيب أرواحهم بمقت الملائكة عليه وأقلعوا عنه ، سبب عنه قوله ضاماً - إلى ما تقدم من تعذيب أرواحهم بمقت الملائكة لهم ثم مقتهم لأنفسهم - مقت الله لهم : (فاعترفوا) أي بالغوا جامعين إلى مقت الله وملائكته لهم مقتهم لأنفسهم في **الاعتراف وهو** الإقرار عن معرفة .

ولما كان الذي أوردهم المهالك هو الكفر الذي تفرعت عنه جميع المعاصي ، أفرد فقال : (بذنبهم) أي في دار الجزاء كما كانوا يبالغون في التكذيب في دار العمل فلم يكن ينفعهم لفوات محله ، أو أنه لم يجمع **الذنب** إشارة إلى أنهم كانوا كلهم في المبالغة في التكذيب على حد واحد ، كما قال تعالى

٧٧ ( ) كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون أتواصوا به بل هم قوم طاغون (٧ (

[الذاريات : ٥٣] أو أن الإفراد أشد في التحذير من كثر الذنوب وقليلها حقيرها وجليلها .

ولما كانوا قد أبلغوا في كلتي الدارين في إبعاد أنفسهم عن مواطن الرحمة وتسفيلها إلى حال النقمة أنتج ذلك وسبب قوله : (فسحقاً) أي بعداً في جهة السفل وهو دعاء عليهم مستجاب) لاصحاب (وأظهر

---

(١) نظم الدرر . (- ت: عبدالرزاق غالب)، ٤٩٧/٦

تنبيهاً على عظيم توقدها وتغيظها وتهددها فقال : (السعير) أي الذي قضت عليهم أعمالهم بملازمتها.. " (١)

"﴿ قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين ﴾ .

فحينئذ من الله عليهما بالتوبة وقبولها، فاعترفا **بالذنب**، وسألا من الله مغفرته فقالا ﴿ ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين ﴾ أي: قد فعلنا **الذنب**، الذي نهيتنا عنه، وأضررنا أنفسنا باقتراف **الذنب**، وقد فعلنا سبب الخسار إن لم تغفر لنا، بمحو أثر **الذنب** وعقوبته، وترحمنا بقبول التوبة والمعافاة من أمثال هذه الخطايا.

فغفر الله لهما ذلك ﴿ وعصى آدم ربه فغوى * ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى ﴾.

هذا وإبليس مستمر على طغيانه غير مقلع عن عصيانه فمن أشبه آدم **بالاعتراف وسؤال** المغفرة والندم والإقلاع – إذا صدرت منه الذنوب – اجتباه ربه وهداه.

ومن أشبه إبليس – إذا صدر منه **الذنب** لا يزال يزداد من المعاصي – فإنه لا يزداد من الله إلا بعدا.." (٢)

"فلما انتهى الأمر، وبلغ أشده، رق لهم يوسف رقة شديدة، وعرفهم بنفسه، وعاتبهم. ﴿ ٨٩ – ٩٢ ﴾ ﴿ قال هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون * قالوا أئنك لأنت يوسف قال أنا يوسف وهذا أخي قد من الله علينا إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين * قالوا تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين * قال لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين ﴾

﴿ قال هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه ﴾ أما يوسف فظاهر فعلهم فيه، وأما أخوه، فلعله والله أعلم قولهم: ﴿ إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل ﴾ أو أن الحادث الذي فرق بينه وبين أبيه، هم السبب فيه، والأصل الموجب له. ﴿ إذ أنتم جاهلون ﴾ وهذا نوع اعتذار لهم بجهلهم، أو توبيخ لهم إذ فعلوا فعل الجاهلين، مع أنه لا ينبغي ولا يليق منهم.

فعرفوا أن الذي خاطبهم هو يوسف، فقالوا: ﴿ أئنك لأنت يوسف قال أنا يوسف وهذا أخي قد من الله عليءنا ﴾ بالإيمان والتقوى والتمكين في الدنيا، وذلك بسبب الصبر والتقوى، ﴿ إنه من يتق ويصبر ﴾ أي: يتقي فعل ما حرم الله، ويصبر على الآلام والمصائب، وعلى الأوامر بامتثالها ﴿ فإن الله لا يضيع أجر المحسنين ﴾ فإن هذا من الإحسان، والله لا يضيع أجر من أحسن عملا.

---

(١) نظم الدرر . (– ت: عبدالرزاق غالب)، ٨/٧٣

(٢) تفسير السعدي، ص/٢٨٥

﴿ قالوا تالله لقد آثرك الله علينا ﴾ أي: فضلك علينا بمكارم الأخلاق ومحاسن الشيم، وأسأنا إليك غاية الإساءة، وحرصنا على إيصال الأذى إليك، والتبعيد لك عن أبيك، فآثرك الله تعالى ومكنك مما تريد ﴿ وإن كنا لخاطئين ﴾ وهذا غاية **الاعتراف منهم** بالجرم الحاصل منهم على يوسف.

ف ﴿ قال ﴾ لهم يوسف عليه السلام، كرما وجودا: [ص ٤٠٥] ﴿ لا تثريب عليكم اليوم ﴾ أي: لا أثرب عليكم ولا ألومكم ﴿ يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين ﴾ فسمح لهم سماحا تاما، من غير تعيير لهم على ذكر **الذنب** السابق، ودعا لهم بالمغفرة والرحمة، وهذا نهاية الإحسان، الذي لا يتأتى إلا من خواص الخلق وخيار المصطفين.." (١)

"﴿وَءَاخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلا صَالِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ : نزلت في عشرة رهط تخلفوا عن غزوة تبوك فلما دنا الرسول صلى الله عليه وسلّم من المدينة أوثق سبعة منهم. وقيل : كانوا ثمانية منهم : كردم ، ومرداس ، وأبو قيس ، وأبو لبابة. وقيل : سبعة. وقيل : ستة أوثق ثلاثة منهم أنفسهم بسواري المسجد ، فيهم أبو لبابة. وقيل : كانوا خمسة. وقيل : ثلاثة أبو لبابة بن عبد المنذر ، وأوس بن ثعلبة ، ووديعة بن خذام الأنصاري. وقيل : نزلت في أبي لبابة وحده. ويبعد ذلك من لفظ وآخرون ، لأنه جمع ، فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلّم المسجد حين قدم فصلى فيه ركعتين ، وكانت عادته كلما قدم من سفر ، فرآهم موثقين فسأل عنهم : فذكروا أنهم أقسموا لا يحلون أنفسهم حتى يكون رسول الله صلى الله عليه وسلّم هو الذي يحلهم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلّم : "وأنا أقسم أن لا أحلهم حتى أومر فيهم ، رغبوا عني ، وتخلفوا عن الغزو مع المسلمين" فنزلت ، فأطلقهم وعذرهم. وقال مجاهد : نزلت في أبي لبابة في شأنه مع بني قريظة حين استشاروه في النزول على حكم الله ورسوله ، فأشار هو لهم إلى حلقه يريد أنّ الرسول صلى الله عليه وسلّم يذبحهم إن نزلوا ، فلما افتضح تاب وندم ، وربط نفسه في سارية في المسجد ، وأقسم أن لا يطعم ولا يشرب حتى يعفو الله عنه أو يموت ، فمكث كذلك حتى عفا الله عنه. **والاعتراف** : الإقرار **بالذنب** عملاً صالحاً توبة وندماً ، وآخر سيئاً.

٩٤

أي تخلفاً عن هذه الغزاة قاله : الطبري ، أو خروجاً إلى الجهاد قبل. وتخلفاً عن هذه قاله : الحسن وغيره. أو توبة وإثماً قاله : الكلبي. وعطف أحدهما على الآخر دليل على أنّ كل واحد منهما مخلوط ومخلوط به ، كقولك : خلطت الماء واللبن ، وهو بخلاف خلطت الماء باللبن ، فليس فيه إلا أنّ الماء خلط باللبن

---

(١) تفسير السعدي، ص/٤٠٤

، قال معناه الزمخشري : ومتى خلطت شيئاً بشيء صدق على كل واحد منهما أنه مخلوط ومخلوط به ، من حيث مدلولية الخلط ، لأنها أمر نسبي. قال الزمخشري : ويجوز أن يكون من قولهم : بعت الشاء شاة ودرهماً ، بمعنى شاة بدرهم.

والاعتراف بالذنب دليل على التوبة ، فلذلك قيل : عسى الله أن يتوب عليهم. قال ابن عباس : عسى من الله واجب انتهى. وجاء بلفظ عسى ليكون المؤمن على وجل ، إذ لفظة عسى طمع وإشفاق ، فأبرزت التوبة في صورته ، ثم ختم ذلك بما دل على قبول التوبة وذلك ، صفة الغفران والرحمة. وهذه الآية وإن نزلت في ناس. مخصوصين فهي عامة في الأمة إلى يوم القيامة. وقال أبو عثمان : ما في القرآن آية أرجى عندي لهذه الأمة من قوله : وآخرون عترافوا بذنوبهم. وفي حديث الإسراء والمعراج من تخريج البيهقي : أنّ الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر شيئا وت ابوا رآهم الرسول صلى الله عليه وسلّم حول إبراهيم ، وفي ألوانهم شيء ، وأنهم خلطت ألوانهم بعد اغتسالهم في أنهر ثلاثة ، وجلسوا إلى أصحابهم البيض الوجوه.

جزء : ٥ رقم الصفحة : ٨٦

". (١)

"سورة الانفطار

مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٤٣٤

بعثرت المتاع : قلبته ظهراً لبطن ، وبعثرت الحوض وبحثرته : هدمته وجعلت أعلاه أسفله.

﴿السَّمَآءُ انفَطَرَتْ * وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ * وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ * وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ * عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ * يَا أَيُّهَا الانسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ * الَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ * فِى أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ * كَلا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ * وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ * إِنَّ الابْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ * وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ * يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ * وَمَا هُمَ﴾ هذه السورة مكية. وانفطارها تقدم الكلام فيه ، وانتثار الكواكب : سقوطها من موا ضعها كالنظام. وقرأ الجمهور : ﴿فُجِّرَتْ﴾ بتشديد الجيم ؛ ومجاهد والربيع بن خيثم والزعفراني والثوري : بخفها ، وتفجيرها من امتلائها ، فتفجر من أعلاها وتفيض على ما يليها ، أو من أسفلها فيذهب الله ماءها حيث أراد. وعن مجاهد : فجرت مبنياً للفاعل

---

(١) تفسير البحر المحيط . (دار الفكر)، ٥/٧٧

مخففاً بمعنى : بغت لزوال البرزخ نظراً إلى قوله تعالى : ﴿لا يَبْغِيَانِ﴾ ، لأن البغي والفجر متقابلان. ﴿بُعْثِرَتْ﴾ ، قال ابن عباس : بحثت. وقال السدي : أثيرت لبعث الأموات. وقال الفراء : أخرج ما في بطنها من الذهب والفضة. وقال الزمخشري : بعثر وبحثر بمعنى واحد ، وهما مركبان من البعث والبحث مع راء مضمومة إليهما ، والمعنى : بحثت وأخرج موتاها. وقيل : لبراءة المبعثرة ، لأنها بعثرت أسرار المنافقين. انتهى. فظاهر قوله أنهما مركبان أن مادتهما ما ذكر ، وأن الراء ضمت إلى هذه المادة ، والأمر ليس كما يقتضيه كلامه ، لأن الراء ليست من حروف الزيادة ، بل هما مادتان مختلفتان وإن اتفقا من حيث المعنى. وأما أن إحداهما مركبة من كذا فلا ، ونظيره قولهم : دمث ودمثر وسب وسبطر. ﴿مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ : تقدم الكلام على شبهه في سورة القيامة.

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٤٣٦

وقرأ الجمهور : ﴿مَا غَرَّكَ﴾ ، فما استفهامية. وقرأ ابن جبير والأعمش : ما أغرك بهمز ، فاحتمل أن يكون تعجباً ، واحتمل أن تكون ما استفهامية ، وأغرك بمعنى أدخلك في الغر. وقال الزمخشري : من قولك غر الرجل فهو غار ، إذا غفل من قولك بينهم العدو وهم غارون ، وأغرة غيره : جعله غاراً. انتهى. وروي أنه عليه الصلاة والسلام قرأ : ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ ، فقال : جهله وقاله عمر رضي الله تعالى عنه وقرأ أنه كان ظلوماً جهولاً ، وهذا يترتب في الكافر والعاصي. وقال قتادة : عدوه المسلط عليه ، وقيل : ستر الله عليه. وقيل : كرم الله ولطفه يلقن هذا الجواب ، فهذا لطف بالعاصي المؤمن. وقيل : عفوه عنه إن لم يعاقبه أول مرة. وقال الفضيل رضي الله عنه : ستره المرخى. وقال ابن السماك :

يا كاتم **الذنب** أما تستحيوالله في الخلوة رائيكا

غرك من ربك إمهالهوستره طول مساويكا

وقال الزمخشري : في جواب الفضيل ، وهذا على سبيل **الاعتراف بالخطأ**. بالاغترار : بالستر ، وليس باعتذار كما يظنه الطماع ، ويظن به قصاص الحشوية ، ويروون عن أئمتهم إنما قال : ﴿بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ دون سائر صفاته ، ليلقن عبده الجواب حتى يقول : غرني كونه الكريم. انتهى. وهو عادته في الطعن على أهل السنة. ﴿فَسَوَّاكَ﴾ : جعلك سوياً في أعضائك ، ﴿فَعَدَلَكَ﴾ : صيرك معتدلاً متناسب الخلق من غير تفاوت.

٤٣٦

وقرأ الحسن وعمرو بن عبيد وطلحة والأعمش وعيسى وأبو جعفر والكوفيون : بخف الدال ؛ وباقي السبعة

: بشدها. وقراءة التخفيف إما أن تكون كقراءة التشديد ، أي عدل بعض أعضائك ببعض حتى اعتدلت ، وإما أن يكون معناه فصرفك. يقال : عدله عن الطريق : أي عدلك عن خلقة غيرك إلى خلقة حسنة مفارقة لسائر الخلق ، أو فعدلك إلى بعض الأشكال والهيئات. والظاهر أن قوله : .
﴿مَا يُجَادِلُ﴾ يتعلق بربك ، أي وضعك في صورة اقتضتها مشيئة من حسن وطول وذكورة ، وشبه ببعض الأقارب أو مقابل ذلك. وما زائدة ، وشاء في موضع الصفة لصورة ، ولم يعطف ﴿رَكَّبَكَ﴾ بالفاء كالذي قبله ، لأنه بيان لعدلك ، وكون في أي صورة متعلقاً بربك هو قول الجمهور. وقيل : يتعلق بمحذوف ، أي ركبك حاصلاً في بعض الصور. وقال بعض المتأولين : إنه يتعلق بقوله : ﴿فَعَدَلَكَ﴾ ، أي : لك في صورة ، أي صورة ؛ وأي تقتضي التعجيب والتعظيم ، فلم يجعلك في صورة خنزير أو حمار ؛ وعلى هذا تكون ما منصوبة بشاء ، كأنه قال : أي تركيب حسن شاء ركبك ، والتركيب : التأليف وجمع شيء إلى شيء. وأدغم خارجة عن نافع ركبك كلا ، كأبي عمرو في إدغامه الكبير. وكلا : ردع وزجر لما دل عليه ما قبله من اغترارهم بالله تعالى ، أو لما دل عليه ما بعد كلا من تكذيبهم بيوم الجزاء والدين أو شريعة الإسلام. وقرأ الجمهور : ﴿بَلْ تُكَذِّبُونَ﴾ بالتاء ، خطاباً للكفار ؛ والحسن وأبو جعفر وشيبة وأبو بشر : بياء الغيبة.
جزء : ٨ رقم الصفحة : ٤٣٦
﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ﴾ : استئناف إخبار ، أي عليهم من يحفظ أعمالهم ويضبطها. ويظهر أنها جملة حالية ، والواو واو الحال ، أي تكذبون بيوم الجزاء. والكاتبون : الحفظة يضبطون أعمالكم لأن تجازوا عليها ، وفي تعظيم الكتبة بالثناء عليهم تعظيم لأمر الجزاء. وقرأ الجمهور : ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ ، مضارع صلى مخففاً ؛ وابن مقسم : مشدّداً مبنياً للمفعول. ﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ ، فيكتبون ما تعلق به الجزاء. قال الحسن : يعلمون ما ظهر دون حديث النفس. وقال سفيان : إذا هم العبد بالحسنة أو السيئة ، وجد الكاتبان ريحها. وقال الحسين بن الفضل : حيث قال يعلمون ولم يقل يكتبون دل على أنه لا يكتب الجميع فيخرج عنه السهو والخطأ وما لا تبعة فيه. ﴿وَمَا هُمَ عَنْهَا بِغَآابِينَ﴾ : أي عن الجحيم ، أي لا يمكنهم الغيبة ، كقوله : ﴿وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ . وقيل : إنهم مشاهدوها في البرزخ. لما أخبر عن صلبهم يوم القيامة ، أخبر بانتفاء غيبتهم عنها قبل الصلي ، أي يرون مقاعدهم من النار.
﴿وَمَآ أَدْرَاكَ﴾ : تعظيم لهول ذلك اليوم. وقرأ ابن أبي إسحاق وعيسى وابن جندب وابن كثير وأبو عمرو : ﴿يَوْمَ لا تَمْلِكُ﴾ برفع الميم ، أي هو يوم ، وأجاز الزمخشري فيه أن يكون بدلاً مما قبله. وقرأ محبوب عن أبي عمرو : يوم لا تملك على التنكير منوناً مرفوعاً فكه عن الإضافة وارتفاعه على هو يوم ، ولا تملك

جملة في موضع الصفة ، والعائد محذوف ، أي لا تملك فيه. وقرأ زيد بن علي والحسن وأبو جعفر وشيبة والأعرج وباقي السبعة : يوم بالفتح على الظرف ، فعند البصريين هي حركة إعراب ، وعند الكوفيين يجوز أن تكون حركة بناء ، وهو على التقديرين في موضع رفع خبر المحذوف تقديره : الجزاء يوم لا تملك ، أو في موضع نصب على الظرف ، أي يدانون يوم لا تملك ، أو على أنه مفعول به ، أي اذكر يوم لا تملك. ويجوز على رأي من يجيز بناءه أن يكون في موضع رفع خبر المبتدأ محذوف تقديره : هو. ﴿يَوْمَ لا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا ﴾ : عام كقوله : ﴿فَالْيَوْمَ لا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلا ضَرًّا﴾ . وقال مقاتل : لنفس كافرة شيئاً من المنفعة. ﴿وَالامْرُ يومئذ لِّلَّهِ﴾ ، قال قتادة : وكذلك هو اليوم ، لكنه هناك لا يدعي أحد منازعة ، ولا يمكن هو أحداً مما كان ملكه في الدنيا.

٤٣٧

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٤٣٦." (١)

"قوله إِذا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلاةِ.

تمام الكلام هاهنا.

ثم أصبح يقصر صلاة المسافر واو العطف فقال: (إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا) يريد فإن خفتم وهو حرف شرط وفي القرآن مثل هذا كثير أي خفي الخبر بتمامه ثم عطف عليه حرف منفصل عنه في الباطن وهو في الظاهر كالمتصل كقوله الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا راوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ «١» الآية. هذا اعتراف امرأة العزيز ثم وصل بها حكاية أخرى عن يوسف وهو قوله ذلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ لأن بعد **الاعتراف بالذنب** لا معنى لقولها لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ.

وفي التفسير: أنّ يوسف لما قال هذه المقالة. قال له جبرئيل (عليه السلام) ولا حين هممت؟ وعندئذ قال يوسف وَما أُبَرِّئُ نَفْسِي «٢» ومثل قوله تعالى وَرَبُّكَ يَخْلُقُ ما يَشاءُ وَيَخْتارُ

وقال: ما كانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ «٣» افتتاح كلام آخر يريد به النفي لأنه لو كان متصلا بأول الكلام كان معناه [....] «٤» .

قال: وحمل الآية على نحو ما أشرنا إليه من النظم يفيد زيادة معنى وهو وجوب القصر في السفر من غير خوف نص الآية لأنك متى ما فصلت قوله تعالى أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا متصلا بذكر قصر الصلاة لزمك أن تقول قصر الصلاة في السفر من غير خوف بالسنّة وأن السنّة ناسخة الكتاب، قيل: على زيادة معنى مع

(١) تفسير البحر المحيط . (دار الفكر)، ٣٢٧/٨

استقامة نظمها أولى من حملها على غيرها.

حكم الآية

اختلف أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ومن بعدهم في إتمام الصلاة في السفر أربع ركعات ولكن أبيح له القصر تخفيفا عنه وإليه ذهب الشافعي، ورجّح الوجوب

طلحة بن عمرو عن عطاء بن أبي رباح عن عائشة رضي الله عنها قالت: كل ذلك قد فعل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بعسفان في غزوة بني لحيان «٥» .

وَإِذا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاةَ الآية.

روى الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس وجابر قالا: إن المشركين لما رأوا أن رسول

---

(١) سورة يوسف: ٥١.

(٢) تفسير الطبري: ١٣/ ٤.

(٣) سورة القصص: ٦٨.

(٤) كلام غير مقروء.

(٥) راجع أحكام القرآن للجصّاص: ٢/ ٣٣١.." [١]

"إلى حذيفة اثني عشر رجلاً من المنافقين وقال: "ستة يكفيهم الله بالدبيلة، سراج من نار تأخذ أحدهم حتى تخرج من صدره، وستة يموتون موتًا" (١).

وقال الحسن: (بأخذ الزكاة من أموالهم وعذاب القبر) (٢).

وقال محمد بن إسحاق: (هو ما يدخل عليهم من غيظ الإسلام ودخولهم فيه من غير حسبة (٣)، ثم عذابهم في القبور) (٤).

وقال إسماعيل بن أبي زياد (٥): (أحد العذابين ضرب الملائكة الوجوه والأدبار، والثاني عند البعث، يوكل بهم عنق من نار) (٦).

﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ يعني: الخلود في النار.

---

(١) تفسير الثعلبي = الكشف والبيان عن تفسير القرآن الثعلبي ٣٧٤/٣

١٠٢ - قوله تعالى: ﴿وَآخَرُونَ﴾ أي ومن أهل المدينة آخرون ﴿اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ﴾ الاعتراف: الإقرار [بالذنب أو بالذل والمهانة والرضا به، واعترف فلان] (٧) إذا ذل وانقاد، قال أصحاب العربية: (ومعناه الإقرار

---

(١) رواه ابن جرير ١١/ ١١ عن قتادة، وفي سنده مجهول.

(٢) انظر: "تفسير ابن جرير" ١١/ ١١، والثعلبي ٦/ ١٤٣ أ.

(٣) في (ح): (خشيتهم)، وهو خطأ.

(٤) "السيرة النبوية" لابن هشام ٤/ ٢١٢.

(٥) هو: إسماعيل بن أبي زياد الكوفي الشامي قاضي الموصل، واسم أبيه مسلم، وقيل زياد، له كتاب في التفسير شحنه بأحاديث لا يتابع عليها، قال الدارقطني: يضع الحديث، كذاب، متروك، وقال ابن حجر: متروك كذبوه.

انظر: "الضعفاء والمتروكون" ص ١٣٩، "تهذيب الكمال" ٣/ ٢٠٦، و"تقريب التهذيب" ص ١٠٧ (٤٤٦)، و"تهذيب التهذيب" ١/ ١٥١ - ١٥٢، و"طبقات المفسرين" للداودي ١/ ١٠٨.

(٦) ذكره الثعلبي في "تفسيره" ٦/ ١٤٣ ب.

(٧) ما بين المعقوفين ساقط من (ى).." [١]

"﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١١٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ (١١٩) مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١٢٠)﴾ .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ اتَّسَعَتْ، ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ﴾ غَمًّا وَهَمًّا، ﴿وَظَنُّوا﴾ أَيْ: تَيَقَّنُوا، ﴿أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ﴾ لَا مَفْزَعَ مِنَ اللَّهِ، ﴿إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾ أَيْ: لِيَسْتَقِيمُوا عَلَى التَّوْبَةِ فَإِنَّ تَوْبَتَهُمْ قَدْ سَبَقَتْ. ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ .

---

(١) التفسير البسيط الواحدي ١١/٣٠

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ قَالَ نَافِعٌ: مَعَ مُحَمَّدٍ وَأَصْحَابِهِ. وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: مَعَ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: مَعَ الْمُهَاجِرِينَ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى: " لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ " إِلَى قَوْلِهِ " أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ " (الْحَشْرِ -٨) . وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمَا: مَعَ الَّذِينَ صَدَقَتْ نِيَّاتُهُمْ وَاسْتَقَامَتْ قُلُوبُهُمْ وَأَعْمَالُهُمْ وَخَرَجُوا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى تَبُوكَ بِإِخْلَاصِ نِيَّةٍ. وَقِيلَ: مَعَ الَّذِينَ صَدَقُوا فِي **الِاعْتِرَافِ بِالذَّنْبِ** وَلَمْ يَعْتَذِرُوا بِالْأَعْذَارِ الْكَاذِبَةِ.

وَكَانَ ابْنُ مَسْعُودٍ يَقْرَأُ: ﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: إِنَّ الْكَذِبَ لَا يَصْلُحُ فِي جِدٍّ وَلَا هَزْلٍ، وَلَا أَنْ يَعِدَ أَحَدُكُمْ صَبِيَّهُ شَيْئًا ثُمَّ لَا ينجز له، اقرؤوا إِنَّ شِئْتُمْ وَقَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ﴾ ظَاهِرُهُ خَبَرٌ، وَمَعْنَاهُ نَهْيٌ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: "وَمَا كَانَ لَكُمْ أن تؤذوا ١٦٧/أرَسُولَ اللَّهِ" (الْأَحْزَابِ -٥٣) ﴿وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ﴾ سُكَّانُ الْبَوَادِي: مُزَيْنَةُ، وَجُهَيْنَةُ، وَأَشْجَعُ، وَأَسْلَمُ، وَغِفَارٌ. ﴿أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ﴾ إِذَا غَزَا. ﴿وَلَا يَرْغَبُوا﴾ أَيْ: وَلَا أَنْ يَرْغَبُوا، ﴿بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ﴾ فِي مُصَاحَبَتِهِ وَمُعَاوَنَتِهِ وَالْجِهَادِ مَعَهُ. قَالَ الْحَسَنُ: لَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ أَنْ يُصِيبَهُمْ." (١)

"معه، وبقي ثلاثة لم يوثقوا أنفسهم، فلما نزلت هذه الآية، أطلقهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وعذرهم. وروى أبو صالح عن ابن عباس أنهم كانوا ثلاثة: أبو لبابة بن عبد المنذر، وأوس بن ثعلبة، ووديعة بن خِذام الأنصاري. وقال سعيد بن جبير، ومجاهد، وزيد بن أسلم: كانوا ثمانية. وقال قتادة: ذُكر لنا أنهم كانوا سبعة «١» .

والثاني: أنها نزلت في أبي لبابة وحده. واختلفوا في ذنبه على قولين: أحدهما: أنه خان الله ورسوله باشارته إلى بني قريظة حين شاوروه في النزول على حكم سعد أنه الذبح، وهذا قول مجاهد، وقد شرحناه في سورة الأنفال «٢» . والثاني: أنه تخلُّفه عن تبوك. قاله الزهري. فأما الاعتراف، فهو الاقرار بالشيء عن معرفة. **والاعتراف بالذنب** أدعى إلى صدق التوبة والقبول.

قوله تعالى: خَلَطُوا عَمَلًا صالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً قال ابن جرير: وُضع الواوُ مكان الباء، والمعنى:

بآخر سيء، كما يقال: خلطت الماءَ واللبن. وفي ذلك العمل قولان: أحدهما: أن العمل الصالح: ما سبق من جهادهم، والسّيئ: التأخر عن الجهاد، قاله السدي. والثاني: أن العمل الصالح: توبتهم، والسّيئ: تخلّفهم، ذكره الفرّاء.

وفي قوله تعالى: عَسَى اللَّهُ قولان: أحدهما: أنه واجب من الله تعالى، قاله ابن عباس.

---

(١) تفسير البغوي - طيبة البغوي ، أبو محمد ١٠٩/٤

والثاني: أنه ترديد لهم بين الطمع والإشفاق، وذلك يصد عن اللهو والإهمال.

[سورة التوبة (٩) : آية ١٠٣]

خُذْ مِنْ أَمْوالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِها وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٠٣)

قوله تعالى: خُذْ مِنْ أَمْوالِهِمْ صَدَقَةً.

(٧٥٢) قال المفسّرون: لمّا تاب الله عزّ وجلّ على أبي لبابة وأصحابه، قالوا: يا رسول الله، هذه أموالنا فتصدق بها عنا، فقال «ما أُمرت أن آخذ من أموالكم شيئاً» فنزلت هذه الآية.

أخرجه الطبري ١٧١٦٦ عن ابن عباس، وفيه إرسال بين علي بن أبي طلحة وابن عباس. وأخرجه برقم ١٧١٦٨ بسند فيه مجاهيل عن عطية العوفي، وهو ضعيف عن ابن عباس. وأخرجه ١٧١٧٢ عن الضحاك مرسلا.

---

(١) قال الطبري في «تفسيره» ٦/ ٤٦٢ و ٤٦٣: وأولى هذه الأقوال بالصواب في ذلك، قول من قال: نزلت هذه الآية في المعترفين بخطإ فعلهم في تخلفهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وتركهم الجهاد معه، والخروج لغزو الروم، حين شخص إلى تبوك، وأن الذين نزل فيهم جماعة. أحدهم أبو لبابة. إنما قلنا: ذلك أولى بالصواب في ذلك لأن الله جل ثناؤه قال: وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ فأخبر عن اعتراف جماعة بذنوبهم، ولم يكن المعترف بذنبه الموثق نفسه بالسارية في حصار قريظة غير أبي لبابة وحده، فإذا كان ذلك كذلك، وكان الله تبارك وتعالى قد وصف في قوله وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ **بالاعتراف بذنوبهم** جماعة. علم أن ال جماعة الذين وصفهم بذلك ليست الواحد. فقد تبين بذلك أن هذه الصفة إذا لم تكن إلا لجماعة، وكان لا جماعة فعلت ذلك، فيما نقله أهل السير والأخبار وأجمع عليه أهل التأويل، إلا جماعة من المتخلفين عن غزوة تبوك، صح ما قلنا في ذلك وقلنا: كان منهم أبو لبابة لإجماع الحجة من أهل التأويل على ذلك.

(٢) سورة الأنفال: ٢٧.." [١]

---

(١) زاد المسير في علم التفسير ابن الجوزي ٢/٢٩٤

"ورثناه عنهم، وهذا عن مجاهد. والثاني: أنهم يقولون: لولا فلان، لكان كذا، فهذا إنكارهم، قاله عون بن عبد الله. والثالث: يعرفون أن النعم من الله، ولكن يقولون: هذه بشفاعة آلهتنا، قاله ابن السائب، والفراء، وابن قتيبة.

والثاني: أنّ المراد بالنّعمة ها هنا: محمّد صلى الله عليه وسلم يعرفون أنه نبيٌّ ثم يكذِّبونه، وهذا مروي عن مجاهد، والسدي، والزجاج.

قوله تعالى: وَأَكْثَرُهُمُ الْكافِرُونَ قال الحسن: وجميعهم كفار، فذكر الأكثر، والمراد به الجميع.

[سورة النحل (١٦) : الآيات ٨٤ الى ٨٧]

وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً ثُمَّ لا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٨٤) وَإِذا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذابَ فَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ (٨٥) وَإِذا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكاءَهُمْ قالُوا رَبَّنا هؤُلاءِ شُرَكاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكاذِبُونَ (٨٦) وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ (٨٧)

قوله تعالى: وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً يعني: يوم القيامة، وشاهد كلِّ أُمةٍ نبيّها يشهد عليها بتصديقها وتكذيبها ثُمَّ لا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا في الاعتذار وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ أي: لا يُطلب منهم أن يرجعوا إلى ما أمر الله به لأن الآخرة ليست بدار تكليف.

قوله تعالى: وَإِذا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا أي: أشركوا الْعَذابَ يعني: النار فَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ العذاب وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ لا يؤخَّرون ولا يمهلون وَإِذا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكاءَهُمْ يعني: الأصنام التي جعلوها شركاء لله في العبادة، وذلك أن الله يبعث كل معبود من دونه، فيقول المشركون: رَبَّنا هؤُلاءِ شُرَكاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا أي: نعبد من دونك.

فان قيل: فهذا معلوم عند الله تعالى، فما فائدة قولهم: «هؤلاء شركاؤنا» ؟ فعنه جوابان:

أحدهما: أنهم لما كتموا الشرك في قولهم: واللهِ ما كنا مشركين، عاقبهم الله تعالى باصمات ألسنتهم، وإنطاق جوارحهم، فقالوا عند معاينة آلهتهم: رَبَّنا هؤُلاءِ شُرَكاؤُنَا أي: قد أقررنا بعد الجحد، وصدَّقنا بعد الكذب، التماساً للرحمة، وفراراً من الغضب، وكأنَّ هذا القول منهم على وجه **الاعتراف بالذنب**، لا على وجه إعلام من لا يعلم.

والثاني: أنهم لما عاينوا عِظَم غضب الله تعالى قالوا: هؤلاء شركاؤنا، تقديرَ أن يعود عليهم من هذا القول روح، وأن تلزم الأصنام إجرامهم، أو بعض ذنوبهم إذْ كانوا يدَّعون لها العقل والتمييز، فأجابتهم الأصنام بما

حسم طمعهم.

قوله تعالى: فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ أي: أجابوهم وقالوا لهم: إِنَّكُمْ لَكاذِبُونَ قال الفراء: ردت عليهم آلهتهم قولهم. وقال أبو عبيدة: «فألقوا» ، أي: قالوا لهم. يقال: ألقيت إلى فلان كذا، أي: قلت له. قال العلماء: كذَّبوهم في عبادتهم إياهم، وذلك أن الأصنام كانت جماداً لا تعرف." (١)

"الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى: قَوْلُهُ: وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ فِيهِ قَوْلَانِ: الْأَوَّلُ: أَنَّهُمْ قَوْمٌ مِنَ الْمُنَافِقِينَ. تَابُوا عَنِ النِّفَاقِ. وَالثَّانِي: أَنَّهُمْ قَوْمٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ تَخَلَّفُوا عَنْ غَزْوَةِ تَبُوكَ، لَا لِلْكُفْرِ وَالنِّفَاقِ، لَكِنْ لِلْكَسَلِ، ثُمَّ نَدِمُوا عَلَى مَا فَعَلُوا ثُمَّ تَابُوا، وَاحْتَجَّ الْقَائِلُونَ بِالْقَوْلِ الْأَوَّلِ بِأَنَّ قَوْلَهُ: وَآخَرُونَ عِطْفٌ عَلَى قَوْلِهِ: وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرابِ مُنافِقُونَ وَالْعَطْفُ يُوهِمُ التَّشْرِيكَ إِلَّا أَنَّهُ/ تَعَالَى وَفَّقَهُمْ حَتَّى تَابُوا، فَلَمَّا ذَكَرَ الْفَرِيقَ الْأَوَّلَ بِالْمُرُودِ عَلَى النِّفَاقِ وَالْمُبَالَغَةِ فِيهِ. وَصَفَ هَذِهِ الْفِرْقَةَ بِالتَّوْبَةِ وَالْإِقْلَاعِ عَنِ النِّفَاقِ.

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ:

رُوِيَ أَنَّهُمْ كَانُوا ثَلَاثَةً: أَبُو لُبَابَةَ مَرْوَانُ بْنُ عَبَدِ الْمُنْذِرِ، وَأَوْسُ بْنُ ثَعْلَبَةَ، وَوَدِيعَةُ بْنُ حِزَامٍ، وَقِيلَ: كَانُوا عَشَرَةً. فَسَبْعَةٌ مِنْهُمْ أَوْثَقُوا أَنْفُسَهُمْ لَمَّا بَلَغَهُمْ مَا نَزَلَ فِي الْمُتَخَلِّفِينَ فَأَيْقَنُوا بِالْهَلَاكِ، وَأَوْثَقُوا أَنْفُسَهُمْ عَلَى سَوَارِي الْمَسْجِدِ فَقَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَدَخَلَ الْمَسْجِدَ فَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ وَكَانَتْ هَذِهِ عَادَتَهُ، فَلَمَّا قَدِمَ مِنْ سَفَرِهِ ورآهم مؤثقين، سَأَلَ عَنْهُمْ فَذُكِرَ لَهُ أَنَّهُمْ أَقْسَمُوا أَنْ لَا يَحُلُّوا أَنْفُسَهُمْ حَتَّى يَكُونَ رَسُولُ اللَّهِ هُوَ الَّذِي يَحُلُّهُمْ، فَقَالَ: وَأَنَا أُقْسِمُ أَنِّي لا أحلهم حتى أومر فِيهِمْ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فَأَطْلَقَهُمْ وَعَذَرَهُمْ، فَقَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ هَذِهِ أَمْوَالُنَا وَإِنَّمَا تَخَلَّفْنَا عَنْكَ بِسَبَبِهَا، فَتَصَدَّقْ بِهَا وَطَهِّرْنَا، فَقَالَ: مَا أُمِرْتُ أَنْ آخُذَ مِنْ أَمْوَالِكُمْ شَيْئًا فَنَزَلَ قوله: خُذْ مِنْ أَمْوالِهِمْ صَدَقَةً [التوبة: ١٠٣] الْآيَةَ.

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ: قَوْلُهُ: اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ قَالَ أَهْلُ اللُّغَةِ: **الِاعْتِرَافُ عِبَارَةٌ** عَنِ الْإِقْرَارِ بِالشَّيْءِ عَنْ مَعْرِفَةٍ، وَمَعْنَاهُ أَنَّهُمْ أَقَرُّوا بِذَنْبِهِمْ، وَفِيهِ دَقِيقَةٌ، كَأَنَّهُ قِيلَ لَمْ يَعْتَذِرُوا عَنْ تَخَلُّفِهِمْ بِالْأَعْذَارِ الْبَاطِلَةِ كَغَيْرِهِمْ، وَلَكِنِ اعْتَرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِأَنَّهُمْ بِئْسَمَا فَعَلُوا وَأَظْهَرُوا النَّدَامَةَ وَذَمُّوا أَنْفُسَهُمْ عَلَى ذَلِكَ التَّخَلُّفِ.

فَإِنْ قِيلَ: **الِاعْتِرَافُ بِالذَّنْبِ** هَلْ يَكُونُ تَوْبَةً أَمْ لَا؟

قُلْنَا: مُجَرَّدُ **الِاعْتِرَافِ بِالذَّنْبِ** لَا يَكُونُ تَوْبَةً، فَأَمَّا إِذَا اقْتَرَنَ بِهِ النَّدَمُ عَلَى الْمَاضِي، وَالْعَزْمُ عَلَى تَرْكِهِ فِي الْمُسْتَقْبَلِ، وَكَانَ هَذَا النَّدَمُ وَالتَّوْبَةُ لِأَجْلِ كَوْنِهِ مَنْهِيًّا عَنْهُ مِنْ قِبَلِ اللَّهِ تَعَالَى، كَانَ هَذَا الْمَجْمُوعُ تَوْبَةً، إِلَّا أَنَّهُ دَلَّ الدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ هَؤُلَاءِ قَدْ تَابُوا بِدَلِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ وَالْمُفَسِّرُونَ قَالُوا: إِنَّ عَسَى

---

(١) زاد المسير في علم التفسير ابن الجوزي ٥٧٧/٢

مِنَ اللَّهِ يَدُلُّ عَلَى الْوُجُوبِ.
ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: خَلَطُوا عَمَلًا صالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً وَفِيهِ بَحْثَانِ:
الْبَحْثُ الْأَوَّلُ: فِي هَذَا الْعَمَلِ الصَّالِحِ وُجُوهٌ: الْأَوَّلُ: الْعَمَلُ الصَّالِحُ هُوَ **الِاعْتِرَافُ بِالذَّنْبِ** وَالنَّدَامَةُ عَلَيْهِ وَالتَّوْبَةُ مِنْهُ، وَالسَّيِّءُ هُوَ التَّخَلُّفُ عَنِ الْغَزْوِ. وَالثَّانِي: الْعَمَلُ الصَّالِحُ خُرُوجُهُمْ مَعَ الرَّسُولِ إِلَى سَائِرِ الْغَزَوَاتِ وَالسَّيِّءُ هُوَ تَخَلُّفُهُمْ عَنْ غَزْوَةِ تَبُوكَ. وَالثَّالِثُ: أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي حَقِّ الْمُسْلِمِينَ كَانَ الْعَمَلُ الصَّالِحُ إِقْدَامُهُمْ عَلَى أَعْمَالِ الْبِرِّ الَّتِي صَدَرَتْ عَنْهُمْ.
الْبَحْثُ الثَّانِي: لِقَائِلٍ أَنْ يَقُولَ: قَدْ جُعِلَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْعَمَلِ الصَّالِحِ وَالسَّيِّءِ مَخْلُوطًا. فَمَا الْمَخْلُوطُ بِهِ. وَجَوَابُهُ أَنَّ الْخَلْطَ عِبَارَةٌ عَنِ الْجَمْعِ الْمُطْلَقِ، وَأَمَّا قَوْلُكَ خَلَطْتُهُ، فَإِنَّمَا يَحْسُنُ فِي الْمَوْضِعِ/ الَّذِي يَمْتَزِجُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا بِالْآخَرِ، وَيَتَغَيَّرُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا بِسَبَبِ تِلْكَ الْمُخَالَطَةِ عَنْ صِفَتِهِ الْأَصْلِيَّةِ كَقَوْلِكَ خَلَطْتُ الْمَاءَ بِاللَّبَنِ. وَاللَّائِقُ بِهَذَا الْمَوْضِعِ هُوَ الْجَمْعُ الْمُطْلَقُ، لِأَنَّ الْعَمَلَ الصَّالِحَ وَالْعَمَلَ السَّيِّءَ إِذَا حَصَلَا بَقِيَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا كَمَا كَانَ عَلَى مَذْهَبِنَا، فَإِنَّ عِنْدَنَا الْقَوْلَ بِالْإِحْبَاطِ بَاطِلٌ، وَالطَّاعَةَ تَبْقَى مُوجِبَةً لِلْمَدْحِ وَالثَّوَابِ، وَالْمَعْصِيَةَ تَبْقَى مُوجِبَةً لِلذَّمِّ وَالْعِقَابِ، فَقَوْلُهُ تَعَالَى: خَلَطُوا عَمَلًا صالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً فِيهِ تَنْبِيهٌ عَلَى نَفْيِ الْقَوْلِ." (١)
"بِالْمُحَابَطَةِ، وَأَنَّهُ بَقِيَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا كَمَا كَانَ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَتَأَثَّرَ أَحَدُهُمَا بِالْآخَرِ، وَمِمَّا يُعِينُ هَذِهِ الْآيَةَ عَلَى نَفْيِ الْقَوْلِ بِالْمُحَابَطَةِ أَنَّهُ تَعَالَى وَصَفَ الْعَمَلَ الصَّالِحَ وَالْعَمَلَ السَّيِّءَ بِالْمُخَالَطَةِ. وَالْمُخْتَلِطَانِ لَا بُدَّ وَأَنْ يَكُونَا بَاقِيَيْنِ حَالَ اخْتِلَاطِهِمَا، لِأَنَّ الِاخْتِلَاطَ صِفَةٌ لِلْمُخْتَلِطِينَ، وَحُصُولُ الصِّفَةِ حَالَ عَدَمِ الْمَوْصُوفِ مُحَالٌ، فَدَلَّ عَلَى بَقَاءِ الْعَمَلَيْنِ حَالَ الِاخْتِلَاطِ.
ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ وَفِيهِ مباحث:
البحث الأول: هاهنا سُؤَالٌ، وَهُوَ أَنَّ كَلِمَةَ (عَسَى) شَكٌّ وَهُوَ فِي حَقِّ اللَّهِ تَعَالَى مُحَالٌ، وَجَوَابُهُ مِنْ وُجُوهٍ:
الْوَجْهِ الْأَوَّلُ: قَالَ الْمُفَسِّرُونَ: كَلِمَةُ عَسَى مِنَ اللَّهِ وَاجِبٌ، وَالدَّلِيلُ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ [الْمَائِدَةِ: ٥٢] وَفَعَلَ ذَلِكَ، وَتَحْقِيقُ الْقَوْلِ فِيهِ أَنَّ الْقُرْآنَ نَزَلَ عَلَى عُرْفِ النَّاسِ فِي الْكَلَامِ، وَالسُّلْطَانُ الْعَظِيمُ إِذَا الْتَمَسَ الْمُحْتَاجُ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنَّهُ لَا يُجِيبُ إِلَيْهِ إِلَّا عَلَى سَبِيلِ التَّرَجِّي مَعَ كَلِمَةِ عَسَى، أَوْ لَعَلَّ، تَنْبِيهًا عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ لِأَحَدٍ أَنْ يُلْزِمَنِي شَيْئًا وَأَنْ يُكَلِّفَنِي بِشَيْءٍ بَلْ كُلُّ مَا أَفْعَلُهُ فَإِنَّمَا أَفْعَلُهُ عَلَى سَبِيلِ التَّفَضُّلِ وَالتَّطَوُّلِ، فَذِكْرُ كَلِمَةِ (عَسَى) الْفَائِدَةُ فِيهِ هَذَا الْمَعْنَى، مَعَ أَنَّهُ يُفِيدُ الْقَطْعَ بِالْإِجَابَةِ.

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ١٣٢/١٦

الْوَجْهُ الثَّانِي: فِي الْجَوَابِ، الْمَقْصُودِ مِنْهُ بَيَانُ أَنَّهُ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ الْمُكَلَّفُ عَلَى الطَّمَعِ وَالْإِشْفَاقِ لِأَنَّهُ أَبْعَدُ مِنَ الْإِنْكَارِ وَالْإِهْمَالِ.

الْبَحْثُ الثَّانِي: قَالَ أَصْحَابُنَا قَوْلُهُ: عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ صَرِيحٌ فِي أَنَّ التَّوْبَةَ لَا تَحْصُلُ إِلَّا مِنْ خَلْقِ اللَّهِ تَعَالَى، وَالْعَقْلُ أَيْضًا دَلِيلٌ عَلَيْهِ، لِأَنَّ الْأَصْلَ فِي التَّوْبَةِ النَّدَمُ، وَالنَّدَمُ لَا يَحْصُلُ بِاخْتِيَارِ الْعَبْدِ لِأَنَّ إِرَادَةَ الْفِعْلِ وَالتَّرْكِ إِنْ كَانَتْ فِعْلًا لِلْعَبْدِ افْتَقَرَ فِي فِعْلِهَا إِلَى إِرَادَةٍ أُخْرَى، وَأَيْضًا فَإِنَّ الْإِنْسَانَ قَدْ يَكُونُ عَظِيمَ الرَّغْبَةِ فِي فِعْلٍ مُعَيَّنٍ، ثُمَّ يَصِيرُ عَظِيمَ النَّدَامَةِ عَلَيْهِ، وَحَالَ كَوْنِهِ رَاغِبًا فِيهِ لَا يُمْكِنُهُ دَفْعُ تِلْكَ الرَّغْبَةِ عَنِ الْقَلْبِ، وَحَالَ صَيْرُورَتِهِ نَادِمًا عَلَيْهِ لَا يُمْكِنُهُ دَفْعُ تِلْكَ النَّدَامَةِ عَنِ الْقَلْبِ، فَدَلَّ هَذَا عَلَى أَنَّهُ لَا قُدْرَةَ لِلْعَبْدِ عَلَى تَحَصُّلِ النَّدَامَةِ، وَعَلَى تَحْصِيلِ الرَّغْبَةِ، قَالَتِ الْمُعْتَزِلَةُ: الْمُرَادُ مِنْ قَوْلِهِ: يَتُوبُ اللَّهُ أَنَّهُ يَقْبَلُ تَوْبَتَهُ.

وَالْجَوَابُ: أَنَّ الصَّرْفَ عَنِ الظَّاهِرِ إِنَّمَا يَحْسُنُ، إِذَا ثَبَتَ بِالدَّلِيلِ أَنَّهُ لَا يُمْكِنُ إِجْرَاءُ اللَّفْظِ عَلَى ظاهره، أما هاهنا، فَالدَّلِيلُ الْعَقْلِيُّ أَنَّهُ لَا يُمْكِنُ إِجْرَاءُ اللَّفْظِ إِلَّا عَلَى ظَاهِرِهِ، فَكَيْفَ يَحْسُنُ التَّأْوِيلُ.

الْبَحْثُ الثَّالِثُ: قَوْلُهُ: عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ يَقْتَضِي أَنَّ هَذِهِ التَّوْبَةَ إِنَّمَا تَحْصُلُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ.

وَقَوْلُهُ: وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ دَلَّ عَلَى أَنَّ ذَلِكَ الِاعْتِرَافَ حَصَلَ فِي الْمَاضِي، وَذَلِكَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ ذَلِكَ الِاعْتِرَافَ مَا كَانَ نَفْسَ التَّوْبَةِ، بَلْ كَانَ مُقَدِّمَةً لِلتَّوْبَةِ، وَأَنَّ التَّوْبَةَ إِنَّمَا تَحْصُلُ بَعْدَهَا.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: خُذْ مِنْ أَمْوالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِها وَفِيهِ مَسَائِلُ:

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى: اخْتَلَفَ النَّاسُ فِي الْمُرَادِ. فَقَالَ بَعْضُهُمْ: هَذَا رَاجِعٌ إِلَى هَؤُلَاءِ الَّذِينَ تَابُوا، وَذَلِكَ لِأَنَّهُمْ بَذَلُوا أَمْوَالَهُمْ لِلصَّدَقَةِ، فَأَوْجَبَ اللَّهُ تَعَالَى أَخْذَهَا، وَصَارَ ذَلِكَ مُعْتَبَرًا فِي كَمَالِ تَوْبَتِهِمْ لِتَكُونَ جَارِيَةً فِي حَقِّهِمْ مَجْرَى الْكَفَّارَةِ، وَهَذَا قَوْلُ الْحَسَنِ، وَكَانَ يَقُولُ لَيْسَ الْمُرَادُ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ الصَّدَقَةَ الْوَاجِبَةَ، وَإِنَّمَا هِيَ صَدَقَةُ كَفَّارَةِ الذَّنْبِ الَّذِي صَدَرَ منهم.." (١)

"الحكومة وعلى تحريف الكلم، والجملة حال من الواو. وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنا لا يؤاخذنا الله بذلك ويتجاوز عنه، وهو يحتمل العطف والحال والفعل مسند إلى الجار والمجرور، أو مصدر يأخذون. وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ حال من الضمير في لَنا أي: يرجون المغفرة مصرين على الذنب عائدين إلى مثله غير تائبين عنه. أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثاقُ الْكِتابِ أي في الكتاب. أَنْ لاَّ يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ عطف بيان للميثاق، أو متعلق به أي بأن يقولوا والمراد توبيخهم على البت بالمغفرة مع عدم التوبة والدلالة على أنه افتراء على الله وخروج عن ميثاق الكتاب. وَدَرَسُوا مَا فِيهِ عطف على أَلَمْ يُؤْخَذْ من حيث المعنى فإنه تقرير،

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ١٣٣/١٦

أو على وَرِثُوا وهو اعتراض. وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ مما يأخذ هؤلاء. أَفَلا يَعْقِلُونَ فيعلموا ذلك ولا يستبدلوا الأدنى الدنيء المؤدي إلى العقاب بالنعيم المخلد، وقرأ نافع وابن عامر وحفص ويعقوب بالتاء على التلوين. وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتابِ وَأَقامُوا الصَّلاةَ عطف على الذين يَتَّقُونَ وقوله: أَفَلا يَعْقِلُونَ اعتراض أو مبتدأ خبره: إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ على تقدير منهم، أو وضع الظاهر موضع المضمر تنبيهاً على أن الإصلاح كالمانع من التضييع. وقرأ أبو بكر يُمَسِّكُونَ بالتخفيف وإفراد الإقامة لإنافتها على سائر أنواع التمسكات.

[سورة الأعراف (٧) : آية ١٧١]

وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ واقِعٌ بِهِمْ خُذُوا ما آتَيْناكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا ما فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٧١)

وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ أي قلعناه ورفعناه فوقهم وأصل النتق الجذب. كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ سقيفة وهي كل ما أظلك. وَظَنُّوا وتيقنوا. أَنَّهُ واقِعٌ بِهِمْ ساقط عليهم لأن الجبل لا يثبت في الجو ولأنهم كانوا يوعدون به، وإنما أطلق الظن لأنه لم يقع متعلقه وذلك أنهم أبوا أن يقبلوا أحكام التوراة لثقلها فرفع الله الطور فوقهم.

وقيل لهم إن قبلتم ما فيها وإلا ليقعن عليكم. خُذُوا على إضمار القول أي وقلنا خذوا أو قائلين خذوا. ما آتَيْناكُمْ من الكتاب. بِقُوَّةٍ بجد وعزم على تحمل مشاقه، وهو حال من الواو. وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ بالعمل به ولا تتركوه كالمنسي. لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ قبائح الأعمال ورذائل الأخلاق.

[سورة الأعراف (٧) : الآيات ١٧٢ الى ١٧٤]

وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قالُوا بَلى شَهِدْنا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هذا غافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّما أَشْرَكَ آباؤُنا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنا بِما فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (١٧٣) وَكَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (١٧٤)

وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ أي أخرج من أصلابهم نسلهم على ما يتوالدون قرناً بعد قرن، ومِنْ ظُهُورِهِمْ بدل مِنْ بَنِي آدَمَ بدل البعض. وقرأ نافع وأبو عمرو وابن عامر ويعقوب «ذرياتهم» . وَأَشْهَدَهُمْ عَلى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قالُوا بَلى شَهِدْنا أي ونصب لهم دلائل ربوبيته وركب في عقولهم ما يدعوهم إلى الاقرار بها حتى صاروا بمنزلة من قيل لهم: أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قالُوا بَلى فنزل تمكينهم من العلم بها وتمكنهم منه بمنزلة الإشهاد والاعتراف على طريقة التمثيل ويدل عليه قوله: أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيامَةِ أي كراهة أن تقولوا.

إِنَّا كُنَّا عَنْ هذا غافِلِينَ لم ننبه عليه بدليل.

أَوْ تَقُولُوا عطف على أَنْ تَقُولُوا، وقرأ أبو عمرو كليهما بالياء لأن أول الكلام على الغيبة. إِنَّما أَشْرَكَ آباؤُنا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ فاقتدينا بهم لأن التقليد عند قيام الدليل والتمكن من العلم به لا يصلح عذراً. أَفَتُهْلِكُنا بِما فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ يعني آباءهم المبطلين بتأسيس الشرك. وقيل لما خلق الله آدم أخرج من ظهره ذرية كالذر وأحياهم وجعل لهم العقل والنطق وألهمهم ذلك لحديث رواه عمر رضي الله تعالى عنه، وقد حققت الكلام فيه في شرحي لكتاب «المصابيح» ، والمقصود من إيراد هذا الكلام هاهنا الزام." [١]

"وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ أي وممن حول بلدتكم يعني المدينة. مِنَ الْأَعْرابِ مُنافِقُونَ هم جهينة ومزينة وأسلم وأشجع وغفار كانوا نازلين حولها. وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ عطف على مِمَّنْ حَوْلَكُمْ أو خبر لمحذوف صفته. مَرَدُوا عَلَى النِّفاقِ ونظيره في حذف الموصوف وإقامة الصفة مقامه قوله:

أَنَا ابنُ جَلا وَطَلاَّع الثنَايَا وعلى الأول صفة للمنافقين فصل بينها وبينه بالمعطوف على الخبر أو كلام مبتدأ لبيان تمرنهم وتمهرهم في النفاق. لاَ تَعْلَمُهُمْ لا تعرفهم بأعيانهم وهو تقرير لمهارتهم فيه وتنوقهم في تحامي مواقع التهم إلى حد أخفى عليك حالهم مع كمال فطنتك وصدق فراستك. نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ونطلع على أسرارهم إن قدروا أن يلبسوا عليك لم يقدروا أن يلبسوا علينا. سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ بالفضيحة والقتل أو بأحدهما وعذاب القبر، أو بأخذ الزكاة ونهك الأبدان. ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلى عَذابٍ عَظِيمٍ إلى عذاب النار.

[سورة التوبة (٩) : آية ١٠٢]

وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٠٢)

وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ ولم يعتذروا عن تخلفهم بالمعاذير الكاذبة، وهم طائفة من المتخلفين أوثقوا أنفسهم على سَوَاري المسجد لما بلغهم ما نزل في المتخلفين،

فقدم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فدخل المسجد على عادته فصلى ركعتين فرآهم فسأل عنهم فذكر له أنهم أقسموا أن لا يحلوا أنفسهم حتى تحلهم فقال: وأنا أقسم أن لا أحلهم حتى أومر فيهم فنزلت فأطلقهم. خَلَطُوا عَمَلًا صالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً خلطوا العمل الصالح الذي هو إظهار الندم **والاعتراف بالذنب** بآخر سيئ هو التخلف وموافقة أهل النفاق، والواو إما بمعنى الباء كما في قولهم: بعت الشاء شاة ودرهماً. أو للدلالة

(١) تفسير البيضاوي = أنوار التنزيل وأسرار التأويل ناصر الدين البيضاوي ٣/٤١

على أن كل واحد منهما مخلوط بالآخر. عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أن يقبل توبتهم وهي مدلول عليها بقوله اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ. إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ يتجاوز عن التائب ويتفضل عليه.

[سورة التوبة (٩) : الآيات ١٠٣ الى ١٠٤]

خُذْ مِنْ أَمْوالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِها وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٠٣) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٠٤)

خُذْ مِنْ أَمْوالِهِمْ صَدَقَةً

روي: أنهم لما أُطْلِقُوا قالوا يا رسول الله هذه أموالنا التي خلفتنا فتصدق بها وطهرنا فقال: «ما أمرت أن آخذ من أموالكم شيئاً» فنزلت.

تُطَهِّرُهُمْ من الذنوب أو حب المال المؤدي بهم إلى مثله. وقرئ «تُطَهِّرُهُمْ» من أطهره بمعنى طهره و «تُطَهِّرْهُمْ» بالجزم جواباً للأمر. وَتُزَكِّيهِمْ بِها وتنمي بها حسناتهم وترفعهم إلى منازل المخلصين. وَصَلِّ عَلَيْهِمْ واعطف عليهم بالدعاء والاستغفار لهم.

إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ تسكن إليها نفوسهم وتطمئن بها قلوبهم، وجمعها لتعدد المدعو لهم وقرأ حمزة والكسائي وحفص بالتوحيد. وَاللَّهُ سَمِيعٌ باعترافهم. عَلِيمٌ بندامتهم.

أَلَمْ يَعْلَمُوا الضمير إما للمتوب عليهم والمراد أن يمكن في قلوبهم قبول توبتهم والاعتداد بصدقاتهم، أو لغيرهم والمراد به التحضيض عليهما. أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبادِهِ إذا صحت وتعديته ب عَنْ لتضمنه معنى التجاوز. وَيَأْخُذُ الصَّدَقاتِ يقبلها قبول من يأخذ شيئاً ليؤدي بدله. وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ وأن من شأنه قبول توبة التائبين والتفضل عليهم.

[سورة التوبة (٩ : الآيات ١٠٥ الى ١٠٦]

وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلى عالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٠٥) وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٠٦)." [١]

"[سورة الملك (٦٧) : آية ٥]

وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِمَصابِيحَ وَجَعَلْناها رُجُوماً لِلشَّياطِينِ وَأَعْتَدْنا لَهُمْ عَذابَ السَّعِيرِ (٥)

---

(١) تفسير البيضاوي = أنوار التنزيل وأسرار التأويل ناصر الدين البيضاوي ٩٦/٣

وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا أقرب السموات إلى الأرض. بِمَصابِيحَ بالكواكب المضيئة بالليل إضاءة السرج فيها، والتنكير للتعظيم ولا يمنع ذلك كون بعض الكواكب مركوزة في سموات فوقها إذ التزيين بإظهارها فيها. وَجَعَلْناها رُجُوماً لِلشَّياطِينِ وجعلنا لها فائدة أخرى وهي رجم أعدائكم، والرجوم جمع رجم بالفتح وهو مصدر سمي به ما يرجم به بانقضاض الشهب المسببة عنها. وقيل معناه وجعلناها رجوماً وظنوناً لشياطين الإِنس وهم المنجمون. وَأَعْتَدْنا لَهُمْ عَذابَ السَّعِيرِ في الآخرة بعد الإِحراق بالشهب في الدنيا.

[سورة الملك (٦٧) : الآيات ٦ الى ٧]

وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٦) إِذا أُلْقُوا فِيها سَمِعُوا لَها شَهِيقاً وَهِيَ تَفُورُ (٧)

وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ من الشياطين وغيرهم. عَذابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ وقرئ بالنصب على أن لِلَّذِينَ عطف على لَهُمْ وعَذابُ على عَذابَ السَّعِيرِ.

إِذا أُلْقُوا فِيها سَمِعُوا لَها شَهِيقاً صوتاً كصوت الحمير. وَهِيَ تَفُورُ تغلي بهم غليان المرجل بما فيه.

[سورة الملك (٦٧) : الآيات ٨ الى ٩]

تَكادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّما أُلْقِيَ فِيها فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُها أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ (٨) قالُوا بَلى قَدْ جاءَنا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنا وَقُلْنا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ فِي ضَلالٍ كَبِيرٍ (٩)

تَكادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ تتفرق غيظاً عليهم، وهو تمثيل لشدة اشتعالها بهم، ويجوز أن يراد غيظ الزبانية. كُلَّما أُلْقِيَ فِيها فَوْجٌ جماعة من الكفرة. سَأَلَهُمْ خَزَنَتُها أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ يخوفكم هذا العذاب وهو توبيخ وتبكيت. قالُوا بَلى قَدْ جاءَنا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنا وَقُلْنا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلالٍ كَبِيرٍ أي فكذبنا الرسل وأفرطنا في التكذيب حتى نفينا الإِنزال والإِرسال رأساً، وبالغنا في نسبتهم إلى الضلال، فالنذير إما بمعنى الجمع لأنه فعيل أو مصدر مقدر بمضاف أي أهل إنذار، أو منعوت به للمبالغة أو الواحد والخطاب له ولأمثاله على التغليب، أو إقامة تكذيب الواحد مقام تكذيب الكل، أو على أن المعنى قالت الأفواج قد جاء إلى كل فوج منا رسول من الله فكذبناهم وضللناهم، ويجوز أن يكون الخطاب من كلام الزبانية للكفار على إرادة القول فيكون الضلال ما كانوا عليه في الدنيا، أو عقابه الذي يكونون فيه.

[سورة الملك (٦٧) : الآيات ١٠ الى ١١]

وَقالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحابِ السَّعِيرِ (١٠) فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقاً لِأَصْحابِ السَّعِيرِ

(١١)
وَقالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ كلام الرسل فنقبله جملة من غير بحث وتفتيش اعتماداً على ما لاح من صدقهم بالمعجزات. أَوْ نَعْقِلُ فنتفكر في حكمه ومعانيه تفكر المستبصرين. مَا كُنَّا فِي أَصْحابِ السَّعِيرِ في عدادهم ومن جملتهم.

فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ حين لا ينفعهم، والاعتراف إقرار عن معرفة، والذنب لم يجمع لأنه في الأصل مصدر، أو المراد به الكفر. فَسُحْقاً لِأَصْحابِ السَّعِيرِ فأسحقهم الله سحقاً أبعدهم من رحمته، والتغليب للإيجاز والمبالغة والتعليل وقرأ الكسائي بالتثقيل.." [١]

"أما تفسير الآية: فقوله تعالى: وآخرون اعترفوا بذنوبهم قال أهل المعاني: الاعتراف عبارة عن الإقرار بالشيء ومعناه أنهم أقروا بذنبهم وفيه دقيقة وهي أنهم لم يعتذروا عن تخلفهم بأعذار باطلة كغيرهم من المنافقين ولكن اعترفوا على أنفسهم بذنوبهم وندموا على ما فعلوا.

فإن قلت: الاعتراف بالذنب هل يكون توبة أم لا؟

قلت: مجرد الاعتراف بالذنب لا يكون توبة فإذا اقترن الاعتراف بالندم على الماضي من الذنب والعزم على تركه في المستقبل يكون ذلك الاعتراف والندم توبة.

وقوله سبحانه وتعالى: خَلَطُوا عَمَلًا صالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً قيل: أراد بالعمل الصالح إقرارهم بالذنب وتوبتهم منه والعمل السيئ هو تخلفهم عن الجهاد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقيل: العمل الصالح هو خروجهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى سائر الغزوات والسيئ هو تخلفهم عنه في غزوة تبوك. وقيل: إن العمل الصالح يعم جميع أعمال البر والطاعة والسيئ ما كان ضده فعلى هذا تكون الآية في حق جميع المسلمين والحمل على العموم أولى وإن كان السبب مخصوصا بمن تخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك.

وروى الطبري عن أبي عثمان قال ما في القرآن آية أرجى عندي لهذه الأمة من قوله وآخرون اعترفوا بذنوبهم.

فإن قلت قد جعل كل واحد من العمل الصالح والسيئ مخلوطا فما المخلوط به.

قلت: إن الخلط عبارة عن الجمع المطلق فأما قولك خلطته فإنما يحسن في الموضع الذي يمتزج كل واحد من الخليطين بالآخر ويتغير به عن صفته الأصلية كقولك خلطت الماء باللبن وخلطت الماء واللبن فتنوب الواو عن الباء فيكون معنى الآية على هذا خلطوا عملا صالحا بآخر ذكره غالب المفسرين وأنكره

---

(١) تفسير البيضاوي = أنوار التنزيل وأسرار التأويل ناصر الدين البيضاوي ٥/٢٢٩

الإمام فخر الدين الرازي. وقال: اللائق بهذا الموضع الجمع المطلق لأن العمل الصالح والعمل السيئ إذا حصلا معا بقي كل واحد منهما على حاله كما هو مذهبنا فإن عندنا القول بالإحباط باطل فالطاعة تبقى موجبة للمدح والثواب والمعصية تبقى موجبة للذم والعقاب فقوله سبحانه وتعالى خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا فيه تنبيه على نفي القول بالمحابطة وأنه بقي كل واحد منهما كما كان من غير أن يتأثر أحدهما بالآخر فليس إلا الجمع المطلق.

وقال الواحدي: العرب تقول خالطت الماء باللبن وخلطت الماء واللبن كما تقول جمعت زيدا وعمرا. والواو في الآية أحسن من الباء لأنه أريد معنى الجمع لا حقيقة الخلط. ألا ترى أن العمل الصالح لا يختلط بالسيء كما يختلط الماء باللبن لكن قد يجمع بينهما وقوله سبحانه وتعالى: عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ قال ابن عباس وجمهور المفسرين: عسى من الله واجب والدليل عليه قوله سبحانه وتعالى: فعسى الله أن يأتي بالفتح وقد فعل ذلك. وقال أهل المعاني: لفظة عسى هنا تفيد الطمع والإشفاق لأنه أبعد من الاتكال والإهمال.

وقيل: إن الله سبحانه وتعالى لا يجب عليه شيء بل كل ما يفعله على سبيل التفضل والتطول والإحسان فذكر لفظة عسى التي هي للترجي والطمع حتى يكون العبد بين الترجي والإشفاق ولكن هو إلى نيل ما يرجوه منه أقرب لأنه ختم الآية بقوله إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ وهذا يفيد إنجاز الوعد قوله سبحانه وتعالى:

[سورة التوبة (٩): آية ١٠٣]

خُذْ مِنْ أَمْوالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِها وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٠٣)

خُذْ مِنْ أَمْوالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِها. قال ابن عباس: لما أطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا لبابة وصاحبيه انطلق أبو لبابة وصاحبه فأتوا بأموالهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: خذ أموالنا وتصدق بها عنا وصل علينا يريدون." (١)

"إليه فرحمهم ثم تاب عليهم وإنما حسن هذا الحذف لدلالة الكلام عليه وقوله ثم تاب عليهم تأكيد لقبول توبتهم لأنه قد ذكر توبتهم في قوله تعالى: وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا كما تقدم بيانه وأنه عطف على قوله لَقَدْ تابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهاجِرِينَ وَالْأَنْصارِ أي وتاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار أي وتاب الله على الثلاثة الذين خلفوا.

---

(١) تفسير الخازن لباب التأويل في معاني التنزيل الخازن ٢/٢٤٠.

وقوله تعالى: لِيَتُوبُوا معناه: أن الله سبحانه وتعالى تاب عليهم في الماضي ليكون ذلك داعيا لهم إلى التوبة في المستقبل فيرجعوا ويداوموا عليها وقيل إن أصل التوبة الرجوع ومعناه ثم تاب عليهم ليرجعوا إلى حالتهم الأولى يعني إلى عادتهم في الاختلاط بالناس ومكالمتهم فتسكن نفوسهم بذلك إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ يعني على عباده الرَّحِيمُ بهم وفيه دليل على أن قبول التوبة بمحض الرحمة والكرم والفضل والإحسان وأنه لا يجب على الله تعالى شيء.

قوله عز وجل: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ يعني في مخالفة الرسول صلى الله عليه وسلم وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ يعني مع من صدق النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه في الغزوات ولا تكونوا مع المتخلفين من المنافقين الذين قعدوا في البيوت وتركوا الغزو. وقال سعيد بن جبير: مع الصادقين يعني مع أبي بكر وعمر. قال ابن جريج: مع المهاجرين.

وقال ابن عباس: مع الذين صدقت نياتهم واستقامت قلوبهم وأعمالهم وخرجوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى تبوك بإخلاص نية. وقيل: كونوا مع الذين صدقوا في **الاعتراف بالذنب** وهم يعتذرون بالأعذار الباطلة الكاذبة وهذه الآية تدل على فضيلة الصدق لأن الصدق يهدي إلى الجنة والكذب إلى الفجور كما ورد في الحديث. وقال ابن مسعود: الكذب لا يصلح في جد ولا هزل ولا أن يعد أحدكم صاحبه شيئا ثم لا ينجزه اقرءوا إن شئتم وكونوا مع الصادقين.

وروي أن أبا بكر الصديق احتج بهذه الآية على الأنصار في يوم السقيفة وذلك أن الأنصار قالوا: منا أمير ومنكم أمير فقال أبو بكر: يا معشر الأنصار إن الله سبحانه وتعالى يقول في كتابه للفقراء المهاجرين إلى قوله أولئك هم الصادقون من هم قالت الأنصار: أنتم هم فقال أبو بكر: إن الله تعالى يقول: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ فأمركم أن تكونوا معنا ولم يأمرنا أن نكون معكم نحن الأمراء وأنتم الوزراء وقيل مع بمعنى من والمعنى يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا من الصادقين قوله سبحانه وتعالى: ما كانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ يعني لساكني المدينة من المهاجرين والأنصار: وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرابِ يعني سكان البوادي من مزينة وجهينة وأسلم وأشجع وغفار وقيل: هو عام في كل الأعراب لأن اللفظ عام وحمله على العموم أولى أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ يعني إذا غزا وهذا ظاهر خبر ومعناه النهي أي ليس لهم أن يتخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وَلا يَرْغَبُوا يعني ولا أن يرغبوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ يعني ليس لهم أن يكرهوا لأنفسهم ما يختاره رسول الله صلى الله عليه وسلم ويرضاه لنفسه ولا يختاروا لأنفسهم الخفض والدعة ويتركوا مصاحبته والجهاد معه في حال الشدة والمشقة وقال الحسن: لا يرغبوا بأنفسهم أن يصيبهم من

الشدائد فيختاروا الخفض والدعة ورسول الله صلى الله عليه وسلم في مشقة السفر ومقاساة التعب ذلِكَ بِأَنَّهُمْ لا يُصِيبُهُمْ في سفرهم وغزواتهم ظَمَأٌ أي عطش وَلا نَصَبٌ أي تعب وَلا مَخْمَصَةٌ يعني مجاعة شديدة فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَطَؤُنَ مَوْطِئاً يَغِيظُ الْكُفَّارَ يعني ولا يضعون قدما على الأرض يكون ذلك القدم سببا لغيظ الكفار وغمهم وحزنهم وَلا يَنالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا يعني أسرا أو قتلا أو هزيمة أو غنيمة أو نحو ذلك قليلا كان أو كثيرا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صالِحٌ يعني إلا كتب الله لهم بذلك ثواب عمل صالح قد ارتضاه لهم وقبله منهم إِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ يعني أن الله سبحانه وتعالى لا يدع محسنا من خلقه قد أحسن في عمله وأطاعه فيما أمره به أو نهاه عنه أن يجازيه على إحسانه وعمله الصالح وفي الآية دليل." (١)

"قال الزجاج: إسماع صوت الزينة أشد تحريكا للشهوة من إبدائها.

وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ التوبة واجبة على كل مؤمن مكلف بدليل الكتاب والسنة وإجماع الأمة، وفرائضها ثلاثة: الندم على **الذنب** من حيث عصي به ذو الجلال، لا من حيث أضر ببدن أو مال، والإقلاع عن **الذنب** في أول أوقات الإمكان من غير تأخير ولا توان، والعزم أن لا يعود إليها أبدا ومهما قضى عليه بالعود أحدث عزما مجدّدا، وآدابها ثلاثة:

الاعتراف بالذنب مقرونا بالانكسار، والإكثار من التضرع والاستغفار، والإكثار من الحسنات لمحو ما تقدم من السيئات، ومراتبها سبع: فتوبة الكفار من الكفر، وتوبة المخلطين من الذنوب الكبائر، وتوبة العدول من الصغائر وتوبة العابدين من الفترات، وتوبة السالكين من علل القلوب والآفات، وتوبة أهل الورع من الشبهات، وتوبة أهل المشاهدة من الغفلات. والبواعث على التوبة سبعة: خوف العقاب، ورجاء الثواب، والخجل من الحساب، ومحبة الحبيب، ومراقبة الرقيب القريب، وتعظيم بالمقام، وشكر الإنعام.

وَأَنْكِحُوا الْأَيامى مِنْكُمْ الأيامى جمع أيّم ومعناه الذين لا أزواج لهم رجالا كانوا أو نساء أبكارا أو ثيبات، والخطاب هنا للأولياء والحكام أمرهم الله بتزويج الأيامى، فاقتضى ذلك النهي عن عضلهن من التزويج، وفي الآية دليل على عدم استقلال النساء بالإنكاح واشتراط الولاية فيه، وهو مذهب مالك والشافعي خلافا لأبي حنيفة وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبادِكُمْ وَإِمائِكُمْ يعني الذين يصلحون للتزويج من ذكور العبيد وإناثهم، وقال الزمخشري: الصالحين بمعنى الصلاح في الدين، قال وإنما خصهم الله بالذكر ليحفظ عليهم صلاحهم والمخاطبون هنا ساداتهم ومذهب الشافعي أن السيد يجبر على تزويج عبيده على هذه الآية خلافا لمالك، ومذهب مالك أن السيد يجبر عبده وأمته على النكاح خلافا للشافعي إِنْ يَكُونُوا فُقَراءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ

---

(١) تفسير الخازن لباب التأويل في معاني التنزيل الخازن ٤١٩/٢

وعد الله بالغنى للفقراء الذين يتزوجون لطلب رضا الله، ولذلك قال ابن مسعود: التمسوا الغنى في النكاح وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لا يَجِدُونَ نِكاحاً حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ أمر بالاستعفاف وهو الاجتهاد في طلب العفة من الحرام لمن لا يقدر على التزوج، فقوله: لا يَجِدُونَ نِكاحاً معناه لا يجدون استطاعة على التزوج بأي وجه تعذر التزوج، وقيل: معناه لا يجدون صداقا للنكاح، والمعنى الأول أعم، والثاني: أليق بقوله حتى يغنيهم الله من فضله.

وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ فَكاتِبُوهُمْ الكتاب هنا مصدر بمعنى الكتابة، وهي مقاطعة العبد على مال منجم فإذا أدّاه خرج حرّا، وإن عجز بقي رقيقا، وقيل: إن الآية نزلت بسبب حويطب ابن عبد العزى سأل مولاه أن يكاتبه فأبى عليه، وحكمها مع ذلك عام فأمر الله سادات العبيد أن يكاتبوهم إذا طلبوا الكتابة، وهذا الأمر على الندب عند مالك والجمهور، وقال الظاهرية وغيرهم. هو على الوجوب وذلك ظاهر قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه لأنس بن مالك حين سأله مملوكه سيرين الكتابة فتلكأ أنس، فقال له عمر: لتكاتبنه أو لأوجعنك." (١)

"هَذِهِ السُّورَةُ مَكِّيَّةٌ. وَانْفِطَارُهَا تَقَدَّمَ الْكَلَامُ فِيهِ، وَانْتِثَارُ الْكَوَاكِبِ: سُقُوطُهَا مِنْ مَوَاضِعِهَا كَالنِّظَامِ. وَقَرَأَ الْجُمْهُورُ: فُجِّرَتْ بتشديد الجيم ومجاهد وَالرَّبِيعُ بْنُ خَيْثَمٍ وَالزَّعْفَرَانِيُّ وَالثَّوْرِيُّ: بِخَفِّهَا، وَتَفْجِيرُهَا مِنَ امْتِلَائِهَا، فَتُفَجَّرُ مِنْ أَعْلَاهَا وَتَفِيضُ عَلَى مَا يَلِيهَا، أَوْ مِنْ أَسْفَلِهَا فَيُذْهِبُ اللَّهُ مَاءَهَا حَيْثُ أَرَادَ. وَعَنْ مُجَاهِدٍ: فَجَرَتْ مَبْنِيًّا لِلْفَاعِلِ مُخَفَّفًا بِمَعْنَى: بَغَتْ لِزَوَالِ الْبَرْزَخِ نَظَرًا إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: لَا يَبْغِيانِ»

، لأن البغي والفجور مُتَقَابِلَانِ. بُعْثِرَتْ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: بُحِثَتْ. وَقَالَ السُّدِّيُّ: أُثِيرَتْ لِبَعْثِ الْأَمْوَاتِ. وَقَالَ الْفَرَّاءُ: أُخْرِجَ مَا فِي بَطْنِهَا مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ. وَقَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ: بَعْثَرَ وَبَحْثَرَ بِمَعْنًى وَاحِدٍ، وَهُمَا مُرَكَّبَانِ مِنَ الْبَعْثِ وَالْبَحْثِ مَعَ رَاءٍ مَضْمُومَةٍ إِلَيْهِمَا، وَالْمَعْنَى: بُحِثَتْ وَأُخْرِجَ مَوْتَاهَا. وَقِيلَ: لِبَرَاءَةَ الْمُبَعْثِرَةُ، لِأَنَّهَا بَعْثَرَتْ أَسْرَارَ الْمُنَافِقِينَ. انْتَهَى. فَظَاهِرُ قَوْلِهِ أَنَّهُمَا مُرَكَّبَانِ أَنَّ مَادَّتَهُمَا مَا ذُكِرَ، وَأَنَّ الرَّاءَ ضُمَّتْ إِلَى هَذِهِ الْمَادَّةِ، وَالْأَمْرُ لَيْسَ كَمَا يَقْتَضِيهِ كَلَامُهُ، لِأَنَّ الرَّاءَ لَيْسَتْ مِنْ حُرُوفِ الزِّيَادَةِ، بَلْ هُمَا مَادَّتَانِ مُخْتَلِفَتَانِ وَإِنِ اتَّفَقَا مِنْ حَيْثُ الْمَعْنَى. وَأَمَّا أَنَّ إِحْدَاهُمَا مُرَكَّبَةٌ مِنْ كَذَا فَلَا، وَنَظِيرُهُ قَوْلُهُمْ: دَمِثٌ وَدِمَثْرٌ وَسَبِطٌ وَسِبَطْرٌ.

مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ: تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى شَبَهِهِ فِي سُورَةِ الْقِيَامَةِ وَقَرَأَ الْجُمْهُورُ: مَا غَرَّكَ، فَمَا اسْتِفْهَامِيَّةٌ. وَقَرَأَ ابْنُ جُبَيْرٍ وَالْأَعْمَشُ: مَا أَغَرَّكَ بهمزة، فَاحْتَمَلَ أَنْ يَكُونَ تَعَجُّبًا، وَاحْتُمِلَ أَنْ تَكُونَ مَا اسْتِفْهَامِيَّةً، وَأَغَرَّكَ بِمَعْنَى أَدْخَلَكَ في الغرة. وَقَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ: مِنْ قَوْلِكَ غَرَّ الرَّجُلُ فَهُوَ غَارٌّ. إِذَا غَفَلَ مِنْ قَوْلِكَ بَيْنَهُمُ الْعَدُوُّ

(١) تفسير ابن جزي = التسهيل لعلوم التنزيل ابن جزي الكلبي ٦٨/٢

وَهُمْ غَارُّونَ، وَأَغَرَّهُ غَيْرُهُ: جَعَلَهُ غَارًّا. انْتَهَى.
وَرُوِيَ أَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَرَأَ: مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ، فَقَالَ: جَهْلُهُ
وَقَالَهُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ وَقَرَأَ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا، وَهَذَا يَتَرَتَّبُ فِي الْكَافِرِ وَالْعَاصِي. وَقَالَ قَتَادَةُ: عَدُوُّهُ الْمُسَلَّطُ عَلَيْهِ، وَقِيلَ: سَتْرُ اللَّهِ عَلَيْهِ.
وَقِيلَ: كَرَمُ اللَّهِ وَلُطْفُهُ يُلَقِّنُ هَذَا الْجَوَابَ، فَهَذَا لُطْفٌ بِالْعَاصِي الْمُؤْمِنِ. وَقِيلَ: عَفْوُهُ عَنْهُ إِنْ لَمْ يُعَاقِبْهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ. وَقَالَ الْفُضَيْلُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: سِتْرُهُ الْمُرَخَى. وَقَالَ ابْنُ السِّمَاكِ:
يَا كَاتِمَ **الذَّنْبِ** أَمَا تَسْتَحِي ... وَاللَّهُ فِي الْخَلْوَةِ رَائِيكَا
غَرَّكَ مِنْ رَبِّكَ إِمْهَالُهُ ... وَسَتْرُهُ طُولَ مَسَاوِيكَا
وَقَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ: فِي جَوَابِ الْفُضَيْلِ، وَهَذَا عَلَى سَبِيلِ **الِاعْتِرَافِ بِالْخَطَأِ**.
بِالِاغْتِرَارِ: بِالسَّتْرِ، وَلَيْسَ بِاعْتِذَارٍ كَمَا يَظُنُّهُ الطَّمَّاعُ، وَيَظُنُّ بِهِ قُصَّاصُ الْحَشْوِيَّةِ، ويروون

(١) سورة الرحمن: ٥٥/ ٢٠.." (١)
"الْجِهَادُ الَّذِي يُؤْمَرُونَ بِهِ قَسْرًا لِأَنَّهُمْ يَرَوْنَ ذَلِكَ عَذَابًا. وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: مَرَّتَيْنِ هُمَا عَذَابُ الدُّنْيَا بِالْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كُلُّ صِنْفٍ عَذَابٌ فَهُوَ مَرَّتَانِ، وَقَرَأَ فَلَا تُعْجِبْكَ «١» الْآيَةَ. وَقِيلَ:
إِحْرَاقُ مَسْجِدِ الضِّرَارِ، وَالْآخَرُ إِحْرَاقُهُمْ بِنَارِ جَهَنَّمَ. وَلَا خِلَافَ أَنَّ قَوْلَهُ: إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ هُوَ عَذَابُ الْآخِرَةِ وَفِي مُصْحَفِ أَنَسٍ سَيُعَذِّبُهُمْ بِالْيَاءِ، وَسَكَّنَ عَيَّاشٌ عن أبي عمر والياء.
وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ: نَزَلَتْ فِي عَشَرَةِ رَهْطٍ تَخَلَّفُوا عَنْ غَزْوَةِ تَبُوكَ فَلَمَّا دَنَا الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْمَدِينَةِ أَوْثَقَ سَبْعَةً مِنْهُمْ. وَقِيلَ: كَانُوا ثَمَانِيَةً مِنْهُمْ: كَرْدَمُ، وَمِرْدَاسُ، وَأَبُو قَيْسٍ، وَأَبُو لُبَابَةَ. وَقِيلَ: سَبْعَةٌ. وَقِيلَ: سِتَّةٌ أَوْثَقَ ثَلَاثَةٌ مِنْهُمْ أَنْفُسَهُمْ بِسَوَارِي الْمَسْجِدِ، فِيهِمْ أَبُو لُبَابَةَ. وَقِيلَ: كَانُوا خَمْسَةً. وَقِيلَ: ثَلَاثَةٌ أَبُو لُبَابَةَ بْنُ عَبْدِ الْمُنْذِرِ، وَأَوْسُ بْنُ ثَعْلَبَةَ، وَوَدِيعَةُ بْنُ خِذَامٍ الْأَنْصَارِيُّ.
وَقِيلَ: نَزَلَتْ فِي أَبِي لُبَابَةَ وَحْدَهُ. وَيَبْعُدُ ذَلِكَ مِنْ لَفْظِ وَآخَرُونَ، لِأَنَّهُ جَمْعٌ، فَدَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمَسْجِدَ حِينَ قَدِمَ فَصَلَّى فِيهِ رَكْعَتَيْنِ، وَكَانَتْ عَادَتَهُ كُلَّمَا قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ، فَرَآهُمْ مُوَثَّقِينَ فَسَأَلَ عَنْهُمْ: فَذَكَرُوا أَنَّهُمْ أَقْسَمُوا لَا يَحُلُّونَ أَنْفُسَهُمْ حَتَّى يَكُونَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هُوَ الَّذِي يَحُلُّهُمْ، فَقَالَ

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيان الأندلسي ٤٢١/١٠

رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَأَنَا أقسم أن لا أحلهم حتى أومر فِيهِمْ، رَغِبُوا عَنِّي، وَتَخَلَّفُوا عَنِ الْغَزْوِ مَعَ الْمُسْلِمِينَ» فَنَزَلَتْ

، فَأَطْلَقَهُمْ وَعَذَرَهُمْ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: نَزَلَتْ فِي أَبِي لُبَابَةَ فِي شَأْنِهِ مَعَ بَنِي قُرَيْظَةَ حِينَ اسْتَشَارُوهُ فِي النُّزُولِ عَلَى حُكْمِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، فَأَشَارَ هُوَ لَهُمْ إِلَى حَلْقِهِ يُرِيدُ أَنَّ الرَّسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَذْبَحُهُمْ إِنْ نَزَلُوا، فَلَمَّا افْتَضَحَ تَابَ وَنَدِمَ، وَرَبَطَ نَفْسَهُ فِي سَارِيَةٍ فِي الْمَسْجِدِ، وَأَقْسَمَ أن لا يَطْعَمَ وَلَا يَشْرَبَ حَتَّى يَعْفُوَ اللَّهُ عَنْهُ أَوْ يَمُوتَ، فَمَكَثَ كَذَلِكَ حَتَّى عَفَا اللَّهُ عَنْهُ. وَالِاعْتِرَافُ: الْإِقْرَارُ **بِالذَّنْبِ** عَمَلًا صَالِحًا تَوْبَةً وَنَدَمًا، وَآخَرَ سَيِّئًا. أَيْ تَخَلُّفًا عَنْ هَذِهِ الْغَزَاةِ قَالَهُ: الطَّبَرِيُّ، أَوْ خُرُوجًا إِلَى الْجِهَادِ قَبْلُ. وَتَخَلُّفًا عَنْ هَذِهِ قَالَهُ: الْحَسَنُ وَغَيْرُهُ. أَوِ تَوْبَةً وَإِثْمًا قَالَهُ: الْكَلْبِيُّ.

وَعَطْفُ أَحَدِهِمَا عَلَى الْآخَرِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مَخْلُوطٌ وَمَخْلُوطٌ بِهِ، كَقَوْلِكَ:

خَلَطْتُ الْمَاءَ وَاللَّبَنَ، وَهُوَ بِخِلَافِ خَلَطْتُ الْمَاءَ بِاللَّبَنِ، فَلَيْسَ فِيهِ إِلَّا أَنَّ الْمَاءَ خُلِطَ بِاللَّبَنِ، قَالَ مَعْنَاهُ الزَّمَخْشَرِيُّ: وَمَتَى خلطت شيئا شيء صَدَقَ عَلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا أَنَّهُ مَخْلُوطٌ وَمَخْلُوطٌ بِهِ، مِنْ حَيْثُ مَدْلُولِيَّةُ الْخَلْطِ، لِأَنَّهَا أَمْرٌ نِسْبِيٌّ. قَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ: وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مِنْ قَوْلِهِمْ: بِعْتُ الشَّاءَ شَاةً وَدِرْهَمًا، بِمَعْنَى شاة بدرهم.

---

(١) سورة التوبة: ٩/ ٥٥.." (١)

"**وَالِاعْتِرَافُ بِالذَّنْبِ** دَلِيلٌ عَلَى التَّوْبَةِ، فَلِذَلِكَ قِيلَ: عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: عَسَى مِنَ اللَّهِ وَاجِبٌ انْتَهَى. وَجَاءَ بِلَفْظِ عَسَى لِيَكُونَ الْمُؤْمِنُ عَلَى وَجَلٍ، إِذْ لَفْظَةُ عَسَى طَمَعٌ وَإِشْفَاقٌ، فَأُبْرِزَتِ التَّوْبَةُ فِي صُورَتِهِ، ثُمَّ خَتَمَ ذَلِكَ بِمَا دَلَّ عَلَى قَبُولِ التَّوْبَةِ وَذَلِكَ، صِفَةُ الْغُفْرَانِ وَالرَّحْمَةِ. وَهَذِهِ الْآيَةُ وَإِنْ نَزَلَتْ فِي نَاسٍ. مَخْصُوصِينَ فَهِيَ عَامَّةٌ فِي الْأُمَّةِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ. وَقَالَ أَبُو عُثْمَانَ: مَا فِي الْقُرْآنِ آيَةٌ أَرْجَى عِنْدِي لِهَذِهِ الْأُمَّةِ مِنْ قَوْلِهِ:

وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ.

وَفِي حَدِيثِ الْإِسْرَاءِ وَالْمِعْرَاجِ مِنْ تَخْرِيجِ الْبَيْهَقِيِّ: أَنَّ الَّذِينَ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا وَتَابُوا رَآهُمُ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَوْلَ إِبْرَاهِيمَ، وَفِي أَلْوَانِهِمْ شَيْءٌ، وَأَنَّهُمْ خُلِطَتْ أَلْوَانُهُمْ بَعْدَ اغْتِسَالِهِمْ فِي أَنْهُرٍ ثَلَاثَةٍ، وَجَلَسُوا إِلَى أَصْحَابِهِمُ الْبِيضِ الْوُجُوهِ.

---

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيّان الأندلسي ٥/٤٩٨

خُذْ مِنْ أَمْوالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِها وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ: الْخِطَابُ لِلرَّسُولِ، وَالضَّمِيرُ عَائِدٌ عَلَى الَّذِينَ خَلَطُوا

قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ هَذِهِ أَمْوَالُنَا الَّتِي خَلَّفَتْنَا عَنْكَ فَتَصَدَّقْ بِهَا وَطَهِّرْنَا، فَقَالَ: «مَا أُمِرْتُ أَنْ آخُذَ مِنْ أَمْوَالِكُمْ شَيْئًا» فَنَزَلَتْ.

فَيُرْوَى أَنَّهُ أَخَذَ ثُلُثَ أَمْوَالِهِمْ مُرَاعَاةً لِقَوْلِهِ: خُذْ مِنْ أَمْوالِهِمْ.

والَّذِي تَظَاهَرَتْ بِهِ أَقْوَالُ الْمُتَأَوِّلِينَ ابْنِ عَبَّاسٍ وَغَيْرِهِ: أَنَّهَا فِي هَؤُلَاءِ الْمُتَخَلِّفِينَ، وَقَالَ جَمَاعَةٌ مِنَ الْفُقَهَاءِ: الْمُرَادُ بِهَذِهِ الْآيَةِ الزَّكَاةُ الْمَفْرُوضَةُ. فَقَوْلُهُ: عَلَى هَذَا مِنْ أَمْوالِهِمْ هُوَ لِجَمِيعِ الْأَمْوَالِ، وَالنَّاسُ عَامٌّ يُرَادُ بِهِ الْخُصُوصُ فِي الْأَمْوَالِ، إِذْ يَخْرُجُ عَنْهُ الْأَمْوَالُ الَّتِي لَا زَكَاةَ فِيهَا كَالرِّبَاعِ وَالثِّيَابِ. وَفِي الْمَأْخُوذِ مِنْهُمْ كالعبيد، وصدقة مُطْلَقٌ، فَتَصْدُقُ بِأَدْنَى شَيْءٍ. وَإِطْلَاقُ ابْنُ عَطِيَّةَ عَلَى أَنَّهُ مُجْمَلٌ فَيَحْتَاجُ إِلَى تَفْسِيرٍ لَيْسَ بِجَيِّدٍ. وَفِي قَوْلِهِ: خُذْ، دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْإِمَامَ هُوَ الَّذِي يَتَوَلَّى أَخْذَ الصَّدَقَاتِ وَيَنْظُرُ فيها. ومن أموالهم: متعلق بخذ وتطهرهم، وتزكيهم حَالٌ مِنْ ضَمِيرِ خُذْ، فَالْفَاعِلُ ضَمِيرُ خُذْ. وَأَجَازُوا أَنْ يَكُونَ مِنْ أَمْوالِهِمْ فِي مَوْضِعِ الْحَالِ، لِأَنَّهُ لَوْ تَأَخَّرَ لَكَانَ صِفَةً، فَلَمَّا تَقَدَّمَ كَانَ حَالًا، وَأَجَازُوا أَنْ يَكُونَ تُطَهِّرُهُمْ صِفَةً، وَأَنْ يَكُونَ اسْتِئْنَافًا، وَأَنْ يَكُونَ ضَمِيرُ تُطَهِّرُهُمْ عَائِدًا عَلَى صَدَقَةٍ، وَيَبْعُدُ هذا العطف، وتزكيهم فيختلف الضمير أن، فَأَمَّا مَا حَكَى مَكِّيٌّ مِنْ أَنَّ تُطَهِّرُهُمْ صِفَةٌ للصدقة وتزكيهم حَالٌ مِنْ فَاعِلِ خُذْ، فَقَدْ رُدَّ بِأَنَّ الْوَاوَ لِلْعَطْفِ، فَيَكُونُ التَّقْدِيرُ: صَدَقَةً مُطَهِّرَةً وَمُزَكِّيًا بِهَا، وَهَذَا فَاسِدُ الْمَعْنَى، وَلَوْ كَانَ بِغَيْرِ وَاوٍ جَازَ انْتَهَى. وَيَصِحُّ عَلَى تَقْدِيرِ مُبْتَدَأٍ مَحْذُوفٍ، وَالْوَاوُ لِلْحَالِ أَيْ:

وَأَنْتَ تُزَكِّيهِمْ، لَكِنَّ هَذَا التَّخْرِيجَ ضَعِيفٌ لِقِلَّةِ نَظِيرِهِ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ. وَالتَّزْكِيَةُ مُبَالَغَةٌ فِي التَّطَهُّرِ وَزِيَادَةٌ فِيهِ، أَوْ بِمَعْنَى الْإِنْمَاءِ وَالْبَرَكَةِ فِي الْمَالِ. وَقَرَأَ الْحَسَنُ: تُطَهِّرُهُمْ مِنْ أَطْهَرَ وَاطَّهَّرَ وَطَهَّرَ لِلتَّعْدِيَةِ مَنْ طَهُرَ. وَصَلِّ عَلَيْهِمْ أَيْ ادْعُ لَهُمْ، أَوِ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ، أَوْ صَلِّ عَلَيْهِمْ إِذَا." (١)

"مَعَ مَا صَنَعَتْ بِهِ وَتَسَبَّبَتْ فِيهِ مِنَ السِّجْنِ وَالْعَذَابِ، وَاقْتَصَرَ عَلَى ذِكْرِ الْمُقَطِّعَاتِ الْأَيْدِي.

وَقَرَأَ أَبُو حَيْوَةَ وَأَبُو بَكْرٍ عَنْ عَاصِمٍ فِي رِوَايَةِ النُّسْوَةِ بِضَمِّ النُّونِ، وَقَرَأَتْ فِرْقَةٌ اللاي بِالْيَاءِ، وَكِلَاهُمَا جَمْعُ الَّتِي. إِنَّ رَبِّي أَيْ: إِنَّ اللَّهَ بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ. أَرَادَ أَنَّ كَيْدَهُنَّ عَظِيمٌ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ لِبُعْدِ غَوْرِهِ، وَاسْتَشْهَدَ بِعِلْمِ اللَّهِ عَلَى أَنَّهُنَّ كِدْنَهُ، وَأَنَّهُ بَرِيءٌ مِمَّا قُذِفَ بِهِ. أَوْ أَرَادَ الْوَعِيدَ لَهُنَّ، أَوْ هُوَ عَلِيمٌ بِكَيْدِهِنَّ فَيُجَازِيهِنَّ عَلَيْهِ. وَقَالَ ابْنُ عَطِيَّةَ: وَيُحْتَمَلُ أَنْ يُرِيدَ بِالرَّبِّ الْعَزِيزَ مَوْلَاهُ، فَفِي ذَلِكَ اسْتِشْهَادٌ بِهِ وَتَقْرِيعٌ. وَمَا ذَكَرَهُ ابْنُ عَطِيَّةَ

---

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيّان الأندلسي ٥/٤٩٩

مِنْ هَذَا الِاحْتِمَالِ لَا يَسُوغُ، وَالضَّمِيرُ فِي بِكَيْدِهِنَّ عَائِدٌ عَلَى النِّسْوَةِ الْمَذْكُورَاتِ لَا لِلْجِنْسِ، لِأَنَّهَا حَالَةُ تَوْقِيفٍ عَلَى ذَنْبٍ. قَالَ: مَا خَطْبُكُنَّ فِي الْكَلَامِ حَذْفٌ تَقْدِيرُهُ: فَرَجَعَ الرَّسُولُ فَأَخْبَرَهُ بِمَا قَالَ يُوسُفُ، فَجَمَعَ الْمَلِكُ النِّسْوَةَ وَامْرَأَةَ الْعَزِيزِ وَقَالَ لَهُنَّ: مَا خَطْبُكُنَّ؟ وَهَذَا اسْتِدْعَاءٌ مِنْهُ أَنْ يُعْلِمْنَهُ بِالْقِصَّةِ، وَنَزَّهَ جَانِبَ يُوسُفَ بِقَوْلِهِ: إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ، وَمُرَاوَدَتُهُنَّ لَهُ قَوْلُهُنَّ لِيُوسُفَ: أَطِعْ مَوْلَاتَكَ. وَقَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ: هَلْ وَجَدْتُنَّ مِنْهُ مَيْلًا؟ لَكُنَّ قُلْنَ: حَاشَ لِلَّهِ تَعَجُّبًا مِنْ عِفَّتِهِ، وَذَهَابِهِ بِنَفْسِهِ عَنْ شَيْءٍ مِنَ الرِّيبَةِ، وَمِنْ نَزَاهَتِهِ عَنْهَا. وَقَالَ ابْنُ عَطِيَّةَ: أَجَابَ النِّسَاءُ بِجَوَابٍ جَيِّدٍ تَظْهَرُ مِنْهُ بَرَاءَةُ أَنْفُسِهِنَّ جُمْلَةً، وَأَعْطَيْنَ يُوسُفَ بَعْضَ بَرَاءَةٍ، وَذَلِكَ أَنَّ الْمَلِكَ لَمَّا قَرَّرَهُنَّ أَنَّهُنَّ رَاوَدْنَهُ قُلْنَ جَوَابًا عَنْ ذَلِكَ: حَاشَ لِلَّهِ. وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُنَّ: حَاشَ لِلَّهِ، فِي جِهَةِ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ. وَقَوْلُهُنَّ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ لَيْسَ بِإِبْرَاءٍ تَامٍّ، وَإِنَّمَا كَانَ الْإِبْرَاءُ التَّامُّ وَصْفُ الْقِصَّةِ عَلَى وَجْهِهَا حَتَّى يَتَقَرَّرَ الْخَطَأُ فِي جِهَتِهِنَّ، فَلَمَّا سَمِعَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ مَقَالَتَهُنَّ وَحَيْدَتَهُنَّ عَنِ الْوُقُوعِ فِي الْخِزْيِ قَالَتْ: الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ.

وقرىء حُصْحِصَ عَلَى الْبِنَاءِ لِلْمَفْعُولِ، أَقَرَّتْ عَلَى نَفْسِهِا بِالْمُرَاوَدَةِ، وَالْتَزَمَتِ **الذَّنْبَ**، وَأَبْرَأَتْ يُوسُفَ الْبَرَاءَةَ التَّامَّةَ.

ذلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخائِنِينَ. وما أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ: الظَّاهِرُ أَنَّ هَذَا مِنْ كَلَامِ امْرَأَةِ الْعَزِيزِ وَهُوَ دَاخِلٌ تَحْتَ قَوْلِهِ: قَالَتْ. وَالْمَعْنَى: ذَلِكَ الْإِقْرَارُ **وَالِاعْتِرَافُ بِالْحَقِّ**، لِيَعْلَمَ يُوسُفُ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ فِي غَيْبَتِهِ وَالذَّبِّ عَنْهُ، وَأَرْمِيهِ بِذَنْبٍ هُوَ مِنْهُ بَرِيءٌ. ثُمَّ اعْتَذَرَتْ عَمَّا وَقَعَتْ فِيهِ مِمَّا يَقَعُ فِيهِ الْبَشَرُ مِنَ الشَّهَوَاتِ بِقَوْلِهَا: وما أبرىء نَفْسِي، وَالنُّفُوسُ مَائِلَةٌ إِلَى الشَّهَوَاتِ أَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ. وَقَالَ الزمخشري: وما أبرىء نَفْسِي مَعَ ذَلِكَ مِنَ الْخِيَانَةِ فَإِنِّي قَدْ خُنْتُهُ حِينَ قَذَفْتُهُ وَقُلْتُ: مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ، وَأَوْدَعْتُهُ السِّجْنَ تُرِيدُ الِاعْتِذَارَ لِمَا كَانَ مِنْهَا أَنَّ كُلَّ نَفْسٍ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا نَفْسًا رَحِمَهَا اللَّهُ بِالْعِصْمَةِ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ." (١)

"﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (١٢) ﴾

قَالَ بَعْضُ النُّحَاةِ فِي تَوْجِيهِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَا [مَنَعَكَ] (١) أَلَا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ لَا هَاهُنَا زَائِدَةٌ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: زِيدَتْ لِتَأْكِيدِ الْجَحْدِ، كَقَوْلِ الشَّاعِرِ:

مَا إِنْ رأيتُ وَلَا سمعتُ بِمِثْلِهِ

فَأَدْخَلَ "إِنْ" وَهِيَ لِلنَّفْيِ، عَلَى "مَا" النَّافِيَةِ؛ لِتَأْكِيدِ النَّفْيِ، قَالُوا: وَكَذَلِكَ هَاهُنَا: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَا تَسْجُدَ﴾

---

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيّان الأندلسي ٦/٢٨٨

مَعَ تَقَدُّمِ قَوْلِهِ: ﴿لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾

حَكَاهُمَا ابْنُ جَرِيرٍ (٢) وَرَدَّهُمَا، وَاخْتَارَ أَنَّ "مَنَعَكَ" تَضَمَّنَ مَعْنَى فِعْلٍ آخَرَ تَقْدِيرُهُ: مَا أَحْوَجَكَ وَأَلْزَمَكَ وَاضْطَرَّكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ، وَنَحْوُ ذَلِكَ. وَهَذَا الْقَوْلُ قَوِيٌّ حَسَنٌ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُ إِبْلِيسَ لَعَنَهُ اللَّهُ: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾ مِنَ الْعُذْرِ الَّذِي هُوَ أَكْبَرُ مِنَ **الذَّنْبِ**، كَأَنَّهُ امْتَنَعَ مِنَ الطَّاعَةِ لِأَنَّهُ لَا يُؤْمَرُ الْفَاضِلُ بِالسُّجُودِ لِلْمَفْضُولِ، يَعْنِي لَعَنَهُ اللَّهُ: وَأَنَا خَيْرٌ مِنْهُ، فَكَيْفَ تَأْمُرُنِي بِالسُّجُودِ لَهُ؟ ثُمَّ بَيَّنَ أَنَّهُ خَيْرٌ مِنْهُ، بِأَنَّهُ خُلِقَ مِنْ نَارٍ، وَالنَّارُ أَشْرَفُ مِمَّا خَلَقْتَهُ مِنْهُ، وَهُوَ الطِّينُ، فَنَظَرَ اللَّعِينُ إِلَى أَصْلِ الْعُنْصُرِ، وَلَمْ يَنْظُرْ إِلَى التَّشْرِيفِ الْعَظِيمِ، وَهُوَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ آدَمَ بِيَدِهِ، وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ، وَقَاسَ قِيَاسًا فَاسِدًا فِي مُقَابَلَةِ نَصِّ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [ص:٧٢] فَشَذَّ مِنْ بَيْنِ الْمَلَائِكَةِ بِتَرْكِ السُّجُودِ؛ فَلِهَذَا (٣) أَبْلَسَ مِنَ الرَّحْمَةِ، أَيْ: أَيِسَ مِنَ الرَّحْمَةِ، فَأَخْطَأَ قَبَّحه اللَّهُ فِي قِيَاسِهِ وَدَعْوَاهُ أَنَّ النَّارَ أَشْرَفُ مِنَ الطِّينِ أَيْضًا، فَإِنَّ الطِّينَ مِنْ شَأْنِهِ الرَّزَانَةُ وَالْحِلْمُ وَالْأَنَاةُ وَالتَّثَبُّتُ، وَالطِّينُ مَحَلُّ النَّبَاتِ وَالنُّمُوِّ وَالزِّيَادَةِ وَالْإِصْلَاحِ. وَالنَّارُ مِنْ شَأْنِهَا الْإِحْرَاقُ وَالطَّيْشُ وَالسُّرْعَةُ؛ وَلِهَذَا خَانَ إِبْلِيسَ عُنْصُرُهُ، وَنَفَعَ آدَمَ عُنْصُرُهُ فِي الرُّجُوعِ وَالْإِنَابَةِ وَالِاسْتِكَانَةِ وَالِانْقِيَادِ وَالِاسْتِسْلَامِ لِأَمْرِ اللَّهِ، **وَالِاعْتِرَافِ وَطَلَبِ** التَّوْبَةِ وَالْمَغْفِرَةِ.

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ، عَنْ عَائِشَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "خُلِقَت الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ، وخُلق إِبْلِيسُ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ، وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ" هَكَذَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٤) .

وَقَالَ ابْنُ مَرْدُويه: حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَعْفَرٍ، حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ، حدثنا نُعيم ابن حَمَّادٍ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ، عَنْ مَعْمَر، عَنِ الزُّهْرِيِّ، عَنْ عُرْوَة، عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "خَلَقَ اللَّهُ الْمَلَائِكَةَ مِنْ نُورِ الْعَرْشِ، وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ [مَارِجٍ مِنْ] (٥) نَارٍ، وَخُلِقَ آدم

---

(١) زيادة من أ.

(٢) تفسير الطبري (١٢/٣٢٤) .

(٣) في م: "ولهذا".

(٤) صحيح مسلم برقم (٢٩٩٦) .

(٥) زيادة من أ.." [1]

---

(١) تفسير ابن كثير ت سلامة ابن كثير ٣/٩٢٣

"وَاحِدٍ مِنْهُمَا غُوَاةٌ مِنْ قَوْمِهِ –وَهُمُ (١) السُّفَهَاءُ –فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ. أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ. وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ .

. وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَكْثَرُ قَوْلِهِمْ يَكْذِبُونَ فِيهِ.

وَهَذَا الَّذِي قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، هُوَ الْوَاقِعُ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ؛ فَإِنَّ الشُّعَرَاءَ يَتبجّحون بِأَقْوَالٍ وَأَفْعَالٍ لَمْ تَصْدُرْ مِنْهُمْ وَلَا عَنْهُمْ، فَيَتَكَثَّرُونَ بِمَا لَيْسَ لَهُمْ؛ وَلِهَذَا اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ، رَحِمَهُمُ اللَّهُ، فِيمَا إِذَا اعْتَرَفَ الشَّاعِرُ فِي شِعْرِهِ بِمَا يُوجِبُ حَدًّا: هَلْ يُقَامُ عَلَيْهِ بِهَذَا **الِاعْتِرَافِ أَمْ** لَا لِأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ؟ عَلَى قَوْلَيْنِ. وَقَدْ ذَكَرَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ، وَمُحَمَّدُ بْنُ سَعْدٍ فِي الطَّبَقَاتِ، وَالزُّبَيْرُ بْنُ بَكَّار فِي كِتَابِ الْفُكَاهَةِ: أَنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، اسْتَعْمَلَ النُّعْمَانَ بْنَ عَدِيِّ بْنِ نَضْلَة عَلَى "مَيْسَانَ" – مِنْ أَرْضِ الْبَصْرَةِ –وَكَانَ يَقُولُ الشِّعْرَ، فَقَالَ:

أَلَا هَل أتَى الحَسْنَاءَ أَنَّ حَليلَها ... بِمَيْسَانَ، يُسقَى في زُجاج وَحَنْتَم ...

إذَا شِئْتُ غَنَّتْني دَهاقينُ قَرْيَة ... وَرَقَّاصَةٌ تَجذُو عَلَى كُلِّ مَنْسم (٢)

فإنْ كُنتَ نَدْمانِي فَبالأكْبر اسْقني ... وَلا تَسْقني بالأصْغَر المُتَثَلم (٣)

لَعَل أميرَ المؤمنينَ يَسُوءه ... تَنادُمُنا بالجَوْسَق المُتَهَدَم ...

فَلَمَّا بَلَغَ [ذَلِكَ] (٤) أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ قَالَ: أَيْ وَاللَّهِ، إِنَّهُ لَيَسُوءُنِي ذَلِكَ، وَمَنْ لَقِيَهُ فَلْيُخْبِرْهُ أَنِّي قَدْ عَزَلْتُهُ. وَكَتَبَ إِلَيْهِ: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿حم. تَنزيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ. غَافِرِ **الذَّنْبِ** وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لا إِلَهَ إِلا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [غَافِرِ:١–٣] أَمَّا بَعْدُ فَقَدْ بَلَغَنِي قَوْلُكَ:

لَعَلَّ أَمِيرَ الْمُؤمنينَ يَسُوءه ... تَنَادُمُنَا بالجَوْسق (٥) المُتَهَدّم ...

وَايْمُ اللَّهِ، إِنَّهُ لَيَسُوءُنِي وَقَدْ عَزَلْتُكَ. فَلَمَّا قَدِمَ عَلَى عُمَرَ بَكَّتَه بِهَذَا الشِّعْرِ، فَقَالَ: وَاللَّهِ –يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ – مَا شَرِبْتُهَا قَطّ، وَمَا ذَاكَ الشِّعْرُ إِلَّا شَيْءٌ طَفح عَلَى لِسَانِي. فَقَالَ عُمَرُ: أَظُنُّ ذَلِكَ، وَلَكِنْ وَاللَّهِ لَا تَعْمَلْ لِي عَلَى عَمَلٍ أَبَدًا، وَقَدْ قُلتَ مَا قلت (٦) .

فَلَمْ يُذكر أَنَّهُ حَدّه عَلَى الشَّرَابِ، وَقَدْ ضَمِنَهُ شِعْرُهُ؛ لِأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ، وَلَكِنَّهُ (٧) ذمَّه عُمَرُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَلَامَهُ عَلَى ذَلِكَ وَعَزَلَهُ بِهِ. وَلِهَذَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: "لَأَنْ يَمْتَلِئَ جَوْفُ أَحَدِكُمْ قَيْحًا، يَرِيه خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَمْتَلِئَ شِعْرًا" (٨) .

وَالْمُرَادُ مِنْ هَذَا: أَنَّ (٩) الرَّسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (١٠) الَّذِي أُنْزِلَ عَلَيْهِ (١١) الْقُرْآنُ لَيْسَ بِكَاهِنٍ وَلَا بِشَاعِرٍ؛

(١) في ف: "فهم".

(٢) في ف، أ: "مبسم".

(٣) في ف: "المتلثم".

(٤) زيادة من ف، أ.

(٥) في ف، أ: "في الجوسق".

(٦) الأبيات في السيرة النبوية لابن هشام (٢/٢٦٦) والطبقات الكبرى لابن سعد (٤/١٤٠) .

(٧) في ف: "ورکن".

(٨) رواه مسلم في صحيحه برقم (٢٢٥٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٩) في ف، أ: "أن هذا الرسول".

(١٠) في ف، أ: "صلوات الله وسلامه عليه".

(١١) في ف، أ: "عليه هذا القرآن".." (١)

"وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: هُوَ قَوْلُ الْقَائِلِ: إِنْ شَاءَ اللَّهُ. وَقِيلَ: مَعْنَاهُ: ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلا تُسَبِّحُونَ﴾ أَيْ: هَلَّا تُسَبِّحُونَ اللَّهَ وَتَشْكُرُونَهُ عَلَى مَا أَعْطَاكُمْ وَأَنْعَمَ بِهِ عَلَيْكُمْ، ﴿قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ أَتَوْا بِالطَّاعَةِ حَيْثُ لَا تَنْفَعُ، وَنَدِمُوا وَاعْتَرَفُوا حَيْثُ لَا يَنْجَعُ؛ وَلِهَذَا قَالُوا: ﴿إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلاوَمُونَ﴾ أَيْ: يَلُومُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا عَلَى مَا كَانُوا أَصَرُّوا عَلَيْهِ مِنْ مَنْعِ الْمَسَاكِينِ مِنْ حَقِّ الْجُذَاذِ، فَمَا كَانَ جَوَابُ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ إِلَّا **الِاعْتِرَافَ بِالْخَطِيئَةِ وَالذَّنْبِ**، ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ﴾ أَيِ: اعْتَدَيْنَا وبَغَينا وَطَغَيْنَا وَجَاوَزْنَا الْحَدَّ حَتَّى أَصَابَنَا مَا أَصَابَنَا، ﴿عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ﴾ قِيلَ: رَغِبُوا فِي بَذْلِهَا لَهُمْ فِي الدُّنْيَا. وَقِيلَ: احْتَسَبُوا ثَوَابَهَا فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

ثُمَّ قَدْ ذَكَرَ بَعْضُ السَّلَفِ أَنَّ هَؤُلَاءِ قَدْ كَانُوا مِنْ أَهْلِ الْيَمَنِ -قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: كَانُوا مِنْ قَرْيَةٍ يُقَالُ لَهَا ضَرَوَانُ (١) عَلَى سِتَّةِ أَمْيَالٍ مِنْ صَنْعَاءَ. وَقِيلَ: كَانُوا مِنْ أَهْلِ الْحَبَشَةِ-وَكَانَ أَبُوهُمْ قَدْ خَلَّفَ لَهُمْ هَذِهِ الْجَنَّةَ، وَكَانُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَقَدْ كَانَ أَبُوهُمْ يَسِيرُ فِيهَا سِيرَةً حَسَنَةً، فَكَانَ مَا اسْتَغَلَّهُ مِنْهَا يَرُدُّ فِيهَا مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهَا وَيَدَّخِرُ لِعِيَالِهِ قُوتَ سَنَتِهِمْ، وَيَتَصَدَّقُ بِالْفَاضِلِ. فَلَمَّا مَاتَ وَرِثَهُ بَنُوهُ، قَالُوا: لَقَدْ كَانَ أَبُونَا أحمق إِذْ كَانَ يَصْرِفُ مِنْ هَذِهِ شَيْئًا لِلْفُقَرَاءِ، وَلَوْ أَنَّا مَنَعْنَاهُمْ لَتَوَفَّرَ ذَلِكَ عَلَيْنَا. فَلَمَّا عَزَمُوا عَلَى ذَلِكَ عُوقِبوا بِنَقِيضِ

(١) تفسير ابن كثير ت سلامة ابن كثير ٦/١٧٤

قَصْدِهِمْ، فَأَذْهَبَ اللَّهُ مَا بأيديهم بالكلية، رأس المال الربح وَالصَّدَقَةَ، فَلَمْ يَبْقَ لَهُمْ شَيْءٌ.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿كَذَلِكَ الْعَذَابُ﴾ أَيْ: هَكَذَا عَذَابُ مَنْ خَالَفَ أَمْرَ اللَّهِ، وَبَخِلَ بِمَا آتَاهُ اللَّهُ وَأَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِ، وَمَنَعَ حَقَّ الْمِسْكِينِ وَالْفُقَرَاءِ (٢) وَذَوِي الْحَاجَاتِ، وَبَدَّلَ نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا ﴿وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ أَيْ: هَذِهِ عُقُوبَةُ الدُّنْيَا كَمَا سَمِعْتُمْ، وَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ. وَقَدْ وَرَدَ فِي حَدِيثٍ رَوَاهُ الْحَافِظُ الْبَيْهَقِيُّ مِنْ طَرِيقِ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ؛ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَهَى عَنِ الْجِدَادِ (٣) بِاللَّيْلِ، وَالْحَصَادِ بِاللَّيْلِ (٤) .

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٣٤) أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (٣٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٦) أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ (٣٧) إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ (٣٨) أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ (٣٩) سَلْهُمْ أَيُّهُمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ (٤٠) أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ (٤١) ﴾

---

(١) في أ: "جردان".

(٢) في أ: "حق المسكين والفقير".

(٣) في م، أ، هـ: "الجذاذ" بالذال وهو خطأ والمثبت من سنن البيهقي.

(٤) سنن البيهقي الكبرى (١٣٣/٤) والجداد –بالدال بالفتح والكسر– قال ابن الأثير في النهاية (٢٤٤/١) : "هي صرام النخل، وهو قطع ثمرتها، يقال: جد الثمرة يجدها جدا، وإنما نهى عن ذلك لأجل المساكين حتى يحضروا في النهار فيتصدق عليهم منه".." [١]

"وقال ابن جريج: مع المهاجرين، لقوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ الْمُهَاجِرِينَ﴾ [الحشر: ٨] إلى قوله ﴿أولئك هُمُ الصادقون﴾ [الحشر: ٨] .

وقال ابن عباس: مع الذين صدقت نياتهم؛ فاستقامت قلوبهم وأعمالهم، وخرجُوا مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى تبوك بإخلاصٍ ونيّة. وقيل: من الذين صدقوا في **الاعتراف بالذَّنب**، ولم يعتذروا بالأعذار الكاذبة.

فصل

دلَّت الآية على فضيلة الصِّدق، وكمال درجته، قال ابن مسعودٍ: إنَّ الكذب لا يصلحُ في جدٍّ ولا هزلٍ، ولا

---

(١) تفسير ابن كثير ت سلامة ابن كثير ١٩٧/٨

أن يعد أحدُكم صبيَّة شيئاً ثم لا ينجزُ له، اقرءوا إن شئتم، وقرأ الآية.

«وروي أنَّ رجلاً جاء إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقال: إنّي أريد أن أومن بك إلاَّ أنّي أحبُّ الزِّنا، والخمر، والسرقة، والكذب، والناس يقولون: إنك تُحرم هذه الأشياء، ولا طاقة لي على تركها بأسرهَا، فإن قنعت منّي بتركِ واحد منها آمنت بك، فقال عليه الصَّلاةُ والسَّلام:» فقبل ذلك ثُمَّ أسلم، فلمَّا خرج من عند النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عرضوا عليه الخمر، فقال: إن شربتُ الخمر فسألني رسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن شربها، وكذبت فقد نقضت العهد، وإن صدقتُ أقام الحدَّ عليَّ، فتركها، ثمَّ عرضوا عليه الزّنا؛ فجاء ذلك الخاطرُ، فتركه، وكذا في السرقة، فعاد إلى رسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقال: ما أحسن ما قلت، لمَّا منعتني من الكذب انسدت أبوابُ المعاصي عليَّ، «وتاب عن الكُلِّ وقال ابنُ مسعود:» عَلَيْكُم بالصِّدقِ فإنَّه يقربُ إلى البرِّ، والبرُّ يقرب إلى الجنَّة، وإنَّ العبْدَ ليصدق؛ فيكتب عند الله صدِّيقاً، وإياكم والكذبَ، فإنَّ الكذب يقربُ إلى الفُجُورِ، والفُجُورِ يُقرِّبُ إلى النار، وإن الرَّجُلَ ليكذب حتى يكتب عند الله كذَّاباً، ألا ترى أنه يقال: صَدَقْتَ، وبَرَرْتَ، وكذَبْتَ، وفَجَرْتَ «.

وقيل في قول إبليس: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ المخلصين﴾ [ص: ٨٢، ٨٣] إن إبليس لو لمْ يذكر هذا الاستثناء لصادر كاذباً في ادعاء إغواء الكلِّ، فكأنه استنكفَ عن الكذبِ؛ فذكر هذا الاستثناء، وإذا كان الكذبُ شيئاً يستنكفُ منه إبليس، فالمسلم أوْلَى أن يستنكفَ منه ومن فضائل الصِّدق أنَّ الإيمان منه لا من سائر الطَّاعات، ومن معايب الكذب أنَّ الكفر منه لا من سائر الذنوب.." (١)

"٢٢٩٧ – وإنّي لآتٍ مَا أتَيْتُ وَإِنَّنِي ... لِمَا اقْتَرَفَت نَفْسِي عَلَيَّ لَرَاهِبُ

وأصل القِرْفِ والاقْتِرَاف: قِشْرُ لحاء الشَّجر، والجِلْدَةُ من أعَلَى الحرج وا يؤخَذُ منه قَرف، ثُمَّ استُعِير الاقْتِرَاف للاكْتِسَاب حَسَناً كان، أو سِّئاً وفي السيّئ أكثر اسْتِعْمالاً وقارف فلان أمْراً: تَعَاطى ما يُعَاب به.

وقيل: **الاعْتراف يُزِيل** الاقْتِرَاف، ورجل مُقْرِف، أي: هجين: قال الشَّاعر: [الرمل]

٢٢٩٨ – كَمْ بِجُودٍ مُقْرِفٍ نَالَ العُلَى ... وشَرِيفٍ بُخْلُهُ قَدْ وَضَعَهْ

وقَرَفْتُه بكذا: اتَّهَمْتُه، أو عِبْتُه به، وقارف **الذَّنْب** وعَبَره، إذا أتَاه ولا صقَهُ، وقارف امْرَأتَهُ، وإذا جَامَعها، والمُقْتَرِف من الخَيْل: الهَجِين، وهو الَّذي أمُّه برذون، وأبُوه عَرَبِيّ.

وقيل: بالعَكْس.

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٢٣٥/١٠

وقيل: هُو الَّذي دان الهجنة وقَارَفَها، ومن حَدِيب عُمَر - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -: كتب إلى أبِي مُوسى في البَراذِين ما قَارفَ العِتَاق مِنْهَا، فأجْعَل لَهُ منهما واحِداً، أي: قَارَبَهَا ودَانَاهَا، نقله ابن الأثير.

فصل في تقدير الآية

قال ابن الخِطِيب [قال أصْحَابنا] تقدير الآية الكَرِيمة: وكذلِكَ جَعَلْنا لِكُلِّ نَبِيِّ عدوّاً من شَيَاطين الجِنِّ والإنْس، وصفته: أنَّه يُوحِي بَعْضُهم إلى بَعْض زُخْرُف القَوْل غَرُواً، وإنَّما فَعَلْنا ذلك لِتَصْغَى إلَيْه أفْئِدة الذين لا يُؤمِنُون بالآخرة أي: أوْجدنا العداوة في قَلْب الشَّيَاطين الذين من صفتهم ما ذَكَرْنَاهُ، ليكون كلامهم المُزَخْرَف مَقْبُولاً عند هؤلاء الكُفَّار.

قالوا: وإذ حَمَلْنا الآية على هذا الوَجْه، يظهر أنَّه - تبارك وتعالى - يُرِيد الكُفْر من الكَافِر.

أجاب المُعْتَزِلَة عنه من ثلاثة أوْجُه:

الأول: قال الجُبَّائي: إن هذا الكلام خرج مَخْرج الأمر، ومعناه: الزَّجْر؛ كقوله - تبارك وتعالى -: ﴿واستفزز مَنِ استطعت مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم﴾ [الإسراء: ٦٤] وكذا قوله: «وَلِيَرْضَوْه، ولِيقْتَرِفُوا» وتقدير الكلام: كأنَّه قال للرَّسُول - عليه السَّلام -: «فَذرْهُم." [١]

"سخطه، (إِلَّا إِلَيْهِ) بالتضرع والاستغفار، (ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ) وفقهم للتوبة أو رجع عليهم بالرحمة، (لِيَتُوبُوا) أو قبل توبتهم ليتوبوا في المستقبل إن صدر عنهم خطيئة أو تاب عليهم ليرجعوا إلى حالهم، (إِنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ) يقبل توبة العباد بمحض رحمته وهم كعب بن مالك ومرارة بن الربيع العامري وهلال بن أمية الواقفى.

* * *

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ (١١٩) مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١٢٠) وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢١) وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ (١٢٢)

* * *

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٣٩١/٨

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ) في نياتهم وأعمالهم أو في **الاعتراف بالذنب** لا كمن اعتذر بالأكاذيب والخطاب لأهل الكتاب، أي: كونوا مع." [1]

"في الكفر أو الكفران، (وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ) من الصراخ وهو الصياح بجهد وشدة، (فِيهَا): قائلين: (رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا) أي: عملاً صالحًا، (غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ)، بدل أو صفة وفائدته التحسر، **والاعتراف بالذنب**، (أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ)، جواب من الله لهم، (مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ)، ما موصولة، ومن فاعل يَتَذَكَّرُ والأصح الذي يدل عليه الأحاديث أنه ستون سنة وعن زين العابدين: إنه سبع عشر سنة، وعن كثير: إنه أربعون، (وَجَاءَكُمُ)، عطف على معنى أو لم نعمركم كأنه قال عمرناكم وجاءكم، (النَّذِيرُ): الرسول، أو الشيب، (فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ).

* * *

(إِنَّ اللهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٣٨) هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا (٣٩) قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أَرُونِي مَاذَا." [2]

"﴿فتلقى آدم مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾ أي استقبلها بالأخذ والقبولِ والعملِ بها حين علِمَها ووُفّق لها وقرئ بنصب آدمَ ورفع كلماتٌ دلالةً على أنها استقبلته بلغته وهي قوله تعالى ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا﴾ الآية وقيل سُبحانَكَ اللَّهم وبحمدِك وتباركَ اسمُك وتعالى جدُّك لا إله إلا أنت ظلمتُ نفسي فاغفرْ لي إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال يا رب ألم تخلُقْني بيدك قال بلى قال يا رب ألم تنفُخْ فيَّ من روحك قال بلى قال يا رب ألم تسبِقْ رحمتُك غضبك قال بلى قال ألم تسكنّي جنتَك قال بلى قال يا رب اني تبتُ وأصلحتُ أراجعي أنت إلى الجنة قال نعم والفاءُ للدِلالة على أن التوبة حصلت عَقيب الأمر بالهبوط قبل تحقق المأمور به والتعرضُ لعنوانِ الربوبيةِ مع الإضافة إليه عليه السلام للتشريف والإيذان بعلّيته لإلقاء الكلمات المدلول عليه بتلقيها

﴿فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ أي رجع عليه بالرحمة وقَبولِ التوبةِ والفاء للدلالة على ترتبه على تلقي الكلمات المتضمن لمعنى التوبة التي هي عبارةٌ عن **الاعتراف بالذنب** والندمِ عليه والعزمِ على عدم العود إليه واكتُفي بذكر شأن آدمَ عليه السَّلامُ لما أن حواءَ تبَعٌ له في الحُكم ولذلك طُوي ذكرُ النساء في أكثر مواقع الكتاب والسنة

---

(١) تفسير الإيجي جامع البيان في تفسير القرآن الإيجي، محمد بن عبد الرحمن ١٠٩/٢

(٢) تفسير الإيجي جامع البيان في تفسير القرآن الإيجي، محمد بن عبد الرحمن ٤١١/٣

﴿إِنَّهُ هُوَ التواب﴾ أي الرجّاع على عباده بالمغفرة أو الذي يُكثر إعانتَهم على التوبة وأصلُ التوب الرجوع فإذا وصف به العبد كان رجوعا عن المعصية وإذا وصف به الباري عز وعلا أريد به الرجوعُ عن العقاب إلى المغفرة

﴿الرحيم﴾ المبالِغُ في الرحمة وفي الجمع بين الوصفين وعدٌ بليغٌ للتائب بالإحسان مع العفو والغفران والجملة تعليلٌ لقوله تعالى ﴿فتاب عليه﴾." (١)

"﴿خُذْ مِنْ أموالهم صَدَقَةً﴾ روي أنهم لما أُطلقوا قالوا يا رسولَ الله هذه أموالُنا التي خلَّفتْنا عنك فتصدقْ بها وطهِّرْنا فقال صلى الله عليه وسلم ما أُمرتُ أن آخذَ من أموالكم شيئا فنزلت فليست هي الصدقةُ المفروضةُ لكونها مأموراً بها ولِما روى أنه صلى الله عليه وسلم أخذ منهم الثلثَ وتركَ لهم الثلثين فوقع ذلك بياناً لِما في صدقةً من الإجمال وإنما هي كفارةٌ لذنوبهم حسبما ينبيء عنه قوله عز وجل

﴿تُطَهّرُهُمْ﴾ أي عما تلطخوا به من أوضار التخلفِ والتاءُ للخطاب والفعل مجزومٌ على أنه جوابٌ للأمر وقرىء بالرفع على أنه حالٌ من ضمير المخاطب في خذ أو صفةٌ لصدقةً والتاء للخطاب أو للصدقة والعائدُ على الأول محذوفٌ ثقةً بما بعده وقرىء تُطْهِرهم من أطْهره بمعنى طَهّره

﴿وَتُزَكّيهِمْ بِهَا﴾ بإثبات الياءِ وهو خبرٌ لمبتدإٍ محذوفٍ والجملةُ حالٌ مِنَ الضميرِ في الأمر أو في جوابه أي وأنت تزكيهم بها أي تُنْمي بتلك الصدقةِ حسناتِهم إلى مراتب المخلِصين أو أموالَهم أو تبالغ في تطهيرهم هذا على قراءة الجزم في تطهرْهم وأما على قراءة الرفع فسواءٌ جُعلت التاءُ للخطاب أو للصدقة وكذا إذا جعلت الجملةُ الأولى حالاً من ضمير المخاطَب أو صفةً للصدقة على الوجهين فالثانيةُ عطفٌ على الأولى حالاً وصفةً منْ غيرِ حاجةٍ إلى تقدير المبتدأ لتوجيه دخول الواو في الجملة الحالية

﴿وَصَلّ عَلَيْهِمْ﴾ أي واعطِف عليهم بالدعاء والاستغفار لهم

﴿إن صلاتك﴾ وقرىء صلواتِك مراعاةً لتعدد المدعو لهم

﴿سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ تسكُن نفوسُهم إليها وتطمئن قلوبُهم بها ويثقون بأنه سبحانه قبل توبتَهم والجملةُ تعليلٌ للأمر بالصلاة عليهم

﴿والله سَمِيعٌ﴾ يسمع ما صدرَ عنهُم من **الاعتراف بالذنب** والتوبةِ والدعاء

﴿عَلِيمٌ﴾ بما في ضمائرهم من الندم والغمّ لما فرَط منهم ومن الإخلاص في التوبة والدعاء أو سميع يجيب

---

(١) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ١/ ٩٢

دعاءَك لهم عليم بما تقتضيه الحكمةُ والجملةُ حينئذ تذييلٌ للتعليل مقررٌ لمضمونه وعلى الأول تذييلٌ لما سبق من الآيتين محقِّقٌ لما فيهما." (١)

"﴿فاستجبنا لَهُ﴾ أي دعاءَه الذي دعاه في ضمن **الاعترافِ بالذنب** على ألطف وجهٍ وأحسنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما من مكروبٍ يدعو بهذا الدعاء إلا استُجيب له ﴿ونجيناه مِنَ الغم﴾ بأن قذفه الحوتُ إلى الساحل بعد أربع ساعاتٍ كان فيها في بطنه وقيل بعد ثلاثة أيام وقيل الغمُّ غمُّ الالتقام وقيل الخطيئة ﴿وكذلك﴾ أي مثلَ ذلك الإنجاءِ الكامل ﴿نُنجِى المؤمنين﴾ من غمومٍ دَعَوُا الله تعالى فيها بالإخلاق لا إنجاءً أدنى منه وفي الإمام نجى ولذلك أخفى الجماعةُ النون الثانية فإنها تخفى مع حروف الفم وقرىء بتشديد الجيم على أن أصله نُنجّي فحذفت الثانية كما حذفت التاء في تَظاهرون وهي وإن كانت فاء فحدفها أوقعُ من حذف حرفِ المضارَعة التي لِمعنًى ولا يقدح فيه اختلافُ حركتي النونين فإن الداعيَ إلى الحذف اجتماعُ المِثلين مع تعذّر الإدغام وامتناعُ الحذفِ في تتجافى لخوف اللَّبس وقيل هوماض مجهولٌ أسند إلى ضمير المصدر وسُكّن آخره تخفيفاً ورُدّ بأنه لا يسند إلى المصدر والمفعول مذكور والماضي لا يسكن آخرُه." (٢)

"ولما ذكر من كمل صفاؤه من السابقين، ومن كمل خوضه من المنافقين، ذكر من جمع بين الصفاء والخوض، فقال:

[سورة التوبة (٩) : آية ١٠٢]

وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٠٢)

يقول الحق جلّ جلاله: وَقوم آخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ وهو التخلف عن الجهاد، ولم يعتذروا عن تخلفهم بالأعذار الكاذبة، وهم طائفة من المتخلفين لما بلغهم ما نزل في المتخلفين أوثقوا أنفسَهم على سواري المسجد، وقالوا: لا نحل أنفسنا حتى يحلنا رسول الله صلى الله عليه وسلّم، فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلّم دخل المسجد، فصلى فيه ركعتين، على عادته، فرآهم وسأل عنهم، فذُكر له سببهم، فنزلت الآية فأطلقهم «١» .

(١) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ٩٩/٤

(٢) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ٨٣/٦

خَلَطُوا عَمَلًا صالِحاً بعمل سيىء وَآخَرَ سَيِّئاً بعمل صالح، خلطوا العمل الصالح الذي هو إظهار الندم **والاعتراف بالذنب**، بآخر سيىء وهو التخلف وموافقة أهل النفاق، أو خلطوا عملاً صالحاً، وهو ما سبق لهم من الجهاد مع الرسول، وغيره من الأعمال، بآخر سيىء، وهو تخلفهم عن تبوك. عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أي: يقبل توبتهم المدلول عليها بقوله: اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ، والرجاء في حقه تعالى واجب. إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ يتجاوز عن التائب ويتفضل عليهم.

قال بعضهم: ما في القرآن آية أرجى لهذة الأمة من هذه الآية. وقال القشيري: قوله: وَآخَرَ سَيِّئاً بعد قوله: عَمَلًا صالِحاً، دليل على أن الزَّلَّةَ لا تحبط ثوابَ الطاعة إذ لو أحبطته لم يكن العملُ صالحاً، وهو كذلك. انتهى. قُلْتُ: وما ذكره من عدم الإحباط هو مذهب أهل السنة، خلافاً للمعتزلة، ولا يعارضه حديث مسلم: «أَنَّ رَجُلاً قال: واللَّهِ لا يَغفِرُ الله لفُلانِ، وإنَّ اللَّهَ قالَ: مَن الذي يَتَأَلّى «٢» عَلَيَّ أَلاَّ أَغفِرَ لفُلانِ، وإنّي غَفَرتُ لَه وأحبطَتُ عَمَلك» «٣» أو كما قال لأن هذا الرجل كان من بني إسرائيل، ولعل شرعهم مخالف لشرعنا لأن هذه الأمة المحمدية قد وضع الله عنها أثقال بني إسرائيل، فهي ملة سمحة، ولعل هذا الرجل أيضاً كان قانطاً من رحمة الله ومكذباً بها، فهو كافر. انظر الحاشية الفاسية.

الإشارة: الناس ثلاثة: سابقون ومخلطون ومنهمكون. فالسابقون فائزون، والمخلطون راجون، والمنهمكون هالكون، إلا من تاب وعمل صالحاً، فالسابقون هم الذين غلب إحسانهم على إساءتهم، وصفاؤهم على كدرهم، إن هفوا رجعوا قريباً، فقد تمر عليهم السنين الطويلة ولا يكتب عليهم ملك الشمال شيئاً وذلك ليقظتهم، لا لعصمتهم،

---

(١) أخرجه البيهقي فى الدلائل (باب حديث أبى لبابة وأصحابه ٥/ ٢٧٢) وابن جرير فى التفسير (١١/ ١٠) عن ابن عباس- رضى الله عنه.

(٢) يتألى: يحلف. والألية: اليمين.. انظر النهاية (ألى ١/ ٦٢) . [.....]

(٣) أخرجه مسلم فى (البر والصلة، باب النهى عن تقنيط الإنسان من رحمة الله) من حديث جندب- رضى الله عنه.." (١)

"فَنادى فِي الظُّلُماتِ أي: في الظلمة الشديدة المتكاثفة كقوله: ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُماتٍ ... «١» ،

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٢/٤٢٤

أو في ظلمة بطن الحوت والبحر والليل: أَنْ لا إِلهَ إِلَّا أَنْتَ أي: بأنه لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ، أو تفسيرية، أي: قال لا إله إلا أنت، سُبْحانَكَ أي: أنزهك تنزيهًا لائقًا بك من أن يعجزك شيء، أو: تنزيهًا لك عما ظننتُ فيك، إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ لنفسي بخروجي عن قومي قبل أن تأذن لي، أو من الظالمين لأنفسهم بتعريضها للهلكة، وعن الحسن: ما نجاه، والله، إلا إقراره على نفسه بالظلم.

فَاسْتَجَبْنا لَهُ أي: أجبنا دعاءه الذي دعا في ضمن **الاعتراف بالذنب** على ألطف وجه وأحسنه. عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مَا مِنْ مَكْرُوبٍ يَدْعُو بِهَذا الدُّعَاءِ إلاّ اسْتُجِيبَ لَهُ» «٢» . وَنَجَّيْناهُ مِنَ الْغَمِّ: الذلة والوحشة والوحدة، وذلك بأن قذفه الحوت إلى الساحل بعد أربع ساعات، وقيل: بعد ثلاثة أيام، وَكَذلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ أي: مثل ذلك الإنجاء الكامل نُنجي المؤمنين من غمومهم، إذا دعوا الله، مخلصين فى دعائهم. وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال:

«اسم الله الذي إذا دُعي به أجاب، وإذا سُئل به أعطى: دعوة يونس بن متى، قيل: يا رسول الله، أليونس خاصة؟

قال: بل هي عامة لكل مؤمن، ألم تسمع قول الله تعالى: وَكَذلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ» . وهنا قراءات في نُنْجِي، مذكورة في كتب القراءات، تركتها لطول الكلام فيها.

الإشارة: من تحققت له سابقة العناية لا تُبعده الجناية، ولا تُخرجه عن دائرة الولاية، بل يؤدب في الدنيا بالابتلاء في بدنه أو ماله، على قدر الجناية وعلو المقام، ثم يُرد إلى مقامه. وهاهنا حكايات للصوفية- رضى الله عنهم- من هذا النوع، مِنْهَا: حكاية خير النساج رضى الله عنه، قيل له: أكان النسج صنعتك؟ قال: لا، ولكن كنتُ عاهدت الله واعتقدت ألا آكل الرطب، فغلبتني نفسي واشتريت رطلاً منه، فجلستُ لآكله، فإذا رجل وقف عليّ، وخنقني، وقال: يا عبد السوء، أتهرب من مولاك- وكان له عبد اسمه: «خير» أَبَقَ مِنْه، أَلقى الله شبهه عليَّ- فحملني إلى حانوته، وقال: اعمل عملك، أمرني بعمل الكرباس- وهو القطن- فدليت رجلي لأنسجه، فكأني كنت أعمله سنين، فبقيت معه أشهرًا، فقمتُ ليلة إلى صلاة الغداة، وقلت: إلهي لا أعود، فأصبحت، فإذا الشبه قد زال عني، وعُدتُ إلى صورتي التي كُنتُ عليها، فأُطلقت، فثبت عليّ هذا الاسم، فكان سببُه اتباع شهوتي.

ومنها قضية أبي الخير العسقلاني رضى الله عنه قال: اشتهيتُ السمك سنين، ثم ظهر له من وجه حلال، فلما مد يده ليأكل، أخذت شوكة من عظامه إصبعَه، فذهبت في ذلك، فقال: إلهي هذا لمن مد يده لشهوة من حلال، فكيف

(١) من الآية ١٧ من سورة البقرة.

(٢) أخرجه الترمذي فى (الداعوة باب ٨٢) ، وأبو يعلى (٢/ ٦٥) ، والحاكم فى المستدرك (١/ ٥٠٥) ، وصححه ووافقه الذهبي، من حديث سعد بن أبي وقاص. وأخرجه أحمد فى قصة (١/ ١٧٠) .." [١]

"له حاجة إلى التوبة. وظاهر الآية: أن العصيان لا ينافي الإيمان، فبادروا بالتوبة لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ تفوزون بسعادة الدارين. وبالله التوفيق.

الإشارة: التوبة أساس الطريق، ومنها السير إلى عين التحقيق، فَمَنْ لاَ تَوْبَةَ له لا سَيْر له، كمن يبني على غير أساس. والتوبة يَحْتَاجُ إليها المبتدئ والمتوسط والمنتهى، فتوبة المبتدئ من المعاصي والذنوب، وتوبة السائر:

من الغفلة ولوث العيوب، وتوبة المنتهي: من النظر إلى سوى علام الغيوب.

قال ابن جزي: التوبة واجبة على كل مكلف، بدليل الكتاب والسنة وإجماع الأمة. وفرائضها ثلاثة: الندم على **الذنب** من حيث عُصِيَ به ذو الجلال، لا من حيث أضر ببدن أو مال. والإقلاع عن **الذنب** في أول أوقات الإمكان، من غير تأخير ولا توان، والعزم ألا يعود إليها أبداً. ومهما قضى الله عليه بالعود، أحدث عَزْماً مُجَدَّداً.

وآدابها ثلاث: **الاعتراف بالذنب**، مقرون ًا بالانكسار، والإكثار من التضرع والاستغفار، والإكثار من الحسنات لمحو ما تقدم من الأوزار. ومراتبها سبع: فتوبة الكفار من الكفر، وتوبة المُخَلِّطِينَ من الذنوب الكبائر، وتوبة العدول من الصغائر، وتوبة العابدين من الفترات، وتوبة السالكين من عِلَلِ القلوب والآفات، وتوبة أهل الورع من الشبهات، وتوبة أهل المشاهدة من الغفلات. والبواعث على التوبة سبعة: خوف العقاب، ورجاء الثواب، والخجل من الحساب، ومحبة الحبيب، ومراقبة الرقيب، وتعظيم المقام، وشكر الإنعام. هـ.

ثم أمر بالنكاح لأنه أغض للبصر، فقال:

[سورة النور (٢٤) : آية ٣٢]

وَأَنْكِحُوا الْأَيامى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبادِكُمْ وَإِمائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَراءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ واسِعٌ عَلِيمٌ

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٤٩٣/٣

(٣٢)

قلت: الأيامى: جَمْعُ أَيِّمٍ، وأصله: أيايم، فقلبت الياء لآخر الكلمة، ثم قبلت ألفاً، فصارت أيامى. والأيم: من لا زوج له من الرجال والنساء.

يقول الحق جلّ جلاله: وَأَنْكِحُوا أي: زَوِّجُوا الْأَيامى مِنْكُمْ أي: مَنْ لا زوج له من الرجال والنساء، بِكراً كان أو ثيباً. والمعنى: زوجوا من لا زوج له من الأحرار والحرائر. والخطاب للأولياء والحكام، أمرهم بتزويج الأيامى، فاقتضى ذلك النهي عن عضلهن. وفي الآية دليل عدم استقلال المرأة بالنكاح، واشتراط الولي فيه، وهو مذهب مالك والشافعي، خلافاً لأبي حنيفة.." (١)

"صارت مساوئه محاسن، ومن سبق له العكس صارت محاسنه مساوئ. اللهم اجعل سيئاتنا سيئات من أحببت، ولا تجعل حسناتنا حسنات من أبغضت. وفي الحديث: «إذا أحب اللهُ عَبْداً لَمْ يضرُّه ذنب» «١» .

قال في القوت: واعلم أن مسامحة، الله عز وجل لأوليائه- يعني: في هفواتهم- في ثلاث مقامات: أن يقيمه مَقَامَ حَبيبٍ صَديقٍ، لِمَا سبق من قدم صدق، فلا تنقصه الذنوب لأنه حبيب. المقام الثاني: أن يقيمه مقام الحياء منه، بإجلال وتعظيم، فيسمح له، وتصغر ذنوبه للإجلال والمنزلة، ولا يمكن كشف هذا المقام، إلا أنَّا روينا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: أنه ذكر طائفة فقال: «يدفع عنهم مساوئ أعمالهم بمحاسن أعمالهم» . المقام الثالث: أن يقيمه مقام الحزن والانكسار، **والاعتراف بالذنب** والإكثار، فإذا نظر حزنه وهمه، ورأى اعترافه وغمه، غفر له حياء منه ورحمة. هـ. وبالله التوفيق.

ثم ذكر توجه موسى إلى مدين، و اتصاله بشعيب- عليهما السلام- فقال:

[سورة القصص (٢٨) : الآيات ٢٢ الى ٢٤]

وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقاءَ مَدْيَنَ قالَ عَسى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَواءَ السَّبِيلِ (٢٢) وَلَمَّا وَرَدَ ماءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودانِ قالَ ما خَطْبُكُما قالَتا لا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعاءُ وَأَبُونا شَيْخٌ كَبِيرٌ (٢٣) فَسَقى لَهُما ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقالَ رَبِّ إِنِّي لِما أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (٢٤)

يقول الحق جلّ جلاله: وَلَمَّا تَوَجَّهَ موسى تِلْقاءَ مَدْيَنَ نحوها وجهتها. ومدين: قرية شعيب، سُميت بمدين بن إبراهيم، كما سميت المدائن باسم أخيه مدائن، ويقال له أيضاً: «مدان بن إبراهيم» ، ولم تكن مدين

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٣٤/٤

في سلطان فرعون، وبينها وبين مصر مسيرة ثمانية أيام، ولعله إنما لم يتسلط عليها لِمَا وصله من خبر إهلاك أهلها لما طغوا على أنبيائهم، فخاف على نفسه. قال ابن عباس: خرج موسى، ولم يكن له علم بالطريق إلا حسن الظن بربه.

قالَ عَسى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَواءَ السَّبِيلِ أي: وسطه ونهجه. فلما خرج، عَرَض له ثَلاَثُ طرق، فأخذ في أوسطها، وجاء الطلاب عَقِبَهُ، فأخذوا في الآخَرَيْنِ. رُوي أن مَلكاً جاءه على فرس بيده عَنَزَة، فانطلق به إلى

---

(١) أخرجه الديلمي (مسند الفردوس ٢/ ٧٧ ح ٤٢٣٢) من حديث أنس. ولفظه: «التَّائِبَ مِن الذَّنبِ كَمَن لا ذنب له، وإذا أحَبَّ اللهُ عَبْداً لَمْ يضره ذنب» وزاد الزبيدي عزوه فى إتحاف السادة المتقين (٩/ ٦٠٩) لابن النجار فى تاريخه.." [1]

"عليه الوعيد بخصوصه. قال ابن عطية: وتحرير القول في الكبائر: إنها كل معصية يُوجد فيها حَدّ في الدنيا، أو توعّد عليها بنار في الآخرة، أو بلَعنةٍ ونحوها. وقرأ الأخوان: (كبير الإثم) على إرادة الجنس، أو الشرك، وَيجتنبون الْفَواحِشَ وهو ما فَحُشَ من الكبائر، كأنه قيل: يجتنبون الكبائر وما فحش منها خصوصاً، فيحتمل أن يريد بالكبائر: ما فيه حق الله وحده، والفواحش منها: ما فيه حق الله وحق عباده، إِلَّا اللَّمَمَ أي: إلا ما قَلّ وصَغُر، فإنه مغفور لمَن يجتنب الكبائر، وقيل: هي النظرة والغمزة والقُبلة، وقيل: الخطرة من الذنب، وقيل: كل ذنب لم يجعل الله فيه حَدّاً ولا عذاباً. والاستثناء منقطع لأنه ليس من الكبائر ولا من الفواحش.

إِنَّ رَبَّكَ واسِعُ الْمَغْفِرَةِ حيث يغفر الصغائر باجتناب الكبائر، أو: حيث يغفر ما يشاء من الذنوب من غير توبة، وهذا أحسن، هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ في ضمن إنشاء أبيكم آدم عليه السلام مِنَ الْأَرْضِ إنشاءً إجمالياً، حسبما مرّ تحقيقه مراراً، وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ أي: يعلم وقت كونكم أجنّة فِي بُطُونِ أُمَّهاتِكُمْ على أطوار مختلفة، لا يخفى عليه حالٌ مِن أحوالكم، ولا عمل من أعمالكم.

فَلا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ فلا تنسبوها إلى زكاء الأعمال، وزيادة الخير والطاعات، أو: إلى الزكاة والطهارة من المساوئ، ولا تُثنوا عليها، واهضموها، فقد علم اللهُ الزكيَّ منكم والتقِيّ، قبل أن يُخرجكم من صُلب آدم، وقبل أن تخرجوا من بطون أمهاتكم. وقيل: كان ناس يعملون أعمالاً حسنة، ثم يقولون: صلاتنا وصيامنا

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٤/ ٢٤١

وحجّنا، فنزلت.

وهذا إذا كان على سبيل الإعجاب أو الرياء، لا على سبيل **الاعتراف بالنعمة**، والتحدُّث بها، فإنه جائز لأن المسرة بالطاعة طاعة، وذكرها شكرها. والأحسن في إيراد **الاعتراف والشكر** أن يُقدم ذكر نقصه، فيقول مثلاً: كنا جُهالاً فعلَّمنا الله، وكنا ضُلاَّلاً فهدانا الله، وكنا غافلين فأيقظنا الله، وهكذا فنحن اليوم كذا وكذا.

قال ابن عطية: ويُحتمل أن يكون نهياً عن أن يُزَكِّي بعضُ الناس بعضاً، وإذا كان هذا، فإنما ينهى عن تزكية السَّمع «١» ، أو القطع بالتزكية، ومن ذلك الحديث في «عثمان بن مظعون» عند موته «٢» ، وأما تزكية القدوة أو الإمام، أو أحداً، ليؤتم به أو لِيَتَهَمَّمَ الناس بالخير، فجائز، وقد زَكَّى رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر وغيره، وكذلك تزكية الشهود في الحقوق جائزة للضرورة إليها، وأصل التزكية: التقوى، والله تعالى أعلم بتقوى الناس منكم. هـ «٣» .

(١) فى ابن عطية: السمعة والمدح للدنيا.

(٢) حديث عثمان بن مطعون رضي الله عنه- سبق ذكره وتخريجه عند التعليق على إشارة الآية ٩ من سورة الأحقاف، فراجعه إن شئت.

(٣) ببعض المعنى." (١)

"مَا ذَكَرَهُ - جَلَّ وَعَلَا - فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: مِنْ أَنَّ أَهْلَ النَّارِ يُسْأَلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَقُولُ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ، أَيْ: فِي دَارِ الدُّنْيَا عَلَى أَلْسِنَةِ الرُّسُلِ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ، وَأَنَّهُمُ اعْتَرَفُوا بِذَلِكَ، وَأَنَّهُمْ لَمْ يُجِيبُوا الرُّسُلَ لِمَا دَعَوْهُمْ إِلَيْهِ مِنَ الْإِيمَانِ ؛ لِأَنَّ اللَّهَ أَرَادَ بِهِمُ الشَّقَاءَ وَهُمْ مُيَسَّرُونَ لِمَا خُلِقُوا لَهُ، فَلِذَلِكَ كَفَرُوا، وَكَذَّبُوا الرُّسُلَ.

قَدْ أَوْضَحْنَا الْآيَاتِ الدَّالَّةَ عَلَيْهِ فِي سُورَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكَلَامِ عَلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا [١٧ \ ١٥] فَأَغْنَى ذَلِكَ عَنْ إِعَادَتِهِ هُنَا.

وَقَوْلِهِ هُنَا: قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ الظَّاهِرُ أَنَّ مَعْنَى قَوْلِهِمْ: غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا أَنَّ الرُّسُلَ بَلَّغَتْهُمْ، وَأَنْذَرَتْهُمْ وَتَلَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتِ رَبِّهِمْ، وَلَكِنْ مَا سَبَقَ فِي عِلْمِ اللَّهِ مِنْ شَقَاوَتِهِمُ الْأَزَلِيَّةِ، غَلَبَ عَلَيْهِمْ، فَكَذَّبُوا الرُّسُلَ، لِيَصِيرُوا إِلَى مَا سَبَقَ فِي عِلْمِهِ - جَلَّ وَعَلَا -، مِنْ شَقَاوَتِهِمْ، وَنَظِيرُ الْآيَةِ عَلَى هَذَا

(١) البحر المديد في تفسير القرآن ا لمجيد ابن عجيبة ٥١١/٥

الْوَجْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ [١٠ \ ٩٦ - ٩٧] وَقَوْلُهُ عَنْ أَهْلِ النَّارِ قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ [٣٩ \ ٧١] إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ، وَيَزِيدُ ذَلِكَ إِيضَاحًا قَوْلُهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - «كُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ» وَقَوْلُهُ تَعَالَى: هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ [٦٤ \ ٢] وَقَوْلُهُ: وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ [١١ \ ١١٨ - ١١٩] عَلَى أَصَحِّ التَّفْسِيرَيْنِ وَقَوْلُهُ عَنْهُمْ وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ، اعْتِرَافٌ مِنْهُمْ بِضَلَالِهِمْ، حَيْثُ لَا يَنْفَعُ **الِاعْتِرَافُ بِالذَّنْبِ** وَلَا النَّدَمُ عَلَيْهِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ [٦٧ \ ١١] وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ.

وَهَذَا الَّذِي فَسَّرْنَا بِهِ الْآيَةَ، هُوَ الْأَظْهَرُ الَّذِي دَلَّ عَلَيْهِ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ، وَبِهِ تَعْلَمُ أَنَّ قَوْلَ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ الْقُرْطُبِيِّ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ، وَأَحْسَنُ مَا قِيلَ فِي مَعْنَاهُ: غَلَبَتْ عَلَيْنَا لَذَّاتُنَا وَأَهْوَاؤُنَا، فَسَمَّى اللَّذَّاتِ وَالْأَهْوَاءَ شِقْوَةً ؛ لِأَنَّهُمَا يُؤَدِّيَانِ إِلَيْهَا كَمَا قَالَ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ -: إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا [٤ \ ١٠] ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ يُؤَدِّيهِمْ إِلَى النَّارِ. اهـ، تَكَلُّفٌ مُخَالِفٌ لِلتَّحْقِيقِ.

ثُمَّ حَكَى الْقُرْطُبِيُّ مَا ذَكَرْنَا أَنَّهُ الصَّوَابُ بِقِيلٍ ثُمَّ قَالَ: وَقِيلَ حُسْنُ الظَّنِّ بِالنَّفْسِ، وَسُوءُ الظَّنِّ بِالْخُلُقِ اهـ.

وَلَا يَخْفَى أَنَّ الصَّوَابَ هُوَ مَا ذَكَرْنَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى، وَقَوْلُهُ هُنَا: قَوْمًا ضَالِّينَ." (١)

"وَالدَّلِيلُ مِنَ الْقُرْآنِ عَلَى أَنَّ هَذَا الْقَوْلَ فِي الْآيَةِ هُوَ التَّحْقِيقُ، أَنَّ اللَّهَ صَرَّحَ بِهِ وَاضِحًا فِي قَوْلِهِ جَلَّ وَعَلَا: كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ [٢ \ ٢٨] وَبِذَلِكَ تَعْلَمُ أَنَّ مَا سِوَاهُ مِنَ الْأَقْوَالِ فِي الْآيَةِ لَا مُعَوَّلَ عَلَيْهِ.

وَالْأَظْهَرُ عِنْدِي أَنَّ الْمُسَوِّغَ الَّذِي سَوَّغَ إِطْلَاقَ اسْمِ الْمَوْتِ عَلَى الْعَلَقَةِ، وَالْمُضْغَةِ مَثَلًا، فِي بُطُونِ الْأُمَّهَاتِ، أَنَّ عَيْنَ ذَلِكَ الشَّيْءِ، الَّذِي هُوَ نَفْسُ الْعَلَقَةِ وَالْمُضْغَةِ، لَهُ أَطْوَارٌ كَمَا قَالَ تَعَالَى: وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ [٣٩ \ ٦] ، وَلَمَّا كَانَ ذَلِكَ الشَّيْءُ، تَكُونُ فِيهِ الْحَيَاةُ فِي بَعْضِ تِلْكَ الْأَطْوَارِ، وَفِي بَعْضِهَا لَا حَيَاةَ لَهُ، صَحَّ إِطْلَاقُ الْمَوْتِ وَالْحَيَاةِ عَلَيْهِ مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ شَيْءٌ وَاحِدٌ، تَرْتَفِعُ عَنْهُ الْحَيَاةُ تَارَةً وَتَكُونُ فِيهِ أُخْرَى، وَقَدْ ذَكَرَ لَهُ الزَّمَخْشَرِيُّ مُسَوِّغًا غَيْرَ هَذَا، فَانْظُرْهُ إِنْ شِئْتَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ. قَدْ بَيَّنَ جَلَّ وَعَلَا فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ، أَنَّ **الِاعْتِرَافَ بِالذَّنْبِ** فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ لَا يَنْفَعُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ [٦٧ \ ١١]

(١) أضواء البيان في إيضاح القر آن بالقرآن الشنقيطي، محمد الأمين ٣٥٨/٥

وَقَالَ تَعَالَى رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ [٣٢ \ ١٢] إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ قَدْ قَدَّمْنَا إِيضَاحَهُ بِالْآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ، فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ فِي الْكَلَامِ عَلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ [٧ \ ٥٣] .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا. قَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَيْهِ فِي سُورَةِ الصَّافَّاتِ، فِي الْكَلَامِ عَلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ الْآيَةَ [٣٧ \ ٣٤ - ٣٥] .

قَوْلُهُ تَعَالَى: فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ. قَدْ قَدَّمْنَا الْآيَاتِ الْمُوَضِّحَةَ لَهُ فِي سُورَةِ الْكَهْفِ، فِي الْكَلَامِ عَلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا [١٨ \ ٢٦] .." (١)

"ففيه الإقرار لله وحده بالألوهية بقوله اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت (وبقية الحديث) خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت أعوذ بك من شر ما صنعت أبوء لك بنعمتك علي وأبوء لك بذنبي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت) وفيه الاعتراف بأن الله عز وجل هو الخالق: وفيه الاعتراف على نفسه بالعبودية والإقرار بالعهد الذي أخذه الله عليه والرجاء بما وعده به والاستغفار م نشر ما جنى على نفسه، وإضافة النعم إلى موجدها وهو الله عز وجل وإضافة الذنب إلى نفسه ورغبته في المغفرة: واعترافه بأنه لا يقدر على ذلك إلا الله عز وجل، وفي ذلك إشارة إلى الجمع بين الشريعة والحقيقة لأن تكاليف الشريعة لا تحصل إلا إذا كان عون من الله وتوفيق منه جل شأنه فسأله التوفيق بمنه وكرمه. أي مخلصا بقلبه مصدقا بثوابها. أي مع السابقين إن شاء الله تعالى: والعبرة بالإخلاص في العمل وحسن النية (تخريجه) (خ مذ نس طب وغيرهم). (سنده) حدثنا عبد الله حدثني أبي ثنا محمد بن جعفر ثنا شعبة قال سمعت أبا عقيل يحدث عن سابق بن ناجية عن أبي سلام الخ (أبو سلام) بتشديد اللام اسمه ممطور من التابعين (غريبة). أي لم يكن بينك وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم واسطة في سماعه. قال النووي وقع في رواية أبي داود وغيره (وبمحمد رسولا) وفي رواية الترمذي (نبيا) فيستحب أن يجمع الإنسان بينهما فيقول رسولا نبيا، ولو اقتصر على أحدهما كان عاملا بالحديث اه (قلت) ويصح أن نقول نبيا ورسولا بواو

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن الشنقيطي، محمد الأمين ٣٧٥/٦

العطف لأن المراد إثبات الوصفين له صلى الله عليه وسلم عملا بقضية الخبرين (وقوله حقا على الله) أي واجبا على الله وجوب تفضل ورحمة وهو الذي أوجب ذلك على نفسه حيث قال جل شأنه (كتب ربكم على نفسه الرحمة) والمعنى أن الله عز وجل يحقق لهذا العبد ما وعده وهو إعطاؤه من واسع فضله. (سنده) حدثنا عبد الله حدثني أبي ثنا عفان ثنا شعبة قال أبو عقيل أخبرني قال سمع سابق بن ناجية." [(١)]

"وجوبُ الاحْتِكَامِ إِلى الكتابِ وَالسُّنَّة

عظم منزلة النبي صلى الله عليه وسلم

حديث أنس بن مالك رضي الله عنه -مرفوعاً-: (قال الله تعالى: يا ابن آدم إنك ما دعوتني)

تخريج حديث أنس

ذكر بعض شواهده

منزلة حديث أنس

المعنى الإجمالي لحديث أنس

شرح قول الله تعالى: (يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي)

المراد بابن آدم

خطاب ذكور بني آدم يعم إناثهم ما لم يقم دليل على التخصيص

خطاب الإنس خطاب للجن ما لم يقم دليل على التخصيص

التعريف بأبينا آدم عليه السلام

ما قيل في معنى كلمة (آدم)

ما قيل في سبب تسمية (آدم) بهذا الاسم

الكلام على الدعاء

بيان معنى (الدعاء)

الأمر بالدعاء

الترغيب في الدعاء

أهمية الدعاء وعلو منزلته

---

(١) الفتح الرباني/ الساعاتي (أجزاء منه)، ١/٤٦٦

التوحيد

الدعاء وطلب المغفرة

حسن الظن بالله تعالى ورجاء مغفرته

الاعتراف بالذنب والتقصير

التوبة الصادقة

الإلحاح وكثرة الاستغفــار." (١)

"التوسل إلى الله تعالى بأسمائه الحسنى كالغفور، والرحيم، والتواب، والحليم، والعفو،...

فعل الأسباب المخلصة من الوقوع في **الذنب**

ذكر بعض موانع المغفرة

الشرك

الإصرار على **الذنب**

التحذير من الإصرار على **الذنب**

النفاق

الكفر

الكلام على الاستغفار

تعريف الاستغفار

فضل الاستغفار

مكفر للذنوب والسيئات

سبب لرفع البلاء

سبب للفرج والخروج من المضايق

سبب للرزق

سبب لدفع العذاب

سبب للرحمة

الاستغفار ينفي الإصرار على **الذنب**

---

(١) الأربعون النووية، ص/١٢٩

الأمر بالاستغفار

هدي النبي صلى الله عليه وسلم في الاستغفار

كثرة استغفاره صلى الله عليه وسلم

جمعه بين الاستغفار والتوحيد

ذكر بعض صيغ استغفاره صلى الله عليه وسلم

اقتران الاستغفار بالتوبة

الفرق بين الاستغفار والتوبة

حكم قول: (أستغفر الله وأتوب إليه)

كره بعض السلف قول: (وأتوب إليه) لأنه خبر قد لا يصدق قائله

الصحيح جواز ذلك وعدم كراهته

ذكر بعض الأدلة على جواز قول: (أستغفر الله وأتوب إليه)

شروط التوبة

الإخلاصُ، وذلك بأن يترك **الذَّنبِ** للهِ عزَّ وجل

الإقلاعُ عن المعصيَةِ لقولِهِ جلَّ وعلا: ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

أن يندم على فعل المعصية ويعزم على أن لا يعود إليها

أن يتوب قبل انقطاع وقت التوبة

أن يَبْرَأَ مِن حقِّ صاحبِهَا، إذا كانت المعصيَةُ تَتعلَّقُ بحقوقِ العِبادِ

حكم من استغفر ولم يتب

حكم من عاهد الله لا يعود لمعصية أبداً

فضل مداومة الاستغفار

ذكر أفضل أنواع الاستغفار

أفضل الاستغفار ما تضمن الثناء على الله تعالى والشهادة له بالتوحيد **والاعتراف بالذنب** وطلب المغفرة

ذكر سيد الاستغفار

الحث على الجمع بين كلمة التوحيد والاستغفار

صيغ الاستغفار

حكم طلب الاستغفار ممن يرجى صلاحه

حكم طلب الاستغفار من الصبيان

تنبيه: من الشرك طلب الاستغفار من الأموات

التحذير مما يفعله بعض الجهلة من طلب الشفاعة والاستغفار من الرسول صلى الله عليه وسلم

صرف الدعاء لغير الله تعالى شرك أكبر." (١)

" ورواه شعيب بن أبي حمزة وعقيل بن خالد عن ابن شهاب عن أبي سلمة وسعيد بن المسيب عن أبي هريرة قال شعيب أتى رجل من أسلم النبي صلى الله عليه و سلم وقال عقيل أتى رجل من المسلمين رسول الله صلى الله عليه و سلم بمعنى واحد وألفاظ مختلفة ولم تختلف ألفاظهم في أنه ماعز الأسلمي وأنه رده رسول الله صلى الله عليه و سلم أربع مرات

وروى هذا الحديث عن ابن شهاب مرسلا وقد ذكرناه في مراسل ابن شهاب وذكرنا هناك الآثار المروية في هذا الباب وكثيرا من الأحكام التي توجبها ألفاظها والحمد لله

وفي هذا الحديث من الفقه أن الستر أولى بالمسلم على نفسه إذا وقع حدا من الحدود من **الاعتراف به** عند السلطان وذلك مع اعتقاد التوبة والندم على **الذنب** وتكون نيته ومعتقده إلا يعود فهذا أولى به من **الاعتراف فإن** الله يقبل التوبة عن عباده ويحب التوابين وهذا فعل أهل العقل والدين والندم والتوبة واعتقاد أن لا عودة ألا ترى إلى قوله أيشتكي أبه جنة

وروى يزيد بن هارون عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب أن ماعز بن مالك الأسلمي أتى إلى أبي بكر فأخبره أنه زنى فقال له أبو بكر هل ذكرت ذلك لأحد قبلي ." (٢)

" استدل بذلك من قال إن المرأة تحد إذا وجدت حاملا ولا زوج لها ولا سيد ولم تذكر شبهة وهو مروي عن عمر ومالك وأصحابه قالوا إذا حملت ولم يعلم لها زوج ولا عرفنا إكراهها لزمها الحد إلا أن تكون غريبة وتدعي أنه من زوج أو سيد

وذهب الجمهور إلى أن مجرد الحبل لا يثبت به الحد بل لا بد من **الاعتراف أو** البينة واستدلوا بالأحاديث الواردة في درء الحدود بالشبهات

---

(١) الأربعون النووية، ص/١٣٠

(٢) التمهيد، ١١٩/٢٣

قال الشوكاني في النيل هذا من قول عمر ومثل ذلك لا يثبت به مثل هذا الأمر العظيم الذي يفضي إلى هلاك النفوس وكونه قاله في مجمع من الصحابة ولم ينكر عليه لا يستلزم أن يكون إجماعا كما بينا ذلك في غير موضع من هذا الشرح لأن الإنكار في مسائل الاجتهاد غير لازم للمخالف (أو اعتراف) أي الإقرار بالزنى والاستمرار عليه وأجمعوا على وجوب الرجم على من اعترف بالزنى وهو محصن يصح إقراره بالحد واختلفوا في اشتراط تكرار إقراره أربع مرات

قال المنذري وأخرجه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي مختصرا ومطولا

٤ -

(باب رجم ماعز بن مالك)

[٤٤١٩] (عن هشام بن سعد) هو القرشي ضعفه بن معين والنسائي وبن عدي (عن أبيه) أي نعيم (في حجر أبي) بفتح الحاء ويكسر أي في تربية أبي هزال (فأصاب جارية) أي جامع مملوكة (من الحي) أي القبيلة (فقال له أبي) أي هزال (ائت) أمر من الإتيان أي احضر وإنما يريد بذلك أي بما ذكر من الإتيان والإخبار (رجاء أن يكون له مخرجا) أي عن **الذنب**

قال الطيبي اسم كان يرجع إلى المذكور وخبره مخرجا وله ظرف لغو كما في قوله ." [1]

"وركوعا ، وسجودا ، وقعودا ، فالقيام محل قراءة القرآن ، والركوع والسجود لهما دعاءان مخصوصان ، والقعود محل التشهد ، فلم يبق للدعاء إلا بعد التشهد قبل السلام. (ظلمت نفسي) أي بملابسة ما يوجب العقوبة ، أو ينقص الحظ والأجر. (ظلما كثيرا) يروى بالمثلثة وبالموحدة فيخير الداعي بين اللفظين ، ولا يجمع بينهما ؛ لأنه لم يرو إلا أحدهما. وقيل : يأتي مرة بالمثلثة ، ومرة بالموحدة ، فإذا أتى بالدعاء مرتين فقد نطق بما نطق به النبي ﴿صلى الله عليه وسلم﴾ بيقين. قال الحافظ : في الحديث أن الإنسان لا يعري عن تقصير ، ولو كان صديقا. قال السندي : بل فيه أن الإنسان كثير التقصير وإن كان صديقا ؛ لأن النعم عليه غير متناهية ، وقوته لا تطيق بأداء أقل قليل من شكرها ، بل شكره من جملة النعم أيضا فيحتاج إلى شكر هو أيضا كذلك ، فما بقي له إلا العجز **والاعتراف بالتقصير** الكثير ، كيف وقد جاء في جملة أدعيته ﴿صلى الله عليه وسلم﴾ "ظلمت نفسي" انتهى. (ولا يغفر الذنوب إلا أنت) فيه إقرار بوحدانية الباري تعالى ، واستجلاب لمغفرته بهذا الإقرار كما قال تعالى : علم أن له ربا يغفر **الذنب**. ويأخذ **بالذنب** ، وقد وقع في هذا الحديث امتثال لما أثنى الله تعالى عليه في قوله : "والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا

---

(١) عون المعبود، ١٢/٦٥

أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله " [٣ : ١٣٥] ، فأثنى على المستغفرين ، وفي ضمن ثناءه بالاستغفار لوح بالأمر به كما قيل : إن كل شيء أثنى الله على فاعله فهو آمر به ، وكل شيء ذم فاعله فهو ناه عنه. وقوله "لا يغفر الذنوب إلا أنت" كقوله تعالى : "ومن يغفر الذنوب إلا الله ". (مغفرة) نكرها للتعظيم أي مغفرة عظيمة ، وزادها تعظيما بوصفها بقوله : (من عندك) ؛ لأن ما يكون من عنده لا تحيط بوصفه عبارة. وقيل ، معناه : من محض فضلك من غير سابقة استحقاق مني ، أو مغفرة لائقة بعظيم كرمك. قال الطيبي : دل." (١)

"ص١٧٢ ، ١٧٣) فصلا لإيضاح الفرق بين **الذنب** والسيئة والتكفير والمغفرة فطالعه أيضا مع ما تعقبه وعلق عليه محشيه وقد ذكر صاحب المنازل أسرارا للتوبة بسط ابن القيم الكلام في شرح السر الأول وتوضيحه أحببنا إيراده لغاية حسنه ولطافته . قال صاحب المنازل : ولطائف أسرار التوبة ثلاثة أشياء أولها : أن ينظر الجناية والقضية فيعرف مراد الله فيها إذ خلاك وإتيانها ، فإن الله عز وجل إنما خلي العبد **والذنب** لمعنيين أحدهما : أن يعرف عزته في قضائه وبره في ستره وحلمه في إمهال راكبه وكرمه في قبول العذر منه وفضله في مغفرته . الثاني : أن يقيم على عبده حجة عدله فيعاقبه على ذنبه بحجته . قال ابن القيم في شرح هذا الكلام (ج١ : ص١١١) اعلم أن صاحب البصيرة إذا صدرت منه الخطيئة فله نظر إلى خمسه أمور أحدها : أن ينظر إلى أمر الله ونهيه فيحدث له ذلك **الاعتراف بكونها** خطيئة والإقرار على نفسه **بالذنب** . الثاني : أن ينظر إلى الوعد والوعيد فيحدث له ذلك خوفا وخشية تحمله على التوبة . الثالث : أن ينظر إلى تمكين الله له منها وتخليته بينه وبينها أو تقديرها عليه وإنه لو شاء لعصمه منها وحال بينه وبينها ، فيحدث له ذلك أنواعا من المعرفة بالله وأسمائه وصفاته وحكمته ورحمته ومعرفته وعفوه وحلمه وكرمه ، وتوجب هذه المعرفة عبودية بهذه الأسماء لا تحصل بدون

-..

______." (٢)

"أضاف إلى ملابسة **الذنب** نقض التوبة لكن العودة إلى التوبة أحسن من ابتدائها ، لأنه إن ضاف إليها ملازمة الطلب من الكريم والإلحاح في سؤاله **والاعتراف بأنه** لا غافر للذنب سواه . وقال ابن بطال : في هذا الحديث إن المصر على المعصية في مشيئة الله إن شاء عذبه وإن شاء غفر له مغلبا لحسنته التي

---

(١) مشكاة المصابيح مع شرحه مرعاة المفاتيح، ٥٧٩/٣

(٢) مشكاة المصابيح مع شرحه مرعاة المفاتيح، ١١/٨

جاء بها ، وهي اعتقاد أن له ربا خالقا يعذبه يغفر له واستغفاره إياه على ذلك يدل عليه قوله تعالى : " من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها " (الأنعام : ١٦٠) ولا حسنة أعظم من التوحيد ، فإن قيل : إن استغفار ربه توبة منه ، قلنا ليس الاستغفار أكثر من طلب المغفرة ، وقد يطلها المصر والتائب . ولا دلالة في الحديث على أنه تاب مما سأل الغفران عنه ، لأن حد التوبة الرجوع عن **الذنب** ، والعزم على أن لا يعود إليه والإقلاع عنه والاستغفار بمجرده لا يفهم منه ذلك ، وقال غيره شروط التوبة ثلاثة : الإقلاع ، والندم ، والعزم على أن لا يعود إليه ، والتعبير بالرجوع عن **الذنب** لا يفيد معنى الندم بل هو إلى معنى الإقلاع أقرب . قال بعضهم : يكفي في التوبة تحقق الندم على وقوعه منه ، فإنه يستلزم الإقلاع عنه ، والعزم على عدم العود فهما ناشئان عن الندم لا أصلان معه . ومن ثم جاء الحديث الندم توبة وهو حديث حسن من حديث ابن مسعود أخرجه ابن ماجة وصححه الحاكم ، وأخرجه ابن حبان من حديث أنس وصححه . ومن شاء مزيد الكلام في ذلك فليرجع إلى مدارج السالكين (ج١ : ص٨٨) وإلى باب التوبة من أوائل كتاب الدعوات من الفتح ، فإنه قد استوفى البحث في ذلك هناك وقال السبكي في الحلبيات : الاستغفار طلب المغفرة إما باللسان أو بالقلب أو بهما فالأول : فيه نفع لأنه خير من السكوت ولأنه يعتاد قول الخير ، والثاني نافع جدا ، والثالث أبلغ منه لكن لا يمحصان **الذنب** (." [١]

"عند الله . قلت : ترجم البخاري لهذا الحديث بقوله باب أفضل الاستغفار . قال الحافظ : ترجم بالأفضلية ، ووقع الحديث بلفظ السيادة فكأنه أشار إلى أن المراد بالسيادة الأفضلية ، ومعناها الأكثر نفعا لمستعمله يعني إن النفع والثواب للمستغفر به لا للاستغفار نفسه والمراد المستغفر بهذا النوع من الاستغفار أكثر ثوابا من المستغفر بغيره فهو نحو مكة أفضل من المدينة ، أي ثواب العابد فيها أفضل من ثواب العابد في المدينة ، ووجه كون هذا الاستغفار كذلك مما لا يعرف بالعقل ، وإنما هو أمر مفوض إلى الذي قرر الثواب على الأعمال . وقال الطيبي : لما كان هذا الدعاء جامعا لمعاني التوبة كلها . وقد سبق أن التوبة غاية الاعتذار استعير له اسم السيد ، وهو في الأصل الرئيس المقدم الذي يقصد في الحوائج ، ويرجع إليه في الأمور . قال ابن أبي جمرة : جميع هذا الحديث من بديع المعاني وحسن الألفاظ ما يحق له أن يسمى بسيد الاستغفار ففيه الإقرار لله وحده بالإلهية ولنفسه بالعبودية ، **والاعتراف بأنه** الخالق والإقرار بالعهد الذي أخذه عليه والرجاء بما وعده به والاستعاذة من شر ما جنى به العبد على نفسه وإضافة النعم إلى موجدها وإضافة **الذنب** إلى نفسه ووفور رغبة في المغفرة ، واعترافه بأنه لا يقدر على ذلك إلا هو فهذا

(١) مشكاة المصابيح مع شرح مرعاة المفاتيح، ٧١/٨

الاستغفار جامع لما يجب على العبد أن يقربه ويعترف ويدعو ويستغفر (أن تقول) بالمثناة الفوقية أي أيها المخاطب خطابا عاما أو أيها الراوي . قال القسطلاني : بصيغة المخاطب في الفرع . وقال الحافظ : قوله : أن يقول أي العبد ، وثبت في رواية أحمد (ج٤ : ص١٢٢) ، والنسائي : إن سيد الاستغفار أن يقول العبد ، وللترمذي من رواية عثمان بن ربيعة عن شداد : ألا أدلك على سيد الاستغفار ، وفي حديث جابر عند النسائي : تعلموا سيد الاستغفار . قلت : رواية." [١]

"ألست بربكم " (الأعراف : ١٧٢) فأقروا له بالربوبية وأذعنوا له بالوحدانية ، وبالوعد ما قال على لسان نبيه إن من مات لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة (أبوء لك بنعمتك علي) بضم الموحدة وسكون الواو بعدها همزة ممدودا أي اعترف بها من قولهم باء بحقه أي أقر به ، وأصله البواء ومعناه اللزوم ومنه بوأه الله منزلا إذا أسكنه فكأنه ألزمه به (وأبوء بذنبي) أي : أعترف به . وقيل : معناه احتمله برغمي لا أستطيع صرفه عني من قولهم باء فلان بذنبه إذا احتمله كرها لا يستطيع دفعه عن نفسه . قال القسطلاني : ولأبي ذر عن الكشميهني : وأبوء لك بذنبي ، وفي رواية الترمذي : وأعترف بذنوبي . قال الطيبي : واعترف أولا بأنه أنعم عليه ولم يقيده ليشمل كل النعم ، ثم اعترف بالتقصير وإنه لم يقم بأداء شكرها وعده ذنبا مبالغة في التقصير وهضم النفس – انتهى . قال الحافظ : ويحتمل أن يكون قوله : وأبوء لك بذنبي اعترافا بوقوع الذنب مطلقا ليصح الاستغفار منه لا أنه عد ما قصر فيه من أداء شكر النعم ذنبا (فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت) يؤخذ منه أن من اعترف بذنبه غفر له ، وقد وقع صريحا في حديث الإفك الطويل ، وفيه كما تقدم قبل أربعة أحاديث ((العبد إذا اعترف بذنبه وتاب تاب الله إليه)) وهذا الاعتراف فيما بينه وبين ربه لا عند الناس ، لأنه يحب الستر والكتمان عن الناس إذا اقترف ذنبا هو يستطيع أن يكتمه (قال) أي : النبي ﴿صلى الله عليه وسلم﴾ (ومن قالها) أي : هذه الكلمات (من النهار) أي : في بعض أجزاءه ، وفي رواية النسائي : فإن قالها حين يصبح ، وللترمذي : لا يقولها أحدكم حين يمسي فيأتي عليه قدر قبل أن يصبح أو حين يصبح فيأتي عليه قدر قبل أن يمسى (موقنا بها) . أي : مخلصا من قلبه مصدقا بثوابه . وقال القاري : أي : حال كونه." [٢]

---

(١) مشكاة المصابيح مع شرحه مرعاة المفاتيح، ٧٥/٨

(٢) مشكاة المصابيح مع شرحه مرعاة المفاتيح، ٧٧/٨

" – حديث واثلة أخرجه أيضا النسائي وابن حبان والحاكم . قوله " وحوله عصابة " بفتح اللام على الظرفية . والعصابة بكسر العين الجماعة من العشرة إلى الأربعين ولا واحد لها من لفظها وقد جمعت على عصائب وعصب

قوله : " بايعوني " المبايعة هنا عبارة عن المعاهدة سميت بذلك تشبيها بالمعارضة المالية كما في قوله تعالى ﴿ أن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ﴾ قوله " ولا تقتلوا أولادكم " قال محمد بن إسماعيل التيمي وغيره خص القتل بالأولاد لأنه قتل وقطيعة رحم فالعناية بالنهي عنه آكد ولأنه كان شائعا فيهم وهو وأد البنات أو قتل البنين خشية الأملاق أو خصهم بالذكر لأنهم بصدد أن لا يدفعوا عن أنفسهم

قوله : " ولا تأتوا ببهتان " البهتان الكذب الذي يبهت سامعه وخص الأيدي والأرجل بالافتراء لأن معظم الأفعال يقع بهما إذا كانت هي العوامل والحوامل للمباشرة والسعي ولذا يسمون الصنائع الأيادي وقد يعاقب الرجل بجناية قولية فيقال هذا بما كسبت يداك ويحتمل أن يكون المراد لا تبهتوا الناس كفاحا وبعضكم شاهد بعضا كما يقول قلت كذا بين يدي فلان قال الخطابي وقد تعقب بذكر الأرجل وأجاب الكرماني بأن المراد الأيدي وذكر الأرجل للتأكيد (ومحصله) إن ذكر الأرجل إن لم يكن مقتضيا فليس بمانع ويحتمل أن يكون المراد بما بين الأرجل والأيدي القلب لأنه هو الذي يترجم اللسان عنه فلذلك نسب إليه الافتراء وقال أبو محمد بن أبي جمرة يحتمل أن يكون قوله بين أيديكم أي في الحال . وقوله وأرجلكم أي في المستقبل لأن السعي من أفعال الأرجل وقال غيره أصل هذا كان في بيعة النساء وكني به كما قال الهروي عن نسبة ،لمرأة الولد الذي تزني به أو تلقطه إلى زوجها ثم لما استعمل هذا اللفظ في بيعة الرجال أحتيج إلى حمله على غير ما ورد فيه أولا

قوله : " ولا نعصوا في معروف " هو ما عرف من الشارع حسنه نهيا وأمرا قال النووي يحتمل أن يكون المراد ولا تعصوني ولا أحدا ولى الأمر عليكم في المعروف فيكون التقييد بالمعروف متعلقا بشيء بعده وقال غيره نبه بذلك على أن طاعة المخلوق إنما تجب فيما كان غير معصية لله فهي جديرة بالتوقي في معصية الله

قوله : " فمن وفى منكم " أي ثبت على العهد ولفظ وفي بالتخفيف وفي رواية بالتشديد وهما بمعنى

قوله : " فأجره على الله " هذا على سبيل التفخيم لأنه لما ذكر المبالغة المقتضية لوجود العوض أثبت ذكر الأجر وقد وقع التصريح في رواية في الصحيحين بالعوض فقال في الجنة

قوله : " ومن أصاب من ذلك شيئا فعوقب به فهو " أي العقاب كفارة له قال النووي عموم هذا الحديث مخصوص بقوله تعالى ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ﴾ فالمرتد إذا قتل على ارتداده لا يكون القتل له كفارة

قال الحافظ وهذا بناء على أن قوله من ذلك شيئا يتناول جميع ما ذكر وهو ظاهر

وقد قيل يحتمل أن يكون المراد ما ذكر بعد الشرك بقرينة أن المخاطب بذلك المسلمون فلا يدخل حتى يحتاج إلى إخراجه ويؤيده رواية مسلم من طريق أبي الأشعث عن عبادة في هذا الحديث ومن أتى منكم حدا إذ القتل على الشرك لا يسمى حدا ويجاب بأن خطاب المسلمين لا يمنع التحذير لهم من الإشراك

وأما كون القتل على الشرك لا يسمى حدا فإن أراد لغة أو شرعا فممنوع وإن أراد عرفا فذلك غير نافع فالصواب ما قاله النووي وقال الطيبي الحق أن المراد بالشرك الأصغر وهو الرياء ويدل عليه تنكير شيئا أي شركا أياما كان وتعقب بأن عرف الشارع إذا أطلق الشرك إنما يريد به ما يقابل التوحيد وقد تكرر هذا اللفظ في الكتاب والأحاديث حيث لا يراد به إلا ذلك

وقال القاضي عياض ذهب أكثر العلماء إلى أن الحدود كفارات واستدلوا بالحديث

ومن العلماء من وقف لأجل حديث أبي هريرة الذي أخرجه الحاكم في المستدرك والبزار من رواية معمر عن ابن أبي ذئب عن سعيد المقبري عن أبي هريرة " إن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال لا أدري الحدود كفارة لاهلها أم لا " قال الحافظ وهو صحيح على شرط الشيخين وقد أخرجه أحمد عن عبد الرزاق عن معمر وذكر الدارقطني أن عبد الرزاق تفرد بوصله وأن هشام بن يوسف رواه عن معمر فأرسله

وقد وصله الحاكم من طريق آدم بن أبي اياس عن ابن أبي ذئب فقويت رواية معمر قال القاضي عياض لكن حديث عبادة أصح إسنادا ويمكن الجمع بينهما أن يكون حديث أبي هريرة ورد أولا قبل أن يعلمه الله ثم أعلمه بعد ذلك وهذا جمع حسن لولا أن القاضي ومن تبعه جازمون بأن حديث عبادة المذكور كان بمكة ليلة العقبة لما بايع الأنصار رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم البيعة الأولى بمنى وأبو هريرة إنما أسلم بعد ذلك بسبع سنين عام خيبر فكيف يكون حديثه متقدما ويمكن أن يجاب بأن أبا هريرة لم يسمعه من النبي صلى الله عليه وآله وسلم وإنما سمعه من صحابي آخر كان سمعه من النبي صلى الله عليه وآله وسلم قديما ولم يسمع من النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعد ذلك أن الحدود كفارة كما سمع عبادة ولا يخفى ما في هذا من التعسف على انه يبطله أن أبا هريرة صرح بسماعه من النبي صلى الله عليه

وآله وسلم وأن الحدود لم تكن نزلت إذ ذاك ورجح الحافظ أن حديث عبادة المذكور لم يقع ليلة العقبة وإنما وقع في ليلة العقبة ما ذكره ابن إسحاق وغيره من أهل المغازي " أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال لمن حضر من الأنصار أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم فبايعوه على ذلك وعلى أن يرحل إليهم هو وأصحابه " وقد ثبت في الصحيح من حديث عبادة أنه قال : " بايعنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على السمع والطاعة في العسر واليسر والمنشط والمكره " الحديث ساقه البخاري في كتاب الفتن من صحيحه وأخرج أحمد والطبراني من وجه آخر عن عبادة أنها جرت له قصة مع أبي هريرة عند معاوية بالشام فقال يا أبا هريرة إنك لم تكن معنا إذ بايعنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على السمع والطاعة والنشاط والكسل وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وعلى أن نقول بالحق ولا نخاف في الله لومة لائم وعلى أن ننصر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا قدم علينا يثرب فنمنعه مما نمنع به أنفسنا وأزواجنا وأبناءنا ولنا الجنة الحديث

قال الحافظ والذي يقوي أن هذه البيعة المذكورة في حديث عبادة وقعت بعد فتح مكة بعد أن نزلت الآية التي في الممتحنة وهو قوله تعالى ﴿ يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك ﴾ ونزول هذه الآية متأخر بعد قصة الحديبية بلاخلاف والدليل على ذلك ما عند البخاري في كتاب الحدود في حديث عبادة هذا أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لما بايعهم قرأ الآية كلها وعنده في تفسير الممتحنة من هذا الوجه قال قرأ النساء . ولمسلم من طريق معمر عن الزهري قال فتلا علينا آية النساء قال " أن لا يشركن بالله شيئا " وللطبراني من هذا الحديث " بايعنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على ما بايع عليه النساء يوم الفتح " ولمسلم " أخذ علينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كما أخذ على النساء " فهذه أدلة ظاهرة في هذه البيعة إنما صدرت بعد نزول الآية بل بعد صدور البيعة بل بعد فتح مكة وذلك بعد اسلام أبي هريرة بمدة وقد أطال الحافظ في الفتح الكلام في كتاب الإيمان على هذا فمن رام الاستكمال فليراجعه (وأعلم) إن عبادة بن الصامت لم يتفرد برواية هذا المعنى بل روى ذلك على ابن أبي طالب وهو في الترمذي وصححه الحاكم وفيه " من أصاب ذنبا فعوقب به في الدنيا فالله أكرم من أن يثني العقوبة على عبده في الآخرة " وهو عند الطبراني بإسناد حسن ولفظه من أصاب ذنبا أقيم عليه حد ذلك الذنب فهو كفارة له . وللطبراني عن ابن عمر مرفوعا " ما عوقب رجل على ذنب إلا جعله الله كفارة لما أصيب من ذلك الذنب " قال ابن التين يريد بقوله فعوقب به أي بالقطع في السرقة والجلد أو الرجم في الزنا وأما قتل الولد فليس له عقوبة معلومة إلا أن يريد قتل النفس فكني عنه

وفي رواية الصنابحي عن عبادة في هذا الحديث ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ولكن قوله في حديث الباب فعوقب بع هو أعم من أن تكون العقوبة حدا أو تعزيرا قال ابن التين وحكى عن القاضي إسماعيل وغيره أن قتل القاتل إنما هو إرداع لغيره وأما في الآخرة فالطلب للمقتول قائم لأنه لم يصل إليه حق

قال الحافظ بل وصل إليه حق وأي حق فإن المقتول ظلما تكفر عنه ذنوبه بالقتل كما ورد في الخبر الذي صححه ابن حبان أن السيف محاء للخطايا

وروى الطبراني عن ابن مسعود قال إذا جاء القتل محا كل شيء وللطبراني أيضا عن عن الحسن بن علي نحوه . وللبزار عن عائشة مرفوعا لا يمر القتل بذنب إلا محاهفلولا القتل ما كفرت ولو كان حد القتل إنما شرع للإرداع فقط لم يشرع العفو عن القاتل ويستفاد من الحديث أن إقامة الحد كفارة للذنب ولو لم يتب المحدود

قال في الفتح وهو قول الجمهور وقيل لا بد من التوبة وبذلك جزم بعض التابعين وهو قول المعتزلة ووافقهم ابن حزم ومن المفسرين البغوي وطائفة يسيرة

قوله : " فهو إلى الله " قال المازرى فيه رد على الخوارج الذين يكفرون بالذنوب ورد على المعتزله الذين يوجبون تعذيب الفلسق إذا مات بلا توبة لأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أخبرنا بأنه تحت المشيئة ولم يقل لابد أن يعذبه وقال الطيبي فيه إشارة إلى الكف عن الشهادة بالنار على أحد أو بالجنة لأحد إلا من ورد النص فيه بعينه

قوله " إن شاء عفا عنه وإن شاء عاقبه " يشمل من تاب من ذلك ومن لم يتب وغلى ذلك ذهبت طائفة وذهب الجمهور إلى أن من تاب لا يبقى عليه مؤاخذة ومع ذلك لا يأمن من مكر الله لأنه لا إطلاع له هل قبلت توبته أم لا وقيل يفرق بين ما يجب فيه الحد وما لا يجب

قوله : " انطلق إلى أرض كذا وكذا " الخقال العلماء في هذا استحباب مفارقة التائب للمواضع التي أصاب بها الذنوب والأخدان المساعدين له على ذلك ومقاطعتهم ما داموا على حالهم وأن يستبدل بهم صحبة الخير والصلاح والمتعبدين الورعين

قوله : " نصف الطريق " هو بتخفيف الصاد أي بلغ نصفها كذا قال النووي

قوله : " فقال قيسوا ما بين الأرضين " هذا محمول على أن الله أمرهم عند اشتباه الأمر عليهم واختلافهم فيه أن يحكموا رجلا يمر بهم فمر الملك في صورة رجل فحكم بذلك

وقد استدل بهذا الحديث على قبول توبة القاتل عمدا

قال النووي هذا مذهب أهل العلم وإجماعهم ولم يخالف أحد منهم إلا ابن عباس وأما ما نقل عن بعض السلف من خلاف هذا فمراد قائله الزجر والتورية لا إنه يعتقد بطلان توبته وهذا الحديث وإن كان شرع من قبلنا وفي الاحتجاج به خلاف فليس هذا موضع الخلاف وإنما موضعه إذا لم يرد شرعنا بموافقته وتقديره فإن ورد كان شرعنا لنا بلا شك وهذا قد ورد شرعنا به وذلك قوله تعالى ﴿ والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس ﴾ إلى قوله ﴿ إلا من تاب ﴾ الآية وأما قوله تعالى ﴿ ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها " فقال النووي في شرح مسلم إن الصواب في معناها أن جزاءه جهنم فقد يجازى بذلك وقد يجازى بغيره وقد لا يجازى بل يعفى عنه فإن قتل عمدا مستحلا بغير حق ولا تأويل فهو كافر مرتد يخلد في جهنم بالإجماع وإن كان غير مستحل بل معتقدا تحريمه فهو فاسق عاص مرتكب كبيرة جزاؤها جهنم خالدا فيها وكن تفضل الله تعالى وأحبر أنه لا يخلد من مات موحدا فيها فلا يخلد هذا وكن قد يعفى عنه ولا يدخل النار أصلا وقد لا يعفى عنه بل يعذب كسائر عصاة الموحدين ثم يخرج معهم إلى الجنة ولا يخلد في النار قال فهذا هو الصواب في معنى الآية ولا يلزم من كونه يستحق أن يجازى بعقوبة مخصوصة أن يتحتم ذلك الجزاء وليس في الآية إخبار بأنه يخلد في جهنم وإنما فيها أنها جزاؤه أي يستحق أن يجازى بذلك وقد وردت الآية في رجل بعينه وقيل المراد بالخلود طول المدة لا الدوام وقيل معناها هذا جزاؤه أن جازاه وهذه الأقوال كلها ضعيفة أو فاسدة لمخالفتها حقيقة لفظ الآية ثم قال فالصواب حقيقة ما قدمناه اه كلام النووي . وينبغي أن نتكلم أولا في معنى الخلود ثم نبين ثانيا الجمع بين هذه الآية وما خالفها فنقول معنى الخلود الثبات الدائم قال في الكشاف عند الكلام على قوله تعالى ﴿ ولهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون ﴾ ما لفظه . والخلد الثبات الدائم والبقاء اللازم الذي لا ينقطع قال الله تعالى ﴿ وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفإن مت فهم الخالدون ﴾ وقال أمرؤ القيس ألا أنعم صباحا أيها الطل البالي وهل ينعمن من كان في العصر الخالي وهل ينعمن إلا سعيد مخلد قليل الهموم لا يبيت على حال

اه

وقال في القاموس وخلد خلودا دام اه وأما بيام الجمع بين هذه الآية وما خالفها فنقول لا نزاع أن قوله تعالى ﴿ ومن يقتل مؤمنا ﴾ من صيغ العموم الشاملة للتائب وغير التائب بل للمسلم والكافر والاستثناء المذكور في آية الفرقان أعني قوله تعالى ﴿ إلا من تاب ﴾ بعد قوله تعالى ﴿ ولا يقتلون النفس التي حرم

الله إلا بالحق ﴾ مختص بالتائبين فيكون مخصصا لعموم قوله تعالى ﴿ ومن يقتل مؤمنا ﴾ إلا على ما هو المذهب الحق من أنه ينبني العام على الخاص مطلقا تقدم أو تأخر أو قارن فظاهر وأما على مذهب من قال أن العام المتأخر ينسخ الخاص المتقدم فإذا سلمنا تأخر قوله تعالى ﴿ ومن يقتل مؤمنا ﴾ على آية الفرقان فلا نسلم تأخرها عن العمومات القاضية بأن القتل مع التوبة من جملة ما يغفر الله كقوله تعالى ﴿ يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله أن الله يغفر الذنوب جميعا ﴾ وقوله تعالى ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ ومن ذلك ما أخرجه مسلم عن أبي هريرة " أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال من تاب قبل طلوع الشمس من مغربها تاب الله عليه ﴾ وما أخرجه الترمذي وصححه من حديث صفوان بن عسال قال " قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم باب من قبل المغرب يسير الراكب في عرضه أربعين أو سبعين سنة خلقه الله تعالى يوم خلق السموات والأرض مفتوح للتوبة لا يغلق حتى تطلع الشمس من مغربها

وأخرج الترمذي أيضا عن ابن عمر " أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال أن الله عز و جل يقبل توبة العبد ما لم يغرغر " وأخرج مسلم من حديث أبي موسى ﴿ أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال أن الله عز و جل يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها ﴾ ونحو هذه الأحاديث مما يطول تعداده (لا يقال) إن هذه المعلومات مخصصة بقوله تعالى ﴿ ومن يقتل مؤمنا متعمدا ﴾ الآية . لأنا نقول الآية أعم من وجه وهو شمولها للتائب وغيره وأخص من وجه وهو كونها في القاتل وهذه العمومات أعم من وجه وهو شمولها لمن كان ذنبه القتل ولمن كان ذنبه غير القتل وأخص من وجه وهو كونها في التائب وإذا تعارض عمومان لم يبق إلا الرجوع إلى الترجيح ولا شك أن الأدلة القاضية بقبول التوبة مطلقا أرجح لكثرتها وهكذا أيضا يقال أن الأحاديث القاضية بخروج الموحدين من النار وهي متواترة المعني كما يعرف ذلك من له المام بكتب الحديث تدل على خروج كل موحد سواء كان ذنبه القتل أو غيره والآية القاضية بخروج من قتل نفسا هي أعم من أن يكون القاتل موحدا أو غير موحد فيتعارض عمومان وكلاهما ظني الدلالة

ولكن عموم آية القتل قد عورض بما سمعته بخلاف أحاديث خروج الموحدين فإنها إنما عورضت بما هو أعم منها مطلقا كآيات الوعيد للعصاة الدالة على الخلود الشاملة للكافر والمسلم ولا حكم لهذه المعارضة أو بما هو أخص منها مطلقا كالأحاديث القاضية بتخليد بعض أهل المعاصي نحو من قتل نفسه وهو يبني العام على الخاص وبما قررناه يلوح لك انتهاض القول بقبول توبة القاتل إذا تاب وعدم خلوده في

النار إذا لم يتب ويتبين لك أيضا أنه لا حجة فيما احتج به ابن عباس من أن آية الفرقان مكية منسوخة بقوله تعالى ﴿ ومن يقتل مؤمنا متعمدا ﴾ الآية كما أخرج ذلك عنه البخاري ومسلم وغيرهما وكذلك لا حجة له فيهما أخرجه النسائي والترمذي عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول " يجيء المقتول متعلقا بالقاتل يوم القيامة ناصيته ورأسه بيده وأوداجه تشخب دما يقول يا رب قتلني هذا حتى يدنيه من العرش " وفي رو ا ية للنسلئي " فيقول أي رب سل هذا فيما قتلني " لأن غاية ذلك وقوع المنازعة بين يدي الله عز و جل وذلك لا يستلزم أخذ التائب بذلك **الذنب** ولا تخليده في النار على فرض عدم التوبة والتوبة النافعة ههنا هي **الاعتراف بالقتل** عند الوارث إن كان له وارث أو السلطان إن لم يكن له وارث والندم عن ذلك الفعل والعزم على ترك العود إلى مثله لا مجرد الندم والعزم بدون اعتراف وتسليم للنفس أو الدية إن اختارها مستحقها لأن حق الآدمي لا بد فيه من أمر زائد على حقوق الله وهو تسليمه أو تسليم عوضه بعد **الاعتراف به** (فإن قلت) فعلام تحمل حديث أبي هريرة وحديث معاوية المذكورين في أول الباب فإن الأول يقضي بأن القاتل أو المعين على القتل ياقى الله مكتوبا بين عينيه الإياس من الرحمة والثاني يقضي بأن ذنب القتل لا يغفره الله . قلت هما محمولان على عدم صدور التوبة من القاتل والدليل على هذا التأويل ما في الباب من الأدلة القاضية بالقبول عموما وخصوصا واو لم يكن من ذلك إلا حديث الرجل القاتل للمائة التي تنازعت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب . وحديث عبادة بن الصامت المذكور قبله فإنهما يلجئان إلى المصير إلى ذلك اليأويل ولا سيما مع ما قدمنا من تأخر تاريخ حدبث عبادة ومع كون الحديثين في الصحيحين بخلاف حديث أبي هريرة و معاوية وأيضا في حديث معاوية نفسه ما يرشد إلى هذا التأويل فإنه جعل الرجل القاتل عمدا مقترنا بالرجل الذي يموت كافرا ولا شك أن الذي يموت كافرا مصرا على ذنبه غير تائب من المخلدين في النار فيستفاد من هذا التقييد أن التوبة تمحو ذنب الكفر فيكون ذلك القرين الذي هو القتل أولى بقبولها

وقد قال العلامة الزمخشري في الكشلف أن هذه الآية يعني قوله ﴿ ومن يقتل مؤمنا ﴾ فيها من التهديد والإيعاد والإبراق والإرعاد أمر عظيم وخطب غليظ قال ومن ثم روى عن ابن عباس ما روى من أن توبة قاتل المؤمن عمدا غير مقبولة . وعن سفيان كان أهل العلم إذا سئلوا قالوا لا توبة له وذلك محمول منهم على الاقتداء بسنة الله في التغليظ والتشديد وإلا فكل ذنب ممحو بالتوبة وناهيك بمحو الشرك دليلا ثم ذكر حديث " لزوال الدنيا أهون على الله من قتل رجل مسلم " وهو عند النسائي من حديث بريدة . وعند ابن ماجه من حديث البراء . وعند النسائي أيضا من حديث ابن عمر

وأخرجه أيضا الترمذي

وأما حديث وائلة بن الأسقع الذي ذكره المصنف في الرجل الذي أوجب على نفسه النار بالقتل فأمرهم صلى الله عليه وآله وسلم بأن يعتقوا عنه فهو من أدلة قبول توبة القاتل عمدا ولا بد من حمله على التوبة فإذا تاب القاتل عمدا فإنه يشرع له التفكير لهذا الحديث وهو دليل على ثبوت الكفارة في قتل العمد كما ذهب إليه الشافعي وأصحابه . ومن أهل البيت القاسم والهادي والمؤيد بالله والإمام يحيى وقد حكى في البحر عن الهادي عدم الوجوب في العمد ولكنه نص في الأحكام والمنتخب على الوجوب فيه وهذا إذا عفى عن القاتل أو رضي الوارث بالدية وأما إذا اقتص منه فلا كفارة عليه بل القتل كفارته لحديث عبادة المذكور في الباب . ولما أخرجه أبو نعيم في المعرفة " أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال القتل كفارة " وهو من حديث خزيمة بن ثابت وفي إسناده ابن لهيعة قال الحافظ لكنه من حديث ابن وهب عنه فيكون حسنا . وروواه الطبراني في الكبير عن الحسن بن علي موقوفا عليه

وأما الكفارة في قتل الخطأفهي واجبة بالإجماع وهو نص القرآن الكريم ." (١)

"المضاف أو ذكروا العرض الأكبر على الله (﴿فاستغفروا لذنوبهم﴾) فتابوا عنها لقبحها نادمين على فعلها، وهذا حقيقة التوبة فأما الاستغفار باللسان فلا أثر له في إزالة **الذنب**، وقوله لذنوبهم أي لأجل ذنوبهم: (﴿ومن يغفر الذنوب إلا الله﴾) من مبتدأ ويغفر خبره وفيه ضمير يعود إلى من وإلا الله بدل من الضمير في يغفر والاستفهام بمعنى النفي، والتقدير ولا أحد يغفر الذنوب إلا الله وفيه تطييب لنفوس العباد وتنشيط للتوبة وبعث عليها وردع عن اليأس والقنوط وبيان لسعة رحمته وقرب مغفرته من التائب وإشعار بأن الذنوب وإن جلت فإن عفوه أجل وكرمه أعظم، وفي إسناده غفران الذنوب إلى نفسه المقدسة سبحانه وإثباته لذاته المقدسة بعد وجود الاستغفار وتنصل عبيده دلالة على وجوب ذلك قطعا بحسب الوعد الذي لا خلف له (﴿ولم يصروا على ما فعلوا﴾) جملة حالية من فاعل استغفروا أي استغفروا غير مصرين أو الجملة منسوقة على فاستغفروا أي: ترتب على فعلهم الفاحشة ذكر الله تعالى والاستغفار لذنوبهم وعم الإصرار عليها، وتكون الجملة من قوله: (﴿ومن يغفر الذنوب إلا الله﴾) على هذين الوجهين معترضة بين المتعاطفين على الوجه الثاني وبين الحال وذي الحال على الأول والمعنى ولم يقيموا على قبيح فعلهم (﴿وهم يعلمون﴾) [آل عمران: ١٣٥] حال من فاعل استغفروا أو من فاعل يصروا أي ولم يصروا على ما فعلوا من الذنوب حال ما كانوا عالمين بكونها محرمة لأنه قد يعذر من لا يعلم حرمة الفعل، أما العالم بالحرمة فلا

---

(١) نيل الأوطار، ٧/١٢٤

يعذر ومفعول يعلمون محذوف للعلم به تقديره يعلمون أن الله يتوب على من تاب أو تركه أولى أو أنها معصية أو أن الإصرار ضار أو أنهم إذا استغفروا غفر لهم، وسقط لأبي ذر من قولها ﴿ذكروا الله﴾ الخ وقال الآية بدل ذلك.

٦٣٠٦ – حدثنا أبو معمر، حدثنا عبد الوارث، حدثنا الحسين، حدثنا عبد الله بن بريدة، عن بشير بن كعب العدوى، قال: حدثنى شداد بن أوس – رضى الله عنه – عن النبي –صلى الله عليه وسلم– قال: «سيد الاستغفار أن تقول: اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت خلقتنى وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك على وأبوء بذنبى فاغفر لى فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، قال: «ومن قالها من النهار موقنا بها فمات من يومه، قبل أن يمسى فهو من أهل الجنة، ومن قالها من الليل وهو موقن بها فمات قبل أن يصبح فهو من أهل الجنة».

وبه قال: (حدثنا أبو معمر) عبد الله بن عمرو بن أبي الحجاج التيمي المقعد المنقري بكسر الميم وسكون النون وفتح القاف قال: (حدثنا عبد الوارث) بن سعيد قال: (حدثنا الحسين) بضم الحاء ابن ذكوان المعلم قال: (حدثنا عبد الله بن بريدة) بضم الموحدة ابن الحصيب الأسلمي أبو سهل المروزي قاضيها (عن بشير بن كعب) بضم الموحدة وفتح المعجمة (العدوي) ولأبي ذر قال: حدثني بالإفراد بشير بن كعب العدوي (قال: حدثني) بالإفراد (شداد بن أوس) الأنصاري (–رضي الله عنه– عن النبي –صلى الله عليه وسلم–) أنه قال:

(سيد الاستغفار) ترجم البخاري بالأفضلية، والحديث بلفظ السيادة فكأنه كما في الفتح أشار إلى أن المراد بالسيادة الأفضلية والسيد هنا مستعار من الرئيس المقدم الذي يعتمد عليه في الحوائج ويرجع إليه في الأمور كهذا الدعاء الذي هو جامع لمعاني التوبة كلها (أن تقول) بصيغة المخاطب في الفرع. وقال في الفتح: أن يقول العبد وثبت في رواية أحمد والنسائي: إن سيد الاستغفار أن يقول العبد: (اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني) كذا في الفرع وأصله أنت مرة واحدة. وقال الحافظ ابن حجر: أنت أنت بالتكرير مرتين وسقطت الثانية من معظم الروايات (وأنا عبدك) قال في شرح المشكاة: يجوز أن تكون حالا مؤكدة وأن تكون مقدرة أي أنا عابد لك كقوله تعالى: ﴿وبشرناه بإسحق نبيا من الصالحين﴾ [الصافات: ١١٢] وينصره عطف قوله: (وأنا على عهدك ووعدك) أي ما عاهدتك عليه وواعدتك من الإيمان بك وإخلاص الطاعة لك (ما استطعت) من ذلك. وفيه إشارة إلى **الاعتراف بالعجز** والقصور عن كنه الواجب من حقه تعالى. وقد يكون المراد كما قاله ابن بطال بالعهد العهد الذي أخذه الله على عباده حيث أخرجهم أمثال

الذر وأشهدهم على أنفسهم ﴿ألست بربكم﴾ [الأعراف: ١٧٢] فأقروا له بالربوبية وأذعنوا له بالوحدانية وبالوعد كما قال

على لسان نبيه -صلى الله عليه وسلم-: إن من مات لا يشرك بالله شيئا وأدى ما افترض عليه أن يدخله الجنة. (أعوذ بك من شر ما صنعت أبوء) بضم الموحدة وسكون الواو بعدها همزة ممدودا أعترف (لك بنعمتك علي وأبوء بذنبي) أعترف به أو أحمله برغمي فلا أستطيع صرفه عني، ولأبي ذر عن الكشميهني وأبوء لك بذنبي (اغفر لي) ولأبي ذر." (١)

"فاغفر لي بزيادة فاء (فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت).

قال في شرح المشكاة: اعترف أولا بأنه أنعم عليه ولم يقيده ليشمل كل النعم، ثم اعترف بالتقصير وأنه لم يقم بأداء شكرها وعده ذنبا مبالغة في التقصير وهضم النفس اهـ.

قال في الفتح: ويحتمل أن يكون قوله: وأبوء لك بذنبي اعترافا بوقوع **الذنب** مطلقا ليصح الاستغفار منه لا أنه عد ما قصر فيه من أداء النعم ذنبا. (قال) -صلى الله عليه وسلم- (ومن قالها) أي الكلمات (من النهار موقنا) مخلصا (بها) من قلبه مصدقا بثوابها (فمات من يومه قبل أن يمسي فهو من أهل الجنة) الداخلين لها ابتداء من غير دخول النار لأن الغالب أن المؤمن بحقيتها المؤمن بمضمونها لا يعصي الله تعالى أو أن الله يعفو عنه ببركة هذا الاستغفار قاله في الكواكب. (ومن قالها من الليل وهو موقن) مخلص (بها فمات قبل أن يصبح فهو من أهل الجنة) ويحتمل أن يكون هذا فيمن قالها ومات قبل أن يفعل ما يغفر له به ذنوبه.

وقال في بهجة النفوس: من شروط الاستغفار صحة النية والتوجه والأدب فلو أن أحدا حصل الشروط واستغفر بغير هذا اللفظ الوارد واستغفر آخر بهذا اللفظ الوارد لكن أخل بالشروط هل يتساويان؟ والذي يظهر أن اللفظ المذكور إنما يكون سيد الاستغفار إذا جمع الشروط المذكورة قال: وقد جمع هذا الحديث من بديع المعاني وحسن الألفاظ ما يحق له أن يسمى سيد الاستغفار ففيه الإقرار لله وحده بالإلهية والعبودية **والاعتراف بأنه** الخالق والإقرار بالعهد الذي أخذه عليه والرجاء بما وعده به والاستعاذة من شر ما جنى العبد على نفسه وإضافة النعماء إلى موجدها وإضافة **الذنب** إلى نفسه ورغبته في المغفرة واعترافه بأنه لا يقدر أحد على ذلك إلا هو وفي ذلك الإشارة إلى الجمع بين الشريعة والحقيقة وأن تكاليف الشريعة لا تحصل إلا إذا كان في ذلك عون من الله تعالى اهـ.

---

(١) شرح القسطلاني = إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، ١٧٥/٩

وقال في الكواكب: لا شك أن في الحديث ذكر الله تعالى بأكمل الأوصاف وذكر العبد نفسه بأنقص الحالات وهي أقصى غاية التضرع ونهاية الاستكانة لمن لا يستحقها إلا هو، أما الأول فلما فيه من **الاعتراف بوجود** الصانع وتوحيده الذي هو أصل الصفات العدمية المسماة بصفات الجلال **والاعتراف بالصفات** السبعة الوجودية المسماة بصفات الإكرام وهي القدرة اللازمة من الخلق الملزومة للإرادة والعلم والحياة والخامسة الكلام اللازم من الوعد والسمع والبصر اللازمان من المغفرة إذ المغفرة للمسموع والمبصر لا يتصور إلا بعد السماع والإبصار، وأما الثاني فلما فيه أيضا من **الاعتراف بالعبودية** وبالذنوب في مقابلة النعمة التي تقتضي نقيضها وهو الشكر انتهى.

والحديث أخرجه النسائي في الاستعاذة وفي اليوم والليلة.

٣ - باب استغفار النبي -صلى الله عليه وسلم- فى اليوم والليلة

(باب) مقدار (استغفار النبي -صلى الله عليه وسلم- في اليوم والليلة).

٦٣٠٧ - حدثنا أبو اليمان، أخبرنا شعيب، عن الزهرى، أخبرنى أبو سلمة بن عبد الرحمن قال: قال أبو هريرة: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: «والله إنى لأستغفر الله وأتوب إليه فى اليوم أكثر من سبعين مرة».

وبه قال: (حدثنا أبو اليمان) الحكم بن نافع قال: (أخبرنا شعيب) هو ابن أبي حمزة (عن الزهري) محمد بن مسلم أنه قال: (أخبرني) بالإفراد (أبو سلمة بن عبد الرحمن) بن عوف (قال: قال أبو هريرة) -رضي الله عنه- (سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول):

(والله إني لأستغفر الله وأتوب) زاد أبو ذر عن الكشميهني إليه (في اليوم أكثر من سبعين مرة) أي أفعل ذلك الاستغفار إظهارا للعبودية وافتقارا لكرم الربوبية أو تعليما منه لأمته أو من ترك الأولى أو قاله تواضعا أو أنه -صلى الله عليه وسلم- لما كان دائم الترقي في معارج القرب كان كلما ارتقى درجة ورأى ما قبلها دونها استغفر منها، لكن قال في الفتح: إن هذا مفرع على أن العدد المذكور في استغفاره كان مفرقا بحسب تعدد الأحوال وظاهر ألفاظ الحديث يخالف ذلك، وفي حديث أنس: إني لأستغفر الله في اليوم سبعين مرة والتعبير بالسبعين قيل هو على ظاهره، وقيل المراد التكثير والعرب تضع السبع والسبعين والسبعمائة

موضع الكثرة، وقوله في حديث الباب أكثر مبهم يحتمل أن يفسر بحديث أبي هريرة لأستغفر الله في اليوم مائة مرة، وفي حديث الأعز عند مسلم." (١)

"أن النفس الروح أو غيرها حتى قيل إن فيها ألف قول وظلما مصدر وكثيرا بالمثلثة نعت له لا بالمنعوت (ولا يغفر الذنوب إلا أنت) فليس لي حيلة في دفعها فأنا المفتقر إليك المضطر الموعود بالإجابة (فاغفر لي مغفرة من عندك) الفاء للسببية واغفر لفظه لفظ الأمر ومعناه الدعاء وإلا إيجاب للنفي. وفائدة قوله: من عندك وإن كان الكل من عند الله أن فضل الله ومغفرته لا في مقابلة عمل ولا بإيجاب على الله وتفيد العندية معنى القرب في المنزلة (وارحمني) عطف على سابقه (إنك أنت الغفور) فعول بمعنى فاعل (الرحيم) بمعنى راحم، وفي الكلام لف ونشر مرتب لأن طلب المغفرة بقوله: اغفر لي وطلب الرحمة بقوله: ارحمني، فالتقدير اغفر لي إنك أنت الغفور وارحمني إنك أنت الرحيم، وفي الكلام حذف لدلالة ما تقدم عليه والتقدير ولا يغفر الذنوب إلا أنت ولا يرحم العباد إلا أنت فحذف ولا يرحم العباد إلا أنت لدلالة وارحمني، ويحتمل أن يكون التقدير ولا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفر لي ولا يرحم العباد إلا أنت فارحمني.

وهذا الدعاء من أحسن الأدعية لا سيما في ترتيبه فإن فيه تقديم نداء الرب واستغاثته بقوله: اللهم ثم **الاعتراف بالذنب** في قوله: ظلمت نفسي ثم **الاعتراف بالتوحيد** إلى غير ذلك مما لا يخفى مع ما اشتمل عليه من التأكيد بقوله: إنك أنت الغفور الرحيم بكلمة إن وضمير الفصل وتعريف الخبر باللام وبصيغة المبالغة.

(تنبيه):

الأمر في قوله –صلى الله عليه وسلم– قل يقتضي جواز الدعاء به في الصلاة من غير تعيين محله، لكنه يخصص بالموضع اللائق بالدعاء، وعينه بعضهم في السجود لحديث: فأما السجود فاجتهدوا فيه بالدعاء، وعينه آخرون بعد التشهد لحديث: ثم ليتخير بعد ذلك في المسألة ما شاء، وهذا الأخير رجحه ابن دقيق العيد، ويؤيده أن الأئمة كالبخاري والنسائي والبيهقي وغيرهم احتجوا بهذا الحديث للدعاء في آخر الصلاة، وقال النووي: إنه استدلال صحيح. وقال الفاكهاني: الجمع بينهما في المحلين أولى.

وحديث الباب سبق في أواخر صفة الصلاة قبيل كتاب الجمعة.

(وقال عمرو): بفتح العين ولأبي ذر عمرو بن الحارث فيما وصله البخاري في التوحيد (عن يزيد) بن حبيب

---

(١) شرح القسطلاني = إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، ١٧٦/٩

(عن أبي الخير) مرثد (أنه سمع عبد الله بن عمرو) أي ابن العاص (قال أبو بكر -رضي الله عنه- للنبي -صلى الله عليه وسلم-). وثبت قوله إنه لأبي ذر عن الكشميهني.

٦٣٢٧ - حدثنا على، حدثنا مالك بن سعير، حدثنا هشام بن عروة عن أبيه، عن عائشة ﴿ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها﴾ [الإسراء: ١١٠] أنزلت فى الدعاء.

وبه قال: (حدثنا علي) هو ابن سلمة اللبقي بفتح اللام والموحدة بعدها قاف مكسورة كما قاله الكلاباذي قال: (حدثنا مالك بن سعير) بضم السين وفتح العين المهملتين وبعد التحتية الساكنة راء ابن الخمس بكسر الخاء المعجمة وسكون الميم بعدها سين مهملة قال: (حدثنا هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة) -رضي الله عنها- (﴿ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها﴾ أنزلت في الدعاء) وقال به ابن عباس فيما رواه عنه عكرمة، وقال به مجاهد وسعيد بن جبير ومكحول وعروة بن الزبير، وقال آخرون: ولا تجهر بصلاتك أي بقراءة صلاتك على حذف مضاف لأنه يلتبس إذ الجهر والمخافتة يعتقبان على الصوت لا غير والصلاة أفعال وأذكار، وسبق في تفسير سورة الإسراء حديث ابن عباس أن النبي -صلى الله عليه وسلم- كان إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن، فإذا سمعه المشركون سبوا فنزلت الآية. وحديث عائشة ظاهره العموم في الصلاة وخارجها لكن روى حديثها هذا ابن خزيمة والحاكم، وزاد فيه التشهد فهو مخصص لإطلاقه كما مر في آخر الإسراء والله أعلم.

٦٣٢٨ - حدثنا عثمان بن أبى شيبة، حدثنا جرير، عن منصور، عن أبى وائل، عن عبد الله - رضى الله عنه - قال: كنا نقول فى الصلاة السلام على الله السلام على فلان فقال لنا النبى -صلى الله عليه وسلم- ذات يوم: «إن الله هو السلام فإذا قعد أحدكم فى الصلاة فليقل: التحيات لله -إلى قوله- الصالحين فإذا قالها أصاب كل عبد لله فى السماء والأرض صالح أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ثم يتخير من الثناء ما شاء».

وبه قال: (حدثنا عثمان بن أبي شيبة) هو عثمان بن محمد بن أبي شيبة واسم أبي شيبة إبراهيم بن عثمان العبسي الكوفي أخو أبي بكر والقاسم قال: (حدثنا جرير) هو ابن عبد الحميد الرازي (عن منصور) هو ابن المعتمر (عن أبي وائل) شقيق بن سلمة (عن عبد الله) بن مسعود (-رضي الله عنه-) أنه (قال: كنا نقول في الصلاة: السلام على الله) زاد يحيى في روايته عند المؤلف في باب ما يتخير من الدعاء بعد التشهد من عباده، وأخرجه أبو داود عن مسدد." (١)

(١) شرح القسطلاني = إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، ٩/١٩٠

"بلتعة لعل الله اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم وكما تقول لمن تحبه ويؤذيك اصنع ما شئت فلست بتارك لك وليس المراد من ذلك الحث على الفعل بل إظهار الجفاوة وقال القرطبي فائدة هذا الحديث أن العود إلى **الذنب** وإن كان أقبح من ابتدائه لأنه أضاف إلى ملابسة **الذنب** نقض التوبة لكن العود إلى التوبة أحسن من ابتدائها لأنه أضاف إليها ملازمة الطلب من الكريم والإلحاح في سؤاله **والاعتراف بأنه** لا غافر للذنب سواء وقال النووي في هذا الحديث أن الذنوب وإن تكررت مائة مرة بل ألفا أو أكثر وتاب في كل مرة قبلت توبته ولو تاب من الجميع توبة واحدة صحت توبته قلت هذا الأخير بالإجماع وإنما خالف من خالف إذا تاب من بعض الذنوب أو إذا." (١)

"في مذهب الشافعي يشترط للإحباط موته على الكفر ولا يعرف في مذهب المعتزلي أن كل معصية تحبط جميع الأعمال ثم حمله على ما ذكرناه أولى من حمله على التغليظ مع أنه لا ينافيه والله تعالى أعلم أو كما قال شك الراوي أي قال الرسول أو غيره ما ذكرته أو قال مثل ما ذكرته لك وهو تنبيه على النقل بالمعنى وهو الأولى لئلا يتوهم نقل اللفظ أيضا رواه مسلم وعن شداد بن أوس قال قال رسول الله سيد الاستغفار قال الطيبي استعير لفظ السيد من الرئيس المقدم الذي يعمد إليه في الحوئج لهذا الذي هو جامع لمعاني التوبة كلها وقد سبق أن التوبة غاية الاعتذار ا هـ وتبعه ابن حجر وهو يفيد أن المراد بالاستغفار إنما هو التوبة والظاهر من الحديث الإطلاق مع أن جامعيته لمعاني التوبة ممنوعة كما لا يخفى إذ ليس فيه إلا **الاعتراف بالذنب** الناشيء عن الندامة وأما العزم على أن لا يعود وأداء الحقوق لله والعباد فلا يفهم منهـ أصلا أن تقول أي أيها الراوي أو أيها المخاطب خطابا عاما اللهم أنت ربي أي ورب كل شيء بالإيجاد والإمداد لا إله إلا أنت أي للعباد خلقتني استئناف بيان للتربية وأنا عبدك أي مخلوقك ومملوكك وهو حال كقوله وأنا على عهدك ووعدك أي أنا مقيم على الوفاء بعهد الميثاق وأنا موقن بوعدك يوم الحشر والتلاق ما استطعت أي بقدر طاقتي وقيل أي على ما عاهدتك ووعدتك من الإيمان بك والإخلاص من طاعتك وأنا مقيم على ما عاهدت إلي من أمرك ومتمسك به ومتنجز وعدك في المثوبة والأجر عليه واشتراط الاستطاعة اعتراف بالعجز والقصور عن كنه الواجب في حقه تعالى أي لا أقدر أن أعبدك حق عبادتك ولكن أجتهد بقدر طاقتي وقال صاحب النهاية واستثنى بقوله ما استطعت موضع القدر السابق لأمره أي إن كان قد جرى القضاء على أن أنقض العهد يوما فإني أميل عند ذلك إلى الاعتذار بعدم الاستطاعة في

---

(١) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، ١٧٧/٨

دفع ما قضيت أعوذ بك من شر ما صنعت أي من أجل شر صنعي بأن لا تعاملني بعملي أبوء لك أي ألتزم وأرجع." (١)

"بعينها قال مجتهد ولم يقل صالح أو عابد فجعل أي طفق وشرع المجتهد يقول أي للمذنب أقصر أمر من باب الأفعال أي أمسك وامتنع وفي رواية أقصر أقصر عما أنت فيه أي من **الذنب** فيقول أي الآخر خلني وربي أي اتركني معه فإنه غفور رحيم وتكرر هذا الكلام والجواب حتى وجده أي المجتهد المذنب يوما أي وقتا ما على ذنب استعظمه

أي المجتهد ذلك **الذنب** فقال اقصر فقال خلني وربي أبعثت بصيغة المجهول بالاستفهام الإنكاري أي أرسلك الله علي رقيبا أي حافظا فقال أي المجتهد من كمال غروره وعجبه وحقارة صاحبه لارتكاب عظيم ذنبه والله لا يغفر الله لك أبدا ولا يدخلك الجنة أي من غير سابقة عقوبة فهو مبالغة غاية المبالغة وأما قول ابن حجر تأكيدا لما قبله لأن عدم الغفران لازم لعدم دخول الجنة فغير صحيح لأن المؤمن المذنب قد لا يغفر الله له فيعذبه ثم يدخله الجنة كما عليه أهل السنة فبعث الله إليهما ملكا فقبض أي عزرائيل أرواحهما أي روحيهما على حد صغت قلوبكما التحريم فاجتمعا أي بأرواحهما عنده أي في محل حكمه وهو البرزخ أو تحت عرشه فقال للمذنب ادخل الجنة برحمتي أي جزاء لحسن ظنك بي وفي العدول عن التعبير بالمجتهد نكتة لا تخفي وهي أن اجتهاده في العبادة ضاع لقلة علمه ومعرفته بصفات ربه فانقلب الأمر وصار في **الذنب** كالآخر والمذنب بحسن عقيدته واعترافه بالتقصير في معصيته منزل المجتهد أتستطيع الهمزة للإنكار أي أتقدر أن تحظر بضم الظاء المعجمة أي تمنع وتحرم على عبدي رحمتي أي التي وسعت كل شيء في الدنيا وخصت للمؤمنين في العقبى فقال لا يا رب اعترف حين لا ينفعه **الاعتراف** **قال** أي الرب اذهبوا به خطابا للملائكة الموكلين بالنار أو لذلك الملك والجمع للتعظيم أو لكبره كأنه جمع إلى النار حتى يذوق العذاب جزاء على غروره وعجبه العجاب ولا دلالة في الحديث على كفره ليكون مخلدا في النار وأغرب ابن الملك حيث قال إدخاله النار كان مجازاة له على قسمه بأن الله لا يغفر للمذنب." (٢)

"ثلاثا وثلاثا نصب على المصدر وعامله فأعاد فأمر به فقطع وجيء به أي بالسارق فقال له رسول الله استغفر الله أي اطلب باللسان

---

(١) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، ١٨٠/٨

(٢) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، ١٩٣/٨

مغفرة الله وتب إليه أي ارجع إلى الله بالجنان فقال أي السارق استغفر الله وأتوب إليه فقال رسول الله اللهم تب عليه ثلاثا أي اقبل توبته أو ثبته عليها وهذا منه يدل على أن الحد ليس مطهرا بالكلية مع فساد الطوية وإنما هو مطهر لعين ذلك **الذنب** فلا عقاب عليه ثانيا من جهة الرب وقال الطيبي الأمر بالاستغفار بعد القطع وتكرير رسول الله الاستغفار له تأكيد وتقرير لتوبته اه وما فيه لا يخفى قال القاضي وبهذا الحديث يستشهد علي أن للإمام أن يعرض للسارق بالرجوع وأنه إن رجع بعد **الاعتراف قبل** لإسقاط الحد كما في الزنا وهو أصح القولين المحكيين عن الشافعي ولمن زعم أن السرقة لا تثبت بالإقرار مرة واحدة كأحمد وأبي يوسف وزفر أن يتمسك به أيضا لأنه لو ثبت بإقراره الأول لوجب عليه إقامة الحد ويحرم تلقينه بالرجوع لقوله في حديث عبد الله بن عمر تعافوا بالحدود فيما بينكم فما بلغني من حد فقد وجب وجوابه أنه عليه الصلاة والسلام إنما لقنه لما رأى أن له مخرجا عنه بالرجوع وقد قال ادرؤوا الحدود عن المسلمين ما استطعتم فإن كان له مخرج فخلوا سبيله وإنما يجب حيث لم يكن له مخرج قال الخطابي وجه قوله عليه الصلاة والسلام ما أخالك سرقت عندي أنه ظن بالمعترف غفلة عن السرقة وأحكامها أو لم يعرف معناها فأحب أن يستبين ذلك منه يقينا وقد نقل تلقين السارق عن جماعة من الصحابة اه وفيه أنه لم يقع منه إلا إعادة الإقرار ولم يظهر منه استبانة أمر السرقة وأحكامها إلا ظنا ولا يقينا وقال الطيبي ويمكن أن يقال أنه صلى الله تعالى عليه وسلم ظن ما ظن لما اعترف الرجل ذلك **الاعتراف والحال** أنه لم يوجد معه متاع ما فإن هذه الإمارة كافية في الظن بالخير من المسلمين اه وفيه إن ظن الخير بالمسلم لا يتوقف على أمارة مع أن من حسن الظن بالمسلم أيضا أنه." (١)

"اللغويين المغفرة مأخوذة من الغفر وهو نبت تداوى به الجراح إذا ذر عليها دملها وأبرأها فإن قال قائل ما معنى قوله مغفرة من عندك وهل تكون المغفرة إلا من عنده فالجواب أن المعنى هب لي الغفران بفضلك وإن لم أكن أهلا له بعملي وهذا الحديث من أحسن الأدعية لأنه إقرار بظلم النفس واعتراف **بالذنب** والذنوب كالمانع من الإنعام **والاعتراف بها** يمحوها فيرتفع الحاجز وهذا الدعاء مما يستحب أن يدعى به في الصلاة قبل التسليم لصحته وللإنسان أن يدعو في صلاته بما في القرآن من الدعاء وبما صح في النقل عن النبي ﴿صلى الله عليه وسلم﴾ وليس له أن يدعو بما سوى ذلك من كلام الناس

٢ ٢ - الحديث الثاني قال أبو بكر نظرت إلى أقدام المشركين ونحن في الغار وهم على رؤوسنا فقلت يا رسول الله لو أن أحدهم نظر إلى قدميه أبصرنا تحت قدميه فقال يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما

---

(١) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، ١١/ ٢٤٧

الغار النقب في الجبل وكان هذا الغار في جبل يقال له ثور وهو معروف بمكة أقاما فيه ثلاثة أيام وكان طلب المشركين لهما لا

يفتر فبعث الله عز وجل حمامتين فباضتا وألهم العنكبوت فنسجت عند باب الغار فلما وصل المشركون إلى قريب من الغار قالوا ارجعوا فلو كان هاهنا أحد لم تكن هذه الحمامة ولا العنكبوت وفي هذا الحديث ما يدل على جواز الهرب من الخوف والتمسك بالأسباب خلافا للجهال من المتزهدين الذين يزعمون أن التوكل رفض الأسباب وإنما التوكل فعل القلب لإنزال السبب وقد قال عز وجل (خذوا حذركم) النساء ٧١ فلو كان التوكل ترك السبب لما قال (خذوا حذركم) وقوله ما ظنك باثنين الله ثالثهما أي بالنصرة والإعانة أفتظن أن يخذلهما فرده من النظر إلى الأسباب إلى المسبب وقال بعض الرافضة لبعض أهل السنة من يكون أشرف من خمسة تحت عباءة سادسهم جبريل فقال السني اثنان في الغار ثالثهما الله

٣ ٣ – وفي الحديث الثالث قال البراء بن عازب اشترى أبو بكر من عازب رحلا وقال ابعث معي ابنك فحملته وفي لفظ فقال

". (١)

"١٢. قال ابن أبي جمرة(١): جمع صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث من بديع المعاني وحسن الألفاظ ما يحق له أنه يسمى سيد الاستغفار ، ففيه الإقرار لله وحده بالإلهية والعبودية ، **والاعتراف بأنه** الخالق ، والإقرار بالعهد الذي أخذه عليه ، والرجاء بما وعده به ، والاستعاذة من شر ما جنى العبد على نفسه ، وإضافة النعماء إلى موجدها ، وإضافة **الذنب** إلى نفسه ، ورغبته في المغفرة ، واعترافه بأنه لا يقدر أحد على ذلك إلا هو ، انتهى ملخصا .

١٣. أيضا : من شروط الاستغفار صحة النية ، والتوجه والأدب .

٤٦عَنْ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ قَالَ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا أَوَى إِلَى فِرَاشِهِ نَامَ عَلَى شِقِّهِ الْأَيْمَنِ ثُمَّ قَالَ اللَّهُمَّ أَسْلَمْتُ نَفْسِي إِلَيْكَ وَوَجَّهْتُ وَجْهِي إِلَيْكَ وَفَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ وَأَلْجَأْتُ ظَهْرِي إِلَيْكَ رَغْبَةً وَرَهْبَةً إِلَيْكَ لا مَلْجَأَ وَلَا مَنْجَا مِنْكَ إِلا إِلَيْكَ آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَ وَبِنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَنْ قَالَهُنَّ ثُمَّ مَاتَ تَحْتَ لَيْلَتِهِ مَاتَ عَلَى الْفِطْرَةِ.

*وفي رواية لمسلم (وَإِنْ أَصْبَحَ أَصَابَ خَيْرًا.) .

الشرح : –

(١) كشف المشكل من حديث الصحيحين، ص/٣

١. قوله صلى الله عليه وسلم : (إذا أخذت مضجعك) معناه : إذا أردت النوم في مضجعك ، فتوضأ والمضجع : بفتح الميم .

٢. وفي هذا الحديث : ثلاث سنن مهمة مستحبة ، ليست بواجبة :

؟ إحداها : الوضوء عند إرادة النوم ، فإن كان متوضئا كفاه ذلك الوضوء ؛ لأن المقصود النوم على طهارة ؛ مخافة أن يموت في ليلته ، وليكون أصدق لرؤياه ، وأبعد من تلعب الشيطان به في منامه ، وترويعه إياه .

؟ الثانية النوم على الشق الأيمن لأن النبي صلى الله عليه وسلم كان يحب التيامن .

---

(١) من شيوخ الحافظ ابن حجر .." [١]

" ٤٧٤٣ - (سيد الاستغفار) أي أفضل أنواع الأذكار التي تطلب بها المغفرة هذا الذكر الجامع لمعاني التوبة كلها والاستغفار طلب المغفرة والمغفرة الستر للذنوب والعفو عنها قال الطيبي : لما كان هذا الدعاء جامعا لمعاني التوبة كلها استعير له اسم السيد وهو في الأصل للرئيس الذي يقصد في الحوائج ويرجع إليه في المهمات (أن يقول) أي العبد وثبت في رواية أحمد والنسائي سيد الاستغفار أن يقول العبد وفي رواية للنسائي تعلموا سيد الاستغفار أن يقول العبد (اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني) قال ابن حجر : في نسخة معتمدة من البخاري تكرير أنت وسقطت الثانية من معظم الروايات (وأنا عبدك) يجوز أن تكون مؤكدة وأن تكون مقررة أي أنا عابد لك كقوله ﴿ وبشرناه إسحاق نبيا ﴾ ذكره الطيبي (وأنا على عهدك ووعدك) أي ما عاهدتك عليه وواعدتك من الإيمان بك وإخلاص الطاعة لك ذكره بعضهم وقال المؤلف : العهد ما أخذ عليهم في عالم الذر يوم ﴿ ألست بربكم ﴾ والوعد ما جاء على لسان النبي صلى الله عليه و سلم أن من مات لا يشرك بالله دخل الجنة (ما استطعت) أي مدة دوام استطاعتي ومعناه الاعتراف بالعجز والقصور عن كنه الواجب من حقه تعالى (أعوذ بك من شر ما صنعت أبوء لك) أي أعترف وألتزم (بنعمتك علي) وأصل البوء اللزوم ومنه خبر فقد باء بها أحدهما أي التزمه ورجع (وأبوء بذنبي) أي أعترف أيضا وقيل : معناه أحمله برغمي لا أستطيع صرفه عني وقال الطيبي : اعترف أولا بأنه تعالى أنعم عليه ولم يقيده ليشمل كل الإنعام ثم اعترف بالتقصير وأنه لم يقم بأداء شكرها وعده ذنبا

---

(١) قبس من نور النبوة، ص/٨٨

مبالغة في التقصير وهضم النفس (فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت) فائدة الإقرار بالذنب أن الاعتراف يمحق الاقتراف كما قيل : [ص ١٢٠]

فإن اعتراف المرء يمحو اقترافه . . . كما أن إنكار الذنوب ذنوب

(من قالها من النهار موقنا بها) أي مخلصا من قلبه مصدقا بثوابها (فمات من يومه ذلك قبل أن يمسي) أي يدخل في المساء (فهو من أهل الجنة) أي ممن استحق دخولها مع السابقين الأولين أو بغير سبق عذاب وإلا فكل مؤمن يدخلها وإن لم يقلها (ومن قالها من الليل وهو موقن فمات قبل أن يصبح) أي يدخل في الصباح (فهو من أهل الجنة) بالمعنى المذكور قال ابن أبي حمزة : جمع في الحديث من بديع المعاني وحسن الألفاظ ما يحق له أن يسمى سيد الاستغفار ففيه الإقرار لله وحده بالألوهية والعبودية والاعتراف بأنه الخالق والإقرار بالعهد الذي أخذه عليه والرجاء بما وعده به والاستغفار من شر ما جنى على نفسه وإضافة النعم إلى موجدها وإضافة الذنب إلى نفسه ورغبته في المغفرة واعترافه بأنه لا يقدر على ذلك إلا ما هو وكل ذلك إشارة إلى الجمع بين الحقيقة والشريعة لأن تكاليف الشريعة لا تحصل إلا إذا كان عون من الله قال : ويظهر أن اللفظ المذكور إنما يكون سيد الاستغفار إذا جمع صحة النية والتوجه والأدب

(حم خ ن عن شداد بن أوس) ورواه عنه أيضا الطبراني وغيره ." (١)

" ٦١٤٢ - (قل اللهم إني ظلمت نفسي) بارتكابي ما يوجب العقوبة (ظلما كثيرا) بالمثلثة في معظم الروايات وفي رواية بموحدة قال في الأذكار : فينبغي الجمع بينهما فيقال ظلما كثيرا كبيرا احتياطا للتعبد ومحافظة على لفظ الوارد (وأنه) أي الشأن (لا يغفر الذنوب إلا أنت) لأنك الرب المالك ولا حيلة لي في دفعها وهو اعتراف بالوحدانية وعظمته الربوبية واستجلاب للمغفرة (فاغفر لي مغفرة) نكره للتعظيم أي عظمة لا يدرك كنهها وزاد (من عندك) لأن الذي من عنده لا يحيط به وصف واصف ولا يحصيه عد عاد مع ما فيه من الإشارة إلى أنه طلب أنها تكون له تفضلا من عنده تعالى لا بعمل منه (وارحمني) تفضل علي وأحسن إلي وزدني إحسانا على المغفرة (إنك) بالكسر على الاستئناف البياني المشعر بالتعليل (أنت الغفور الرحيم) كل من الوصفين للمبالغة وقابل اغفر بالغفور وارحم بالرحيم فالأول راجع إلى اغفر لي والثاني إلى ارحمني فهو لف ونشر مرتب فهذا عبد اعترف بالظلم ثم التجأ إليه مضطرا لا يجد لذنبه ساترا غيره ثم سأله المغفرة وقال بعض المحققين : وقال من عندك مع أن الكل منه وإليه

---

(١) فيض القدير، ٤/١١٩

إشارة إلى أنه يطلب من خزائنه ما خزنه عن العامة ولله رحمة تعم الخلق وله رحمة تخص الخواص وهي المطلوبة هنا وقد استدل به للدعاء في آخر الصلاة قال في الأذكار : وهو صحيح فإن قوله الآتي في صلاتي يعم جميعها اه . وفيه رد على شيخ الإسلام زكريا أن قوله في صلاتي المراد به المحل اللائق بالدعاء وفيه منها وهو السجود وبعد التشهد الأخير فقط وفيه مشروعية طلب تعليم العلم من العلماء وإجابة العالم للمتعلم سؤاله والمراد بالنفس هنا بالذات المشتملة على الروح كما في قوله تعالى ﴿ أن النفس بالنفس ﴾ وإن اختلف العلماء في أن حقيقة النفس هي الروح أو غيرها حتى قيل إن فيها ألف قول والغفر الستر والمعنى أن الداعي طلب منه تعالى أن يجعل له ساترا بينه وبين الذنوب إن لم تكن وقعت وساترا بينه وبين ما يترتب عليها من العقاب والعتاب إن كانت وقعت ولا يخفى حسن ترتيب هذا الحديث حيث قدم **الاعتراف بالذنب** ثم بالوحدانية ثم بسؤال المغفرة لأن **الاعتراف بذلك** أقرب إلى العفو والثناء على السيد بما هو أهله أرجى لقبول سؤاله

(حم ق ت ن ه عن ابن عمر) بن الخطاب (وعن أبي بكر) الصديق رضي الله تعالى عنهما قلت يا رسول الله علمني دعاء أدعو به في صلاتي فذكره وفيه رد على من منع الدعاء في المكتوبة بغير القرآن كالنخعي ." (١)

" أشبه وكان محمد بن سوقة يقول في استغفاره استغفر الله العظيم الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأسأله توبة نصوحا وروى عن حذيفة أنه قال يحسب من الكذب أن يقول أستغفر الله ثم يعود وسمع مطرف رجلا يقول أستغفر الله وأتوب إليه فتغيظ عليه وقال لعلك لا تفعل وهذا ظاهره يدل على أنه إنما كره أن يقول وأتوب إليه لأن التوبة النصوح أن لا يعود إلى **الذنب** أبدا فمتي عاد إليه كان كاذبا في قوله وأتوب إليه وكذلك سئل محمد بن كعب القرظي عمن عاهد الله أن لا يعود إلى معصيةأبدا فقال من أعظم منه إثما يتألي على الله أن لا ينفذ فيه قضاءه ورجح قوله في هذا أبو الفرج بن الجوزي وروى عن سفيان بن عيينة نحو ذلك وجمهور العلماء على جواز أن يقول التائب أتوب إلى الله وأن يعاهد العبد ربه على أن لا يعود إلى المعصية فإن العزم على ذلك واجب عليه في الحال لهذا قال ما أصر من استغفر ولو عاد في اليوم سبعين مرة وقال في المعاود للذنب قد غفرت لعبدي فليعمل ماشاء وفي حديث كفارة المجلس أستغفرك اللهم وأتوب إليك وقطع النبي صلى الله عليه وآله وسلم يدي سارق ثم قال له استغفر الله وتب إليه فقال أستغفر الله وأتوب إليه فقال اللهم تب عليه خرجه أبو داود واستحب جماعة من السلف الزيادة

---

(١) فيض القدير، ٥٢٣/٤

على قوله أستغفر الله وأتوب إليه فروى عن عمر رضي الله عنه أنه سمع رجلا يقول أستغفر الله وأتوب إليه فقال له قل ياحميق قل توبة من لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا وسئل الأوزاعي عن الاستغفار يقول أستغفر الله العظيم الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه فقال إن هذا لحسن ولكن يقول رب اغفرلي حتى يتم الاستغفار وأفضل أنواع الاستغفار أن يبدأ العبد بالثناء على ربه ثم يثني **بالاعتراف بذنبه** ثم يسأل الله المغفرة كمافي حديث شداد بن أوس عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال سيد الاستغفار أن يقول العبد الله م أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت أعوذ بك من شر ما صنعت أبوء لك بنعمتك على وأبوء بذنبي فاغفر لي فإنه لايغفر الذنوب إلا أنت خرجه البخاري وفي الصحيحين عن عبدالله بن عمرو أن أبا بكر الصديق قال يارسول الله علمني دعاء أدعوبه في صلاتي قال قل اللهم إني ظلمت نفسي ظلما كثيرا ولا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم ومن أنواع الاستغفار أن يقول العبد أستغفر الله العظيم الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه وقد روى عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم إن من قاله غفر له وإن كان فر من الزحف خرجه أبو داود والترمذى وفي كتاب اليوم والليلة للنسائي عن خباب بن الأرت قال قلت يارسول الله كيف نستغفر قال قل الله م اغفر لنا وارحمنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم وفيه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال مارأيت أحدا أكثر أن يقول أستغفر الله وأتوب إليه من رسول الله صلى عليه وآله وسلم ." (1)

"(وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو ﴿ اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي وإسرافي في أمري وما أنت أعلم به مني .

اللهم اغفر لي جدي وهزلي وخطئي وعمدي وكل ذلك عندي .

اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت وما أنت أعلم به مني أنت المقدم وأنت المؤخر وأنت على كل شيء قدير ﴾ متفق عليه) الخطيئة **الذنب** .

والجهل ضد العلم .

والإسراف : مجاوزة الحد في كل شيء .

وقوله في (أمري) يحتمل تعلقه بكل ما تقدم أو بقوله إسرافي فقط .

والجد بكسر الجيم ضد الهزل .

---

(1) جامع العلوم والحكم، ص/٣٩٦

وقوله (خطئي وعمدي) من عطف الخاص على العام إذ الخطيئة تكون عن هزل وعن جد وتكرير ذلك لتعدد الأنواع التي تقع من الإنسان من المخالفات **والاعتراف بها** وإظهار أن النفس غير مبرأة من العيوب إلا ما رحم علام الغيوب .

وقوله (وكل ذلك عندي) خبره محذوف أي موجود .

ومعنى (أنت المقدم) أي تقدم من تشاء من خلقك فيتصف بصفات الكمال ويتحقق بحقائق العبودية بتوفيقك وأنت المؤخر لمن تشاء من عبادك بخذلانك وتبعيدك له عن درجات الخير قال المصنف : وقع في حديث ابن عباس أنه صلى الله عليه وسلم كان يقوله في صلاة الليل وتقدم بيانه ووقع في حديث علي عليه السلام أنه كان يقوله بعد الصلاة .

واختلفت الروايات هل كان يقوله بعد السلام أو قبله ؟ ففي مسلم من حديث ابن عمر رضي الله عنهما " أنه كان يقوله بين التشهد والسلام " وأورده ابن حبان في صحيحه." (١)

"الزمخشري: الملك يعم، أراد بضم الميم، والملك يخص، أراد بكسرها. قلت: ليس مراده العموم والخصوص المنطقيان فإنهما على العكس، بل المراد بالعموم كثرة الشمول، والتوابع والتعلقات، فإن الملك كثر بسطة وسلطة من ا"لك ويقال: الملك بالضم عبارة عن القدرة الحسية العامة، فإذا قلت: هذا ملك فلان يدخل فيه ما يملكه، وما لا يملكه، وإذا قلت: هذا ملك فلان- بالكسر- لا يدخل فيه ما لا يملكه فافهم.

قوله: " وأنا عبدك " أي: معترف بأنك مالكي ومدبري، وحكمك نافذ في.

قوله: " ظلمت نفسي " اعتراف بالتقصير، قلله على سؤال المغفرة أدبا كما قال آدم وحواء- عليهما السلام- : (ربنا ظلمنا أنفسنا...) الآية (١) ، ومعنى ظلمت نفسي: أوردتها موارد المعاصي.

قوله: " واعترفت بذنبي " يعني: رجعت عن ذنبي ، لأن **الاعتراف بالذنب** بمنزلة الرجوع منه.

قوله: "فاغفر لي " أمر صورة، وسؤال وطلب معنى.

قوله: " جميعا " حال من الذنوب.

قوله:" لا يغفر الذنوب إلا أنت " بمنزلة التعليل، يعني: لأن مغفرة الذنوب بيدك، وليس هي إلا إليك، ولا يتولاها غيرك، ولا يقدر عليها أحد غيرك.

قوله: " واهدني لأحسن الأخلاق " أي: أرشدني لصوابها ووفقني للتخلق به.

---

(١) سبل السلام، ٧/ ٢٩١

قوله:" واصرف عني سيئها " أي: قبيحها.

---

(١) سورة الأعراف: (٢٣) .." [١]

"١١١٦٠ ـ (وعن عائشة رضيالله عنها قالت: كان النبي يقوم من الليل) أي بعضه ولم يستوف ليلة بالقيام تخفيفا على أمته (حتى تتفطر) بفتح الفاء والمهملة: أي تتشقق وفي نسخة تنفطر بالنون الساكنة فالفاء (قدماه) وهذا غاية لما دل عليه ما قبله: أي دأب في الطاعة إلى تفطر قدميه من طول القيام واعتماده عليها (فقلت له لم تصنع هذا) سؤال عن حكمة الدأب والتشمير في الطاعة (يا رسول الله وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر) أتت به طبق الآية المكنى بها عن رفعة شأنه وعلو مكانه، لا أن هناك ذنبا فيغفر لوجوب العصمة له كسائر الأنبياء (قال: أفلا أكون عبدا شكورا) أي أأترك صلاتي لأجل مغفرته فلا أكون عبدا شكورا؟ فالفاء عاطفة على مقدر بعد الهمزة كما جرى عليه «الكشاف»، ظن السائل أن سبب تحمل مشاق الطاعة خوف **الذنب**، أو رجاء العفو فبين أن له سببا آخر هو أعلى وأكمل وهو الشكر على التأهل لها مع المغفرة وإجزال النعمة والشكر: **الاعتراف بالنعمة** والقيام بالخدمة، فمن أدام بذل الجهد في ذلك كان شكورا وقليل ما هم، ولم يوف أحد بعلي هذا المنصب إلا الأنبياء وأعلاهم فيه نبينا ، وإنما ألزموا أنفسهم الجهد في العبادة لكمال علمهم بعظيم نعمة ربهم من غير سابقة استحقاق (متفق عليه) وتقدم مشروحا في باب المجاهدة.

(وعن المغيرة) ابن شعبة (نحوه) ولفظه «إن كان رسول الله ليقوم أو ليصلي حتى ترم قدماه أو ساقاه فيقال له فيقول: أفلا أكون عبدا شكورا (متفق عليه) رواه البخاري بهذا اللفظ ومسلم بنحوه، ورواه الترمذي في «الشمائل» بلفظ «صلى رسول الله حتى انتفخت قدماه فقيل له: أتتكلف هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: أفلا أكون عبدا شكورا؟» والحديث تقدم في باب المجاهدة.." [٢]

"إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين) البقرة: ٢٢٢، وكما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: التائب حبيب الله والتائب من **الذنب** كمن لا ذنب له، وسئل الحسن عن التوبة النصوح: فقال هي ندم بالقلب واستغفار باللسان وترك بالجوارح وإضمار أن لا يعود إليه.

---

(١) شرح أبي داود للعيني، ٣/٣٦١

(٢) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ٦/٤٨٨

وقال أبو محمد سهل رحمه الله ليس من الأشياء أوجب على هذا الخلق من التوبة ولا عقوبة أشد عليهم من فقد علم التوبة وقد جهل الناس علم التوبة وقال: من يقول إن التوبة ليست بفرض فهو كاف، ومن رضي بقوله فهو كافر وقال: التائب الذي يتوب من غفلته في الطاعات في كل طرفة ونفس، وقد جعل علي كرم الله وجهه ترك التوبة مقاما في العمى وقرنه باتباع الظن ونسيان الذكر فقال في الحديث الطويل: ومن عمي نسي الذكر واتبع الظن وطلب المغفرة بلا توبة ولا استكانة ففرض التوبة الذي لا بد للتائب منه ولا يكون محقا صادقا إلا به الإقرار **بالذنب والاعتراف بالظلم** ومقت النفس على الهوى وحل الإصرار الذي كان عقده على أعمال السيئات وإطابة الغذاء بغية ما يقدر عليه لأن الطعمة أساس الصالحين ثم الندم على ما فات من الجنايات.

وحقيقة الندم إن كان حقا إذ لكل حق حقيقة أن لا يعاود إلى مثل ما وقع الندم عليه ثم اعتقاد الاستقامة على الأمر ومجانبة النهي وحقيقة الاستقامة أن لا يقابل ما استقبل من عمره بمثل ما وقع الاعوجاج به وأن يتبع سبيل من أناب إلى الله وأن لا يصحب جاهلا فيرديه ثم الاشتغال بإصلاح ما أفسد في أيام بطالته ليكون من المصلحين الذين تابوا وأصلحوا ما أفسدوا فإن الله عز وجل لا يصلح عمل المفسدين كما لا يضيع أجر المحسنين ثم الاستبدال بالصالحات من السيئات والصالحات من الحسنات ليكون ممن تبدل سيئاته حسنات لتحققه بالتوبة وحسن الإنابة لأن التبديل يكون في الدنيا يبدل بالأعمال السوأى أعمالا حسنى بدليل قوله تعالى: (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) الرعد: ١١ فإذا غير ما بهم من سيء حسنا بدل سيئاتهم حسنات ثم الندم ودوام الحزن والحزن على الفوت وحقيقة الندم على الفوت أن لا يفرط ولا يني في وقت دركه ولا يرجع ولا ينثني في حيز استبداله فيفوت نفسه وقتا ثانيا إذ كان يعمل في درك ما فات ولا يفوت ما أدرك في حال تيقظه فتكون يقظته شبيها بما مضى من غفلته إذ كان في درك ما فات شبيها بما مضى من غفلته إذ لا يدرك الفوت بالفوت ولا ينال النعيم بالنعيم ليكون كما وصف الله تعالى: (وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا علما صالحا وآخر سيئا) قيل: **الاعتراف والندم**، وقال أبو سليمان الداراني: لو لم يبك العاقل فيما بقي من عمره إلا على فوت ما مضى منه في غير الطاعة لكان خليقا أن يحزنه ذلك إلى الممات فكيف بمن يستقبل ما بقي من عمره بمثل ما مضى من جهله.

وقال سهل بن عبد الله: التائب لا يقله شيء يكون قلبه متعلقا بالعرش حتى يفارق النفس ولا عيش له إلا الضرورة للقوام ويغتم على ما مضى والجد في الأمر ومباينة النهي." (١)

---

(١) قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد أبو طالب المكي ٣٠٣/١

"فيما بقي ولا يتم له ذلك إلا باستعمال علم اليقين في كل شيء ثم المتابعة بأعمال الصالحات ليكون ممن قال الله تعالى: (ويدرؤون بالحسنة السيئة) الرعد: ٢٢ الآية أي يدفعون ما سلف من السيئات بما يعلمون من الحسنات.

وكذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم في حديث أبي ذر فإذا عملت سيئة فأعمل بعدها حسنة السر بالسر والعلانية بالعلانية وفي وصية معاذ أتبع السيئة الحسنة تمحها وليدخل في الصالحين كما قال الله تعالى: (والذين آمنوا وعملوا الصالحات لندخلنهم في الصالحين) العنكبوت: ٩، ثم المسارعة إلى الخيرات إذا قدر عليها ليدرك بها ما ضيع وفات ليكون من الصالحين وفي هذا المقام يصلح لمولاه فيحفظه ويتولاه كما قال الله: (وهو يتولى الصالحين) الأعراف: ١٩٦، وجمل ما على العبد في التوبة وما تعلق بها عشر خصال، أولها فرض عليه أن لا يعصي الله تعالى، والثانية إن ابتلى بمعصية لا يصر عليها، والخصلة الثالثة التوبة إلى الله تعالى منها، والرابعة الندم على ما فرط منه، والخامسة عقد الاستقامة على الطاعة إلى الموت، والسادسة خوف العقوبة، والسابعة رجاء المغفرة، والثامنة **الاعتراف بالذنب**، والتاسعة اعتقاد أن الله تعالى قدر ذلك عليه وأنه عدل منه، والعاشرة المتابعة بالعمل الصالح ليعمل في الكفارات لقوله صلى الله عليه وسلم: وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وفي جميع هذه الخصال جمل آثار رويناها عن الصحابة والتابعين يكثر ذكرها، ويقال: إن ملك الموت إذا ظهر للعبد أعلمه أنه قد بقي من عمرك ساعة وأنك لا تستأخر عنها طرفة عين قال: فيبدو للعبد من الأسف والحسرة ما لو كانت له الدنيا من أولها إلى آخرها لخرج منها على أن يضم إلى تلك الساعة ساعة أخرى ليستعتب فيها أو يستبدل بها فلا يجد إلى ذلك سبيلا، وهذا تأويل قوله عز وجل: (وحيل بينهم وبين ما يشتهون) سبأ: ٥٤ قيل: التوبة وقيل: الزيادة في العمر وقيل: حسن الخاتمة حيل بينهم وبين ذلك كما فعل بأشياعهم من قبل أي بنظرائهم وأهل فرقتهم قال: فإذا كل ساعة تمضي على العبد فهي بمنزلة هذه الساعة قيمتها الدنيا كلها إذا عرف قيمة ذلك فلذلك قيل ليس لما بقي من عمر العبد قيمة إذا عرف وجه التقدير من الله تعالى بالتصريف والحكمة

وقيل في معنى قوله تعالى: (من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتني إلى أجل قريب) المنافقون: ١٠ قال: الوقت القريب أن يقول العبد عند كشف الغطاء: يا ملك الموت أخرني يوما أعبد فيه ربي وأعتب فيه ذنبي وأتزود صالحا لنفسي فيقول: فنيت الأيام فلا يوم، فيقول: أخرني ساعة فيقول فنيت الساعات فلا ساعة، قال: فتبلغ الروح الحلقوم فيؤخذ بكظمه عند الغرغرة فيغلق باب التوبة ويحجب عنه

وتنقطع الأعمال وتذهب الأوقات وتتصاع الأنفاس يشهد فيها المعاينة عند كشف الغطاء فيحتد بصره فإذا كان في آخر نفس زهقت نفسه فيدركه م، سبق له من السعادة فتخرج روحه علي." (١)

"باللسان عن غير توبة وندم بالقلب، وفي بخبر: الاستغفار باللسان من غير توبة وندم بالقلب توبة الكذابين، وكانت رابعة تقول: استغفارنا هذا يحتاج إلى استغفار فكم من توبة تحتاج إلى توبة في تصحيحها والإخلاص من النظر إليها والسكون والإدلال بها، فمن عقب السيئات بحسنات وخلط الصالحات بالطالحات طمع له في النجاة ورجا له الاستقامة قبل الوفاة، قال الله تعالى: (خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا عسى الله أن يتوب عليهم) التوبة: ١٠٢ أي يعطف عليهم وينظر إليهم وقيل: خلطوا علملا صالحا هو **الاعتراف بالذنوب** والتوبة المستأنفة وآخر سيئا ما سلف من الغفلة والجهالة، وقد كان ابن عباس يقول: غفور لمن تاب رحيم حيث رخص في التوبة، وقد قال الله تعالى (وإني لغفار لمن تاب) طه: ٨٢ أي من الشرك وآمن بالتوحيد وعمل صالحا؛ أدى الفرئض واجتنب المحارم ثم اهتدى كان على السنة وقيل: استقام على التوبة فهذه صفات المؤمنين فلم يرد الله تعالى المخلصين إلى ما رد إليه المنافقين وهو التوبة وكذلك رد إليها المشركين إذ لا طريق للكل إلا منها ولا وصول إلى المحبة والرضا إلا بها.

وقال تعالى في وصف المنافقين: (وآخرون مرجون لأمر الله إما يعذبهم) التوبة: ١٠٦ أي مع الإصرار وإما يتوب عليهم أي بالاستغفار وأحكم ذلك وفصله بما شرط له، كما قال في شأن الكافرين: (فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم) التوبة: ٥ وقد قرن الله تعالى الاستغفار للعبادة ببقاء الرسول لله في الأمة ورفع العذاب عنهم بوجوده فضلامنه ونعمة، وقال تعالى: (وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون) الأنفال: ٣٣، وكان بعض السلف يقول: كان لنا أمانان ذهب أحدهما وبقي الآخر، فإن ذهب الآخر هلكنا يعني الذي ذهب الرسول صلى الله عليه وسلم والذي بقي الاستغفار، وسئل سهل رحمه الله عن الاستغفار الذي يكفر الذنوب فقال: أول الاستغفار الاستجابة ثم الإنابة ثم التوبة فالاستجابة أعمال الجوارح والإنابة أعمال القلوب والتوبة إقباله على مولاه وترك الخلق، ثم يستغفر من تقصيره الذي هو فيه ومن الجهل بالنعمة وترك الشكر، فعند ذلك يغفر له ويكون عنده مأواه ثم ينقل إلى الانفراد ثم الثبات ثم البيان ثم القرب ثم المعرفة ثم المناجاة ثم المصافاة ثم الموالاة ثم محادثة السر وهو الخلة، ولا يستقر هذا في قلب عبد حتى يكون العلم غذاءه والذكر قوامه والرضا زاده والتفويض مراده والتوكل صاحبه، ثم ينظر الله تعالى إليه فيرفعه إلى العرش فيكون مقامه مقام حملة العرش وكان يقول العبد لا بد له من مولاه على

---

(١) قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد أبو طالب المكي ٣٠٤/١

كل حال، وأحسن حاله أن يرجع إليه في كل شيء إذا عصي يقول: يا رب استر علي فإذا فرغ من المعصية قال: يا رب تب علي فإذا تاب قال يا رب ارزقني العصمة فإذا عمل قال: يا رب تقبل مني، ومن أحسن ما يتعقب الذنب من الأعمال بعد التوبة وحل الإصرار مما يرجى به كفارة الخطيئة." (١)

"ورواه شعيب بن أبي حمزة وعقيل بن خالد عن ابن شهاب عن أبي سلمة وسعيد بن المسيب عن أبي هريرة قال شعيب أتى رجل من أسلم النبي صلى الله عليه وسلم وقال عقيل أتى رجل من المسلمين رسول الله صلى الله عليه وسلم بمعنى واحد وألفاظ مختلفة ولم تختلف ألفاظهم في أنه ماعز الأسلمي وأنه رده رسول الله صلى الله عليه وسلم أربع مرات

وروي هذا الحديث عن ابن شهاب مرسلا وقد ذكرناه في مراسل ابن شهاب وذكرنا هناك الآثار المروية في هذا الباب وكثيرا من الأحكام التي توجبها ألفاظها والحمد لله

وفي هذا الحديث من الفقه أن الستر أولى بالمسلم على نفسه إذا وقع حدا من الحدود من الاعتراف به عند السلطان وذلك مع اعتقاد التوبة والندم على الذنب وتكون نيته ومعتقده ألا يعود فهذا أولى به من الاعتراف فإن الله يقبل التوبة عن عباده ويحب التوابين وهذا فعل أهل العقل والدين والندم والتوبة واعتقاد أن لا عودة ألا ترى إلى قوله أيشتكي أبه جنة

وروى يزيد بن هارون عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب أن ماعز بن مالك الأسلمي أتى إلى أبي بكر فأخبره أنه زنى فقال له أبو بكر هل ذكرت ذلك لأحد قبلي." (٢)

"المغفرة من فضل الله تعالى وهو مقصر عن الطاعة مصر على الذنوب غير سالك سبيل المغفرة يعد عند أرباب القلوب من المعتوهين والعجب من عقل هذا المعتوه وترويجه حماقته في صيغة حسنة إذ يقول إن الله كريم وجنته ليست تضيق على مثلي ومعصيتي ليست تضره ثم تراه يركب البحار ويقتحم الأوعار في طلب الدينار وإذا قيل له إن الله كريم ودنانير خزائنه ليست تقصر على فقرك وكسلك بترك التجارة ليس يضرك فاجلس في بيتك فعساه يرزقك من حيث لا تحتسب فيستحمق قائل هذا الكلام ويستهزىء به ويقول ما هذا الهوس السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة وإنما ينال ذلك بالكسب وهكذا قدره مسبب الأسباب وأجرى به سنته ولا تبديل لسنة الله ولا يعلم المغرور أن رب الآخرة ورب الدنيا واحد وأن سنته لا تبديل لها فيهما جميعا وأنه قد أخبر إذ قال وأن ليس للإنسان إلا ما سعى فكيف يعتقد أنه كريم في الآخرة وليس

---

(١) قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد أبو طالب المكي ٣١٩/١

(٢) التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد ابن عبد البر ١١٩/٢٣

بكريم في الدنيا وكيف يقول ليس مقتضى الكرم الفتور عن كسب المال ومقتضاه الفتور عن العمل للملك لذلك المقيم والنعيم الدائم وأن ذلك بحكم الكرم يعطيه من غير جهد في الآخرة وهذا يمنعه مع شدة الاجتهاد في غالب الأمر في الدنيا وينسى قوله تعالى وفي السماء رزقكم وما توعدون فنعوذ بالله من العمى والضلال فما هذا إلا انتكاس على أم الرأس وانغماس في ظلمات الجهل وصاحب هذا جدير بأن يكون داخلا تحت قوله تعالى ولو ترى إذ المجرمون ناكسو رءوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فأرجعنا نعمل صالحا أي أبصرنا أنك صدقت إذ قلت وأن ليس للإنسان إلا ما سعى فأرجعنا نسعى وعند ذلك لا يمكن من الانقلاب ويحق عليه العذاب فنعوذ بالله من دواعي الجهل والشك والارتياب السائق بالضرور إلى سوء المنقلب والمآب

بيان ما ينبغي أن يبادر إليه التائب إن جرى عليه ذنب إما عن قصد وشهوة غالبة أو عن إلمام بحكم الاتفاق

اعلم أن الواجب عليه التوبة والندم والاشتغال بالتكفير بحسنة تضاده كما ذكرنا طريقه فإن لم تساعده النفس على العزم على الترك لغلبة الشهوة فقد عجز عن أحد الواجبين فلا ينبغي أن يترك الواجب الثاني وهو أن يدرأ بالحسنة السيئة ليمحوها فيكون ممن خلط عملا صالحا وآخر سيئا فالحسنات المكفرة للسيئات إما بالقلب وإما باللسان وإما بالجوارح ولتكن الحسنة في محل السيئة وفيما يتعلق بأسبابها

فأما بالقلب فليكفره بالتضرع إلى الله تعالى في سؤال المغفرة والعفو ويتذلل تذلل العبد الآبق ويكون ذله بحيث يظهر لسائر العباد وذلك بنقصان كبره فيما بينهم فما للعبد الآبق المذنب وجه للتكبر على سائر العباد وكذلك يضمر بقلبه الخيرات للمسلمين والعزم على الطاعات

وأما باللسان **فبالاعتراف بالظلم** والاستغفار فيقول رب ظلمت نفسي وعملت سوءا فاغفر لي ذنوبي وكذلك يكثر من ضروب الاستغفار كما أوردناه في كتاب الدعوات والأذكار

وأما بالجوارح فبالطاعات والصدقات وأنواع العبادات وفي الآثار ما يدل على أن **الذنب** إذا اتبع بثمانية أعمال كان العفو عنه مرجوا أربعة من أعمال القلوب وهي التوبة أو العزم على التوبة وحب الإقلاع عن **الذنب** وتخوف العقاب عليه ورجاء المغفرة له وأربعة من أعمال الجوارح وهي أن تصلي عقيب **الذنب** ركعتين ثم تستغفر الله تعالى بعدهم سبعين مرة وتقول سبحان الله العظيم وبحمده مائة مرة ثم تتصدق بصدقة ثم تصوم." (١)

---

(١) إحياء علوم الدين أبو حامد الغزالي ٤/٤٦

"ديارنا قال فكنت أسمع لها من الليل أنينا وشهيقا فقلت يوما لخادم لي أشرف على هذه المرأة ماذا تصنع قال فأشرف عليها فما رآها تصنع شيئيا غير أنها لا ترد طرفها عن السماء وهي مستقبلة القبلة تقول خلقت سرية ثم غذيتها بنعمتك من حال إلى حال وكل أحوالك لها حسنة وكل بلائك عندها جميل وهي مع ذلك متعرضة لسخطك بالتوثب على معاصيك فلتة بعد فلتة أتراها تظن أنك لا ترى فعالها وأنت عليم خبير وأنت على كل شيء قدير وقال ذو النون المصري خرجت ليلة من وادي كنعان فلما علوت الوادي إذا سواد مقبل على وهو يقول وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون ويبكي فلما قرب مني السواد اذا هي امرأة عليها جبة صوف وبيدها ركوة فقالت لي من أنت غير فزعة مني فقلت رجل غريب فقالت يا هذا وهل يوجد مع الله غربة قال فبكيت لقولها فقالت ما الذي أبكاك فقلت قد وقع الدواء على داء قد قرح فأسرع في نجاحه قالت فإن كنت صادق، فلم بكيت قلت يرحمك الله والصادق لا يبكي قالت لا قلت ولم ذاك قالت لأن البكاء راحة القلب فسكت متعجبا من قولها

وقال أحمد بن علي استأذنا على عفيرة فحجبتنا فلازمنا الباب فلما علمت ذلك قامت لتفتح الباب لنا فسمعتها وهي تقول اللهم إني أعوذ بك ممن جاء يشغلني عن ذكرك ثم فتحت الباب ودخلنا عليها فقلنا لها يا أمة الله ادعي لنا فقالت جعل الله قراءكم في بيتى المغفرة ثم قالت لنا مكث عطاء السلمي أربعين سنة فكان لا ينظر إلى السماء فحانت منه نظرة فخر مغشيا عليه فأصابه فتق في بطنه فيا ليت عفيرة إذا رفعت رأسها لم تعص وياليتها إذا عصت لم تعد وقال بعض الصالحين خرجت يوما إلى السوق ومعى جارية حبشية فاحتبستها في موضع بناحية السوق وذهبت في بعض حوائجى وقلت لا تبرحى حتى أنصرف إليك قال فانصرفت فلم أجدها في الموضع فانصرفت إلى منزلى وأنا شديد الغضب عليها فلما رأتنى عرفت الغضب في وجهى فقالت يا مولاى لا تعجل على إنك أجلستنى في موضع لم أر فيه ذاكرا لله تعالى فخفت أن يخسف بذلك الموضع فعجبت لقولها وقلت لها أنت حرة

فقالت ما صنعت كنت أخدمك فيكون لى أجران وأما الآن فقد ذهب عنى أحدهما

وقال ابن العلاء السعدى كانت لى ابنة عم يقال لها بريرة تعبدت وكانت كثيرة القراءة في المصحف فكلما أتت على آية فيها ذكر النار بكت فلم تزل تبكى حتى ذهبت عيناها من البكاء فقال بنو عمها انطلقوا بنا إلى هذه المرأة حتى نعدلها في كثرة البكاء قال فدخلنا عليها فقلنا يا بريرة كيف أصبحت قالت أصبحنا أضيافا منيخين بأرض غربة ننتظر متى ندعى فنجيب فقلنا لها ما هذا البكاء قد ذهبت عيناك منه فقالت إن يكن لعينى عند الله خير فما يضرهما ما ذهب منهما في الدنيا وإن كان لهما عند الله شر فسيزيدهما

بكاء أطول من هذا ثم أعرضت

قال فقال القوم قوموا بنا فهى والله في شيء غير ما نحن فيه وكانت معاذة العدوية إذا جاء النهار تقول هذا يومى الذى أموت فيه فما تطعم حتى تمسى فإذا جاء الليل تقول هذه الليلة التى أموت فيها فتصلى حتى تصبح وقال أبو سليمان الداراني بت ليلة عند رابعة فقامت إلى محراب لها وقمت أنا إلى ناحية من البيت فلم تزل قائمة إلى السحر فلما كان السحر قلت ما جزاء من قوانا على قيام هذه الليلة قالت جزاؤه أن تصوم له غدا وكانت شعوانة تقول في دعائها إلهى ما أشوقنى إلى لقائك وأعظم رجائى لجزائك وأنت الكريم الذى لا يخيب لديك أمل الآملين ولا يبطل عندك شوق المشتاقين إلهى إن كان دنا أجلى ولم يقربنى منك عمل فقد جعلت **الاعتراف بالذنب** وسائل عللى فإن عفوت فمن أولى منك بذلك وإن عذبت فمن أعدل منك هنالك إلهى قد جرت على نفسى في النظر لها وبقى لها حسن نظرك فالويل لها إن لم تسعدها إلهى إنك لم تزل بى برا أيام حياتى فلا تقطع عنى برك بعد مماتى." (١)

"١٢ – جنود إبليس

ذكر في بعض الأخبار أن إبليس لعنه الله يبعث في كل يوم ثلاثمائة وستين عسكرا لإضلال المؤمنين والله تعالى ينظر في قلوبهم ثلاثمائة وستين نظرة ففي كل نظرة من نظراته تهلك عسكرا من عساكره فأنى تبقى عسكر للشيطان في جنب نظرة الرحمن

فالله الله عباد الله لا تقبلوا وسواس الشيطان المخدوع واستعملوا قلوبكم وصدوركم بالآيات والخشوع وأسيلوا على ما فرطتم غزير الدموع

أعوذ بالله من عواقب الخلاف أعوذ بالله من الجرأة والاستخفاف أعوذ بالله من العصيان وقلة الاعتراف

أعوذ بالله من الباطل وشره أعوذ بالله من الشيطان ومكره أعوذ بالله من العصيان وذكره

أعوذ بالله من فساد القلب أعوذ بالله من ترادف **الذنب** على **الذنب** أعوذ بالله من سخط الملك الرب

١٣ – محاورة إبليس لموسى

روي أن الشيطان لعنة الله عليه قال لموسى بن عمران صلوات الله على نبينا وعليه لا تخلون بامرأة غير ذي محرم فأكون ثالثكما ولا تقضين فأنال منك وإذا هممت بصدقة فبادر إليها فإنك إن لم تبادر إليها فتحت

---

(١) إحياء علوم الدين أبو حامد الغزالي ٤/٤١٥

لك في ذلك سبعين بابا من الفقر أمنعك بها من الصدقة

وقيل في قول الله عز وجل ﴿الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا﴾ البقرة ٢٦٨ الآية

أي يردك الشيطان إلى نفسك ولينسيك اشتغالك بربك وقيل يعدكم الفقر في طلب فوق الكفاف فيكون عندك ما يكفيك وأنت تحرص على جمع الزيادة وهو الفقر اللازم فيردك عن غني الكفاية إلى طلب المزيد وهو الفقر الحاضر الذي يؤدي صاحبه إلى العذاب الدائم الشديد

وقيل يعدكم الفقر في البذل والعطاء في مرضاة الله عز وجل وهو الغني لأن الله تعالى يعدكم مغفرة وفضلا فينبغي للعبد أن يذكر منن الله تعالى عليه وإحسانه إليه وإفضاله لديه." (١)

""والعبد": ضد الحر، وأصله الذل والخضوع، ومنه طريق معبد أي مذلل.

"والظلم": الجور ومجاوزة الحد وأخذ ما ليس لك، وأصله وضع الشيء في غير موضعه.

"والنفس" في اللغة: الروح يقال: خرجت نفسه إذا مات، وقد يطلق على الدم: سألت نفسه، وفي الحديث "ما ليس له نفس سائلة" (١) أي ما لا دم له، وقد يطلق على الجسد. وجاء في الشعر.

ومعنى "ظلمه نفسه": يريد: بما ارتكبه من الذنوب والمعاصي فإنه ظلمها، حيث قلدها الآثام والأوزار وأخرجها إلى أن تعاقب.

وإنما قال: "واعترفت بذنبي" يريد ظلمه نفسه فإنه ذنب واحد؛ وإن كان قد ظلمها مرات كثيرة، إلا أنه يطلق على تلك المرات لفظة الظلم لجمعه إياها، ولأن **الذنب** معصية **والاعتراف به** يورث الخجل والفضيحة، لكنه لما علم أن **الاعتراف بالذنب** يمحوه ويوجب العفو والمغفرة وأراد أن يعترف؛ وحد **الذنب** لئلا يكون معترفا بذنوب كثيرة؛ فتكبر فضيحته. على أن **الذنب** قد يقع على القليل والكثير، ولكن لفظ الجمع أفصح فلما جاء إلى طلب المغفرة زال ذلك السبب الذي وحد لأجله، فقال: "فأغفر لي ذنوبي جميعا" فأتى بلفظ الجمع لتكون المغفرة لها شاملة، وليزول الوهم الذي يحصل من لفظ المفرد عند الإتيان بلفظ الجمع، ثم لم يكفه ذلك حتى قال "جميعا" تأكيدا لطلب العفو عن الذنوب كلها.

---

(١) كأنه يشير إلى حديث أبي هريرة الذي أخرجه البخاري (٥٧٨٢) ولفظه "إذا وقع الذباب في إناء أحدكم فليغمسه كله ثم ليطرحه فإن في أحد جناحيه داء وفي الآخر شفاء".

---

(١) بستان الواعظين ورياض السامعين ابن الجوزي ص/١٦

وأخرجه البيهقي في السنن (١/ ٢٥٢) وبوب عليه "باب ما لا نفس له سائلة إذا مات في الماء القليل".

وساق بسنده عن سلمان أن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال: "يا سلمان كل طعام وشراب وقعت فيه دابة ليس لها دم فماتت فهو الحلال أكله وشربه ووضوؤه" وضعفه.." [١]

"فيه.

والأخرى: الاعتذار إلى الله –تعالى– من هذا الخاطر الذي خطر له، والإقرار **بالذنب** **والاعتراف بالخطأ** فيه.

والعيش: الحياة، عاش الرجل يعيش إذا حي معاشا أو معيشا، كل واحد منهما يصلح أن يكون مصدرا وأن يكون اسما.

والآخرة: صفة لدار القيامة لا أنها من الصفات العالية كالدنيا يريد الدار الدنيا.

وأخبرنا الشافعي –رضي الله عنه– أخبرنا سعيد، عن القاسم بن معن، عن محمد بن عجلان، عن عبد الله بن أبي سلمة أنه قال: سمع سعد بن أبي وقاص بعض بني أخيه يلبي: ياذا المعارج، فقال سعد: إنه لذو المعارج، وما هكذا كنا نلبي على عهد رسول الله – صلى الله عليه وسلم –.

قوله: "فقال سعد: المعارج": يريد به أن سعدا لما سمع ياذا المعارج فأنكره، أخذ يجري اللفظ على لسانه، كمن يسمع شيئا يستغربه فيعيده ليستبينه، واللفظة مرفوعة على أنها مبتدأ محذوف الخبر تقديره: المعارج نقول، وهذا القول من سعد يعضد ما ذهب إليه الشافعي، من لزوم تلبية رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وترك الزيادة عليها.." [٢]

"والتوبة فرض على المؤمنين باتفاق المسلمين لقوله تعالى: ﴿وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون﴾ وقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا﴾ .

ولها شروط أربعة: الندم بالقلب، وترك المعصية في الحال، والعزم على أن لا يعود إلى مثلها، وأن يكون ذلك حياء من الله تعالى وخوفا منه لا من غيره فإذا اختل شرط من هذه الشروط لم تصح التوبة.

وقد قيل: من شروطها: **الاعتراف بالذنب** وكثرة الإستغفار الذي يحل عقد الإصرار ويثبت معناه في الجنان لا التلفظ باللسان.

فأما من قال بلسانه: أستغفر الله وقلبه مصر على معصيته فاستغفاره ذلك يحتاج إلى استغفار وصغيرته لا

---

(١) الشافي في شرح مسند الشافعي ابن الأثير، أبو السعادات ١/٥٣٣

(٢) الشافي في شرح مسند الشافعي ابن الأثير، أبو السعادات ٣/٤٣٢

حقة بالكبائر.

وروي عن الحسن البصري أنه قال: استغفارنا يحتاج إلى استغفار.." [1]

"وحديثه أيضا أن النبي صلى الله عليه وسلم رفع يديه وقال (اللهم زدنا ولا تنقصنا)

وحديث ابن مسعود في رفع النبي صلى الله عليه وسلم يديه حين دعا لذي البجادين

وقال الخطابي إن من الأدب أن تكون اليدان في حال رفعهما مكشوفتين غير مغطاتين

ومنها التوبة **والاعتراف بالذنب**

قال الله تعالى في حكاية عن آدم عليه السلام وحواء رضي الله عنها ﴿ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين﴾ الأعراف ٢٣

وقال تعالى ﴿وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا عسى الله أن يتوب عليهم﴾ التوبة ١٠٢

وقال تعالى ﴿وذا النون إذ ذهب مغاضبا فظن أن لن نقدر عليه فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجي المؤمنين﴾ الأنبياء ٨٧ ٨٨

وقال تعالى حكاية موسى عليه السلام ﴿رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر له﴾ القصص ١٦

١٨١ - وعن عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لها حين قال لها أهل الإفك ما قالوا (إن كنت بريئة فسيبرئك الله وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري." [2]

"وقوله: (فقام أسيد بن حضير فقال: كذبت لعمرو الله، والله لنقتلنه). أي: إن أمرنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قتلناه.

وقوم أسيد بنو عبد الأشهل، وهؤلاء الثلاثة نقباء.

وقوله: (فثار الحيان). كذا هنا وقال في التفسير: فتثاور، أي: فتواثب (١).

قال ابن فارس: يقال: ثار ثائره إذا اشتعل غضبا (٢).

ومعنى: خفضهم تلطفهم حتى سلموا.

ومكث الوحي شهرا؛ كان ليعلم سيدنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - المتكلم من غيره.

---

(١) التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة شمس الدين القرطبي ص/٢١٤

(٢) سلاح المؤمن في الدعاء ابن الإمَام ص/١١٧

وقولها: (قد بكيت ليلتي ويومي). وفي نسخة: (ويوما). يعني: اليوم الماضي والليلة التي بعده.

وقوله: (إن كنت ألممت بذنب) أي: آتيته، والإلمام: هو النزول النادر غير متكرر، وقال بعض المفسرين: اللمم: مقارفة الذنب من غير مواقعة (٣).

وقال الداودي: معناه زنيت. وقيل اللمم: هو الذي يأتي الشيء وليس له عادة.

وقوله: ("فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب، تاب الله عليه") دعاها إلى الاعتراف، ولم يأمرها بالستر كغيرها؛ لأنه لا ينبغي عند الشارع امرأة أتت ذنبا، قاله الداودي.

---

(١) سيأتي برقم (٤٧٥٠) باب: قوله: ﴿لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون﴾.

(٢) "المجمل" ١/ ١٦٥ (ثور).

(٣) الطبري في "تفسيره" ١١/ ٥٢٩.." [1]

"وقال الداودي: عهد الله الإسلام، ووعده الإقرار بالجزاء يوم الدين. (قال) (١): وقوله "ما استطعت" أي: من قول أو عمل.

فصل:

فإن قلت: أين لفظ الاستغفار في هذا الدعاء، وقد سماه الشارع سيد الاستغفار؟ قيل: الاستغفار في لسان العرب: هو طلب المغفرة من الله. وسؤاله غفران الذنوب السالفة، والاعتراف بها، وكل دعاء كان فيه هذا المعنى فهو استغفار. مع أن في الحديث لفظ الاستغفار، وهو قوله: "فاغفر لي؛ فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت".

فصل:

معنى: "أبوء": أقر بنعمتك وألزمها نفسي، وأصل البواء: اللزوم، يقال: أباء الإمام فلانا بفلان إذا ألزمه دمه وقتله به، وفلان بواء لفلان إذا قتل به، وهو كقوله: بوأه الله منزلا. أي: ألزمه الله إياه وأسكنه إياه. وعبارة صاحب "الأفعال": باء بالذنب: أقر (٢)، أي: أقر بالنعمة والاستغفار والذنب. وقيل: "أبوء بذنبي" أي: أحمله كرها، لا أستطيع صرفه عن نفسي، ومنه ﴿فباءوا بغضب على غضب﴾ [البقرة: ٩٠].

فصل:

(قوله) (٣): "من قالها موقنا بها .. " إلى آخره. يعني: مخلصا من قلبه، ومصدقا بثوابها فهو من أهل

---

(١) التوضيح لشرح الجامع الصحيح ابن الملقن ٥٨٥/١٦

الجنة، وهذا كقوله - عليه السلام -: "من قام

---

(١) من (ص٢).

(٢) "الأفعال" لابن القوطية ص (١٣٢).

(٣) من (ص٢).." [١]

"٤٧٤٣ - (سيد الاستغفار) أي أفضل أنواع الأذكار التي تطلب بها المغفرة هذا الذكر الجامع لمعاني التوبة كلها والاستغفار طلب المغفرة والمغفرة الستر للذنوب والعفو عنها قال الطيبي: لما كان هذا الدعاء جامعا لمعاني التوبة كلها استعير له اسم السيد وهو في الأصل للرئيس الذي يقصد في الحوائج ويرجع إليه في المهمات (أن يقول) أي العبد وثبت في رواية أحمد والنسائي سيد الاستغفار أن يقول العبد وفي رواية للنسائي تعلموا سيد الاستغفار أن يقول العبد (اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني) قال ابن حجر: في نسخة معتمدة من البخاري تكرير أنت وسقطت الثانية من معظم الروايات (وأنا عبدك) يجوز أن تكون مؤكدة وأن تكون مقررة أي أنا عابد لك كقوله ﴿وبشرناه إسحاق نبيا﴾ ذكره الطيبي (وأنا على عهدك ووعدك) أي ما عاهدتك عليه وواعدتك من الإيمان بك وإخلاص الطاعة لك ذكره بعضهم وقال المؤلف: العهد ما أخذ عليهم في عالم الذر يوم ﴿ألست بربكم﴾ والوعد ما جاء على لسان النبي صلى الله عليه وسلم أن من مات لا يشرك بالله دخل الجنة (ما استطعت) أي مدة دوام استطاعتي ومعناه **الاعتراف بالعجز** والقصور عن كنه الواجب من حقه تعالى (أعوذ بك من شر ما صنعت أبوء لك) أي أعترف وألتزم (بنعمتك علي) وأصل البوء اللزوم ومنه خبر فقد باء بها أحدهما أي التزمه ورجع (وأبوء بذنبي) أي أعترف أيضا وقيل: معناه أحمله برغمي لا أستطيع صرفه عني وقال الطيبي: اعترف أولا بأنه تعالى أنعم عليه ولم يقيده ليشمل كل الإنعام ثم اعترف بالتقصير وأنه لم يقم بأداء شكرها وعده ذنبا مبالغة في التقصير وهضم النفس (فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت) فائدة الإقرار **بالذنب** أن **الاعتراف يمحق** الاقتراف كما قيل: -[١٢٠]-

فإن اعتراف المرء يمحو اقترافه. . . كما أن إنكار الذنوب ذنوب

(من قالها من النهار موقنا بها) أي مخلصا من قلبه مصدقا بثوابها (فمات من يومه ذلك قبل أن يمسي) أي يدخل في المساء (فهو من أهل الجنة) أي ممن استحق دخولها مع السابقين الأولين أو بغير سبق

---

(١) التوضيح لشرح الجامع الصحيح ابن الملقن ١٨٨/٢٩

عذاب وإلا فكل مؤمن يدخلها وإن لم يقلها (ومن قالها من الليل وهو موقن فمات قبل أن يصبح) أي يدخل في الصباح (فهو من أهل الجنة) بالمعنى المذكور قال ابن أبي حمزة: جمع في الحديث من بديع المعاني وحسن الألفاظ ما يحق له أن يسمى سيد الاستغفار ففيه الإقرار لله وحده بالألوهية والعبودية **والاعتراف بأنه** الخالق والإقرار بالعهد الذي أخذه عليه والرجاء بما وعده به والاستغفار من شر ما جنى على نفسه وإضافة النعم إلى موجدها وإضافة **الذنب** إلى نفسه ورغبته في المغفرة واعترافه بأنه لا يقدر على ذلك إلا ما هو وكل ذلك إشارة إلى الجمع بين الحقيقة والشريعة لأن تكاليف الشريعة لا تحصل إلا إذا كان عون من الله قال: ويظهر أن اللفظ المذكور إنما يكون سيد الاستغفار إذا جمع صحة النية والتوجه والأدب

(حم خ ن عن شداد بن أوس) ورواه عنه أيضا الطبراني وغيره." (١)

"٦١٤٢ - (قل اللهم إني ظلمت نفسي) بارتكابي ما يوجب العقوبة (ظلما كثيرا) بالمثلثة في معظم الروايات وفي رواية بموحدة قال في الأذكار: فينبغي الجمع بينهما فيقال ظلما كثيرا كبيرا احتياطا للتعبد ومحافظة على لفظ الوارد (وأنه) أي الشأن (لا يغفر الذنوب إلا أنت) لأنك الرب المالك ولا حيلة لي في دفعها وهو اعتراف بالوحدانية وعظمته الربوبية واستجلاب للمغفرة (فاغفر لي مغفرة) نكره للتعظيم أي عظمة لا يدرك كنهها وزاد (من عندك) لأن الذي من عنده لا يحيط به وصف واصف ولا يحصيه عد عاد مع ما فيه من الإشارة إلى أنه طلب أنها تكون له تفضلا من عنده تعالى لا بعمل منه (وارحمني) تفضل علي وأحسن إلي وزدني إحسانا على المغفرة (إنك) بالكسر على الاستئناف البياني المشعر بالتعليل (أنت الغفور الرحيم) كل من الوصفين للمبالغة وقابل اغفر بالغفور وارحم بالرحيم فالأول راجع إلى اغفر لي والثاني إلى ارحمني فهو لف ونشر مرتب فهذا عبد اعترف بالظلم ثم التجأ إليه مضطرا لا يجد لذنبه ساترا غيره ثم سأله المغفرة وقال بعض المحققين: وقال من عندك مع أن الكل منه وإليه إشارة إلى أنه يطلب من خزائنه ما خزنه عن العامة ولله رحمة تعم الخلق وله رحمة تخص الخواص وهي المطلوبة هنا وقد استدل به للدعاء في آخر الصلاة قال في الأذكار: وهو صحيح فإن قوله الآتي في صلاتي يعم جميعها اه. وفيه رد على شيخ الإسلام زكريا أن قوله في صلاتي المراد به المحل اللائق بالدعاء وفيه منها وهو السجود وبعد التشهد الأخير فقط وفيه مشروعية طلب تعليم العلم من العلماء وإجابة العالم للمتعلم سؤاله والمراد بالنفس هنا بالذات المشتملة على الروح كما في قوله تعالى ﴿أن النفس بالنفس﴾ وإن اختلف العلماء في أن حقيقة النفس

---

(١) فيض القدير المناوي ٤/١١٩

هي الروح أو غيرها حتى قيل إن فيها ألف قول والغفر الستر والمعنى أن الداعي طلب منه تعالى أن يجعل له ساترا بيںه وبين الذنوب إن لم تكن وقعت وساترا بينه وبين ما يترتب عليها من العقاب والعتاب إن كانت وقعت ولا يخفى حسن ترتيب هذا الحديث حيث قدم **الاعتراف بالذنب** ثم بالوحدانية ثم بسؤال المغفرة لأن **الاعتراف بذلك** أقرب إلى العفو والثناء على السيد بما هو أهله أرجى لقبول سؤاله

(حم ق ت ن ه عن ابن عمر) بن الخطاب (وعن أبي بكر) الصديق رضي الله تعالى عنهما قلت يا رسول الله علمني دعاء أدعو به في صلاتي فذكره وفيه رد على من منع الدعاء في المكتوبة بغير القرآن كالنخعي." (١)

"رجال من أمتي لا يجاوز تراقيهم) جمع ترقوة عظم بين فقرة النحر والعاتق يعنى لا يتخلص عن ألسنتهم إلى قلوبهم (ثم يأتي من بعد ذلك زمان يجادل المشرك بالله المؤمن في مثل ما يقول) أي يخاصمه ويغالبه ويقابل حجته بحجة مثلها في كونها حجة لكن حجة الكافر باطلة (طس ك عن أبي هريرة) وفيه ابن لهيعة

(سيأتي على الناس زمان يخير فيه الرجل بين العجز والفجور) أي بين أن يعجز ويقهر وبين أن يخرج من طاعة الله (فمن أدرك ذلك الزمان) وخير بين هذين (فليختر) وجوبا (العجز على الفجور) لأن سلامة الدين واجبة التقديم (ك عن أبي هريرة) // وقال صحيح وأقروه //

(سيحان) بفتح المهملة وسكون المثناة التحتية من السيح وهو جري الماء على وجه الأرض وهو نهر العواصم وهو غير سيحون (وجيحان) نهر إذنة وسيحون نهر بالهند أو السند وجيحون نهر بلخ فمن زعم أنهما هما فقدوهم (والفرات) نهر بالكوفة (والنيل) نهر مصر (كل منها من أنهار الجنة) أي هي لعذوبة مائها وكثرة منافعها ومزيد بركتها كأنها من الجنة أو أصولها منها (م عن أبي هريرة

سيخرج أقوام من أمتي يشربون القرآن كشربهم اللبن) أي يسلقونه بألسنتهم من غير تدبر معانيه وتأمل أحكامه بل يمر على ألسنتهم كما يمر اللبن المشروب عليها (طب عن عقبة بن عامر) ورجاله ثقات

(سيخرج أهل مكة) منها (ثم لا يعبرها) منهم (إلا قليل ثم تمتلئ) بالناس (وتبنى) فيها الأبنية (ثم يخرجون منها) مرة ثانية (فلا يعودون فيها أبدا) إلى قيام الساعة (حم عن عمر) بن الخطاب وفيه ابن لهيعة وبقية رواته ثقات

(ستخرج ناس إلى المغرب يأتون يوم القيامة وجوههم على ضوء الشمس) في الإشراق والجمال (حم عن

---

(١) فيض القدير المناوي ٥٢٣/٤

رجل) من الصحابة وفيه ابن لهيعة

(سيد الإدام في الدنيا والآخرة اللحم) لأنه الجامع لمعاني الأقوات ومحاسنها فهو أفضل المطعومات (وسيد الشراب في الدنيا والآخرة الماء) كيف وبه حياة كل حيوان بل كل نام على وجه الأرض وسيد الرياحين في الدنيا والآخرة الفاغية) نور الحناء فهي أشرف الرياحين (طس وأبو نعيم في الطب) النبوي (طب عن بريدة بن الحصيب وفي // إسناده مجهول وبقيته ثقات //

(سيد الأدهان البنفسج وإن فضل البنفسج على سائر الأدهان كفضلى على سائر الرجال) لعموم نفعه وجموم فضائله (الشيرازي في) كتاب (الألقاب عن أنس) وهذا الحديث له طرق كثيرة كلها معلولة (وهو) أي هذا الطريق (أمثل طرقه) على ضعفه بل قال ابن القيم // موضوع //

(سيد الاستغفار) أي أفضل أنواع صيغه (أن يقول) أي العبد (اللهم أنت ربي لا إله أنت خلقتني وأنا عبدك) أي أنا عابد لك (وأنا على عهدك ووعدك) أي ما عاهدتك عليه وواعدتك من الإيمان بك وإخلاص الطاعة لك (ما استطعت) ي مدة داوم استطاعتي ومعناه **الاعتراف بالعجز** عن كنه الواجب من حقه تعالى (أعوذ بك من شر ما صنعت) من الذنوب (أبوء) أي أعترف (لك بنعمتك على و أبوء لك بذنبي) اعترف به (فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت) فائدة الإقرار **بالذنب** أن **الاعتراف يمحو** الاقتراف (من قالها من النهار) أي فيه (موقنا بها) أي مخلصا من قلبه مصدقا بثوابها (فمات من يومه) ذلك (قبل أن يمسى) أي يدخل في المساء (فهو من أهل الجنة) أي ممن استحق دخولها مع السابقين أبو بغير عذاب (ومن قالها من الليل وهو موقن بها فمات قبل أن يصبح) أي يدخل في الصباح (فهو من أهل الجنة) بالمعنى المذكور (حم خ ن عن شداد بن أوس

(سيد." [١]

"أو المصنف بقوله (بريد عينيه ثم صبر) زاد الترمذي واحتسب بأن يستحضر ما وعد به الصابرون ويعمل به (عوضته منها الجنة) أي دخولها لأن فاقدهما حبيس فالدنيا سجنه حتى يدخل الجنة (حم خ عن أنس

قال الله تعالى إذا سلبت من عبدي كريمتيه وهو بهما ضنين لم أرض له بهما ثوابا دون الجنة إذا هو حمدني عليهما) وإذا كان ثوابه الجنة فمن له عمل صالح آخر يزاد في الدرجات (طب حل عن عرباض) بن سارية // وإسناده ضعيف //

---

(١) التيسير بشرح الجامع الصغير المناوي ٢/٦٣

(قال الله تعالى إني أنا الله) المعروف المشهور بالوحدانية أو المعبود بحق فهو من قبيل أبو النجم (لا إله إلا أنا) حال مؤكدة لمضمون هذه الجملة (من أقر لي بالتوحيد دخل حصني ومن دخل حصني أمن من عذابي) لأنه أثبت عقد المعرفة بالهه قلبا وباللسان نطقا أنه الهه فدخل في حصن كثيف فاستوجب الأمن (الشيرازي عن علي) // بإسناد ضعيف جدا //

(قال الله تعالى يا ابن آدم) إنك (مهما عبدتني) كذا بخط المصنف وفي نسخة دعوتني بمغفرة ذنوبك كما يدل عليه السياق الآتي (و) الحال إنك (رجوتني) بأن ظننت تفضلي عليك بإجابة دعائك وقبوله إذ الرجال تأميل الخير وقرب وقوعه (ولم تشرك بي شيأ غفرت لك ذنوبك) أي سترتها عليك بعدم العقاب في الآخرة (على ما كان منك) من المعاصي وإن تكررت وكثرت (وإن استقبلتني بملء السماء والأرض خطايا وذنوبا استقبلتك بمثلهن من المغفرة وأغفر لك ولا أبالي) أي لا أكترث بذنوبك ولا أستكثرها وإن كثرت إذ لا يتعاظمه شيء (طب عن أبي الدرداء) // وإسناده حسن //

(قال الله تعالى أنا عند ظن عبدي فليظن بي ما شاء) فإني أعامله على حسب ظنه وأفعل به ما يتوقعه مني (طب ك عن واثلة) بن الأسقع // وإسناده صحيح //

(قال الله تعالى يا ابن آدم قم إلي أمش إليك امش إلي أهرول إليك) أي إذا تقربت إلي بالخدمة تقربت منك بالرحمة (حم عن رجل) من الصحابة // وإسناده حسن //

(قال الله تعالى أنا عند ظن عبدي بي إن ظن خيرا فله) مقتضى ظنه (وإن ظن شرا) أي أني أفعل به شرا (فله) ما ظنه فالمعاملة تدور مع الظن (حم عن أبي هريرة) وفيه ابن لهيعة

(قال الله تعالى لعيسى) بن مريم (يا عيسى إني باعث من بعدك أمة إن أصابهم ما يحبون حمدوا) الله (وشكروا) له (وإن أصابهم ما يكرهون صبروا واحتسبوا) ولا حلم) باللام (ولا علم قال يا رب كيف يكون هذا الهم ولا حلم ولا علم قال أعطيهم من حلمي وعلمي) قال الطيبى قوله لا حلم ولا علم تأكيد لمفهوم صبروا واحتسبوا لأن معنى الاحتساب أن يبعثه على العمل الإخلاص وابتغاء مرضاة الرب لا الحلم ولا العقل (حم طب ك هب عن أبي الدرداء) // وإسناده صحيح //

(قال الله تبارك) تعاظم عما يحيط به القياس والإفهام (وتعالى) عما تدركه الحواس والأوهام والتبارك غاية العظمة في إفاضة الخير والبركة (يا ابن آدم اثنتان لم تكن لك واحدة منهما جعلت لك نصيبا من مالك حين أخذت بكظمك) بالتحريك أي عند خروج نفسك وانقطاع نفسك (لأطهرك به) من اد ناسك (وأزكيك وصلاة عبادي عليك بعد انقضاء أجلك) قال الفاكهي من خصائص هذه الأمة الصلاة على الميت والإيصاء

بالثلث (هـ عن ابن عمر) بن الخطاب

(قال الله تعالى من علم أني ذو قدرة على مغفرة الذنوب غفرت له) **فالاعتراف بالذنب** سبب الغفران (ولا أبالي) أي لا أحتفل (ما لم يشرك بي شيأ) فيه رد على المعتزلة القائلين بالحس والقبح العقليين (طب ك عن ابن عباس)." [1]

"نفسي واعترفت بذنبي يا رب فاغفر لي ذنبي إنك أنت ربي وإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت". محمد بن نصر في الصلاة عن أبي هريرة.

(أوفق الدعاء) أي أكثره موافقة للإجابة (أن يقول الرجل اللهم أنت ربي) أي مالكي المتصرف في الأخذ بناصيتي وهذه الجملة الخبرية إعلاما بالتشرف بهذه الإضافة والنسبة والتذاذا بها وإقرارا بلازمها (وأنا عبدك) هي كالتأكيد للأولى وإبانة لازمها زيادة في إفادة المعنى الأول (ظلمت نفسي) بالإساءة إليها بمخالفتك (واعترفت بذنبي) أقررت الآن به (فاغفر لي ذنبي إنك أنت ربي) ومن حق المالك أن يغفر لعبده (وإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت) ففيه الإقرار بالربوبية **والاعتراف بالعبودية** والحكم على النفس بالظلم والتنصل من **الذنب** وطلب المغفرة متوسلا بالربوبية والإقرار بأنه لا غافر سواه تعالى لذنوب عباده. (محمد بن نصر (١) في كتاب الصلاة عن أبي هريرة).

٢٧٨٣ - "أوفوا بحلف الجاهلية فإن الإسلام لم يزده إلا شدة ولا تحدثوا حلفا في الإسلام". (حم ت) عن ابن عمرو (صح).

(أوفوا) من الوفاء، قال القاضي: وهو القيام بحق العهد ومثله الإيفاء (بحلف الجاهلية) المحالفة والمعاقدة والمعاهدة على التعاضد والإخاء أي ما كان بينكم من الحلف في الجاهلية (فإن الإسلام لم يزده إلا شدة) لأنه تعالى أمر بإيفاء العهود. (ولا تحدثوا حلفا في الإسلام) لأن الإسلام قد كفاكم ذلك؛ لأن فيه أمر بالتعاضد والتعاون من المسلمين بعضهم لبعض فلا حاجة إلى الحلف فيه (حم ت) (٢) عن ابن عمرو) رمز المصنف لصحته على أحمد، وحسنه الترمذي.

---

(١) أخرجه محمد بن نصر في تعظيم قدر الصلاة (٢٩٥)، وضعفه الألباني في: ضعيف الجامع (٢١٢٤).

---

(١) التيسير بشرح الجامع الصغير المناوي ٢/١٨٨

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٢٠٧، ٢١٢)، والترمذي (١٥٨٥)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٢٥٥٣).." [1]

"أي مدة دوام استطاعتي ومعناه **الاعتراف بالعجز** والقصور عن القيام بالواجب من حقه تعالى. (أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك) بفتح الهمزة وضم الباء فواو مهموز أي أعترف وألتزم وأصل البوء اللزوم ومنه: "فقد باء بها أحدهما" أي التزمها ورجع بها. (بنعمتك علي، وأبوء بذنبي) أي أعترف وقيل معناه: أحمله برغمي لا أستطيع صرفه عني وقال الطيبي: أعترف أولى لأنه تعالى أنعم عليهم ولم يقيده يشمل كل الإنعام ثم اعترف بالتقصير وإن لم يقم بأداء شكرها وعده ذنبا مبالغة في التقصير وهضم النفس. (فاغفر لي؛ فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت) هو اعتراف **بالذنب** وإقرار بأنه لا غافر له سواه تعالى وفائدة **الاعتراف** **محو** الاقتراف كما قيل:

وإن اعتراف المرء يمحق ذنوبه ... كما أن إنكار الذنوب ذنوب

(من قالها) أي هذه الكلمات. (من النهار موقنا بها) أي مخلصا من قلبه مصدقا بها. (فمات من يومه ذلك. (قبل أن يمسي) أي يدخل في المساء. (فهو من أهل الجنة) أي من الداخلين إليها مع السابقين أو من دون أن يمسه عذاب. (ومن قالها من الليل وهو موقن بها فمات قبل أن يصبح فهو من أهل الجنة) فينبغي أن يقولها نهارا وليلا كل ذاكر قال ابن أبي جمرة: جمع الحديث من بدائع المعاني وحسن الألفاظ ما يحق له أن يسمى "سيد الاستغفار" وفيه الإقرار لله وحده بالإلهية والعبودية وأنه الخالق والإقرار بالعهد الذي أخذه عليه والرجاء لما وعده والاستغفار من شر ما جنى على نفسه وإضافة النعم إلى موجدها وإضافة **الذنب** إلى نفسه ورغبته في المغفرة واعترافه بأنه لا يقدر على ذلك إلا هو، قال: ويظهر أن الذكر المذكور لا يكون سيد الاستغفار إلا إذا جمع صحة النية والتوجه والأدب. (حم خ ن) (١) عن شداد بن أوس ورواه عنه الطبراني وغيره.

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ١٢٢) البخاري (٥٩٦٤)، والنسائي (٨/ ٢٧٩)، والطبراني في الكبير (٧/ ٢٩٧).." [2]

---

(١) التنوير شرح الجامع الصغير الصنعاني ٤/٣٢٠

(٢) التنوير شرح الجامع الصغير الصنعاني ٦/٤٣١

"ولا يحصيه عد عاد مع ما فيه من الإشارة إلى أنه طلب أن يكون له تفضلا من عنده تعالى لا يعمل منه. (وارحمني، إنك أنت الغفور الرحيم) هو مناسب للجملتين الدعاء بالمغفرة فإنه صادر عن صفة كونه غفورا رحيما والدعاء بالرحمة لأنها صادرة عن مغفرته المسببة عن رحمته ولا يخفى حسن ترتيب الحديث حيث قدم **الاعتراف بالذنب** ثم بالوحدانية ثم سؤال المغفرة لأن **الاعتراف بالذنب** أقرب إلى العفو، والثناء على السيد بما هو أهله أرجى لقبول سؤاله، ففي الحديث وصف العبد بحال نفسه المقتضي حاجته إلى المغفرة وفيه وصف ربه بأنه لا يقدر على هذا المطلوب غيره، وفيه التصريح بسؤال العبد لمطلوبه وفيه بيان المقتضي للإجابة وهو وصف الرب بالمغفرة والرحمة فهذا ونحوه أكمل أنواع الطلب وكثيرا من الأدعية يتضمن بعض ذلك (حم ق ت ن هـ (١) عن ابن عمر، وعن أبي بكر) الصديق قال: قلت: يا رسول الله علمني دعاء أدعوا به في صلاتي فذكره وفيه رد على من منع الدعاء في المكتوبة بغير القرآن كالنخعي.

٦١٢٥ - "قل: آمنت بالله ثم استقم". (حم م ت ن هـ) عن سفيان بن عبد الله الثقفي (صح) ".
(قل: آمنت بالله) جدد إيمانك بالله ذكرا بقلبك ونطقا بلسانك. (ثم استقم) التزم الطاعات واجتنب المخالفات وامش الصراط المستقيم والنهج القويم ولا تنكب منهيات الطريق والمعوج غير المستقيم، والحديث مأخوذ من الآية ﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا﴾ [فصلت: ٣٠]، وتقدم الكلام فيه، قيل: الاستقامة امتثال كل مأمور وتجنب كل منهي، وقيل: هي المتابعة للسنن النبوية

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٣)، والبخاري (٨٣٤، ٦٣٣٦، ٧٣٨٨)، ومسلم (٢٧٠٥)، والترمذي (٣٥٣١)، والنسائي (٣/ ٥٣)، وابن ماجة (٣٨٣٥).." [(١)]

"استدل بذلك من قال إن المرأة تحد إذا وجدت حاملا ولا زوج لها ولا سيد ولم تذكر شبهة وهو مروي عن عمر ومالك وأصحابه قالوا إذا حملت ولم يعلم لها زوج ولا عرفنا إكراهها لزمها الحد إلا أن تكون غريبة وتدعي أنه من زوج أو سيد
وذهب الجمهور إلى أن مجرد الحبل لا يثبت به الحد بل لا بد من **الاعتراف أو** البينة واستدلوا بالأحاديث الواردة في درء الحدود بالشبهات
قال الشوكاني في النيل هذا من قول عمر ومثل ذلك لا يثبت به مثل هذا الأمر العظيم الذي يفضي إلى

---

(١) التنوير شرح الجامع الصغير الصنعاني ٨٣/٨

هلاك النفوس وكونه قاله في مجمع من الصحابة ولم ينكر عليه لا يستلزم أن يكون إجماعا كما بينا ذلك في غير موضع من هذا الشرح لأن الإنكار في مسائل الاجتهاد غير لازم للمخالف (أو اعتراف) أي الإقرار بالزنى والاستمرار عليه وأجمعوا على وجوب الرجم على من اعترف بالزنى وهو محصن يصح إقراره بالحد واختلفوا في اشتراط تكرار إقراره أربع مرات

قال المنذري وأخرجه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي مختصرا ومطولا

٤ - (باب رجم ماعز بن مالك)

[٤٤١٩] (عن هشام بن سعد) هو القرشي ضعفه بن معين والنسائي وبن عدي (عن أبيه) أي نعيم (في حجر أبي) بفتح الحاء ويكسر أي في تربية أبي هزال (فأصاب جارية) أي جامع مملوكة (من الحي) أي القبيلة (فقال له أبي) أي هزال (ائت) أمر من الإتيان أي احضر وإنما يريد بذلك أي بما ذكر من الإتيان والإخبار (رجاء أن يكون له مخرجا) أي عن **الذنب**

قال الطيبي اسم كان يرجع إلى المذكور وخبره مخرجا وله ظرف لغو كما في قوله." (١)

"٤٢ - (باب) بالإضافة إلى (قول النبي صلى الله عليه وسلم: الدين) أي: عماد الدين وقوامه، أو معظم أركان الدين (النصيحة) كما يقال: «الحج عرفة»؛ أي: عماد الحج وقوامه أو معظم أركانه وقوف عرفة، ويحتمل أن يحمل على ظاهره؛ لأن كل عمل لم يرد به عامله الإخلاص فليس من الدين، والنصيحة مأخوذة من نصح الرجل ثوبه إذا خاطه بالمنصحة وهي الإبرة، والمعنى: أنه يلم شعث أخيه بالنصح كما تلم المنصحة، ومنه التوبة النصوح كأن **الذنب** يمزق الدين والتوبة تخيطه، وقيل: إنها مشتقة من نصحت العسل إذا صفيته من الشمع، شبه تخليص القول من الغش بتخليط العسل من الخلط، وفي كتاب ابن طريف: (نصح قلب الإنسان خلص من الغش)، وفي ((الصحاح)): (هو باللام أفصح، وقيل: نصحته؛ أي: صدقته)، وقال الخطابي: (النصيحة كلمة جامعة معناها حيازة الحظ للمنصوح له وهي من وجيز الأسماء ومختصر الكلام،

[ج ١ ص ٣٩٨]

وليس في كلام العرب كلمة يستوفى بها لعلها العبارة عن معنى هذه الكلمة كما قالوا في الفلاح: ليس في كلام العرب كلمة مفردة يستوفي بها العبارة عن معنى ما جمعت من خير الدنيا والآخرة).

---

(١) عون المعبود وحاشية ابن القيم العظيم آبادي، شرف الحق ٦٥/١٢

(لله)؛ تعالى، وفي رواية مسلم: ((قلنا: لمن؟ قال: لله))، وفي رواية إمام الأئمة مالك: ((فقال رجل: لمن يا رسول الله؟ قال: لله)) ومعنى النصيحة لله يرجع إلى الإيمان به، ونفي الشريك عنه، وترك الإلحاد في صفاته، ووصفه بصفات الجلال والجمال، وتنزيهه عن النقائص والقيام بطاعته واجتناب معصيته وموالاة من أطاعه ومعاداة من عصاه، **والاعتراف بنعمته**، والشكر عليها، والإخلاص في جميع الأمور.

وروى الثوري عن عبد العزيز بن رفيع، عن أبي ثمامة صاحب علي رضي الله عنه قال: قال الحواريون لعيسى عليه الصلاة والسلام: يا روح الله من الناصح لله؟ قال: ((الذي يقدم حق الله على حق الناس))، وحقيقة هذه الإضافة راجعة إلى العبد في نصيحة نفسه، فإن الله تعالى غني عن نصح الناصح وعن العالمين.." (١)

"وقال القرطبي: ظن من سأله عن سبب تحمله المشقة في العبادة أنه إنما يعبد الله خوفا من الذنوب، وطلبا للمغفرة والرحمة، فمن تحقق أنه غفر له لا يحتاج إلى ذلك، فأفادهم أن هناك طريقا آخر للعبادة وهو الشكر على المغفرة، وإيصال النعمة لمن لا يستحق عليه فيها شيئا، فيتعين كثرة الشكر على ذلك، والشكر: **الاعتراف بالنعمة** والقيام بالخدمة، فمن كثر ذلك منه سمي: شكورا، ومن ثمة قال سبحانه وتعالى: ﴿وقليل من عبادي الشكور﴾ [سبأ: ١٣].

وفيه أيضا: ما كان النبي صلى الله عليه وسلم عليه من الاجتهاد في العبادة والخشية من ربه.

قال العلماء: إنما ألزم الأنبياء عليهم السلام أنفسهم شدة الخوف؛ لعلمهم بعظيم نعمة الله عليهم، وأنه ابتدأهم بها قبل استحقاقها، فبذلوا مجهودهم في عبادته؛ ليؤدوا بعض شكره، فإن حقوق الله تعالى أعظم من أن يقوم بها العباد، والله أعلم.

[ج ٥ ص ٥٥٤]

تتمة: قال بعض العلماء: ما ورد في القرآن والسنة من ذكر ذنب لبعض الأنبياء عليهم الصلاة والسلام كقوله تعالى: ﴿وعصى آدم ربه﴾ [طه: ١٢١] ونحو ذلك، فليس لنا أن نقول ذلك في غير القرآن والسنة حيث ورد، ويأول ذلك على ترك الأولى، وسميت ذنوبا؛ لعظم مقدارهم، كما قال بعضهم: حسنات الأبرار سيئات المقربين.

وعلى هذا فوجه قول من سأله من الصحابة رضي الله عنهم بقوله: «أتتكلف هذا وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟». أنه إنما أراد به ما وقع في سورة الفتح، ولعل بعض الرواة اختصر عزو ذلك إلى الله

---

(١) نجاح القاري لصحيح البخاري ص/٥١٣

تعالى، كما جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «تفعل ذلك وقد جاءك من الله أن قد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟»

ولك أن تقول: دل قوله: «وما تأخر»، على انتفاء **الذنب**؛ لأن ما لم يقع إلى الآن لا يسمى ذنبا في الخارج، وأراد الله تعالى تأمينه بذلك؛ لشدة خوفه حيث قال صلى الله عليه وسلم: ((إني لأعلمكم بالله وأشدكم له خشية)) [خ ¦ ٦١٠١]. فأراد سبحانه وتعالى أن لو وقع منك ذنب لكان مغفورا، ولا يلزم من فرض ذلك وقوعه، والله أعلم.

ورجال إسناد حديث الباب كوفيون، وهو من الرباعيات، وفيه مسعر عن زياد.." [(١)]

"أخذه الله على عباده حيث أخرجهم أمثال الذر وأشهدهم على أنفسهم ﴿ألست بربكم﴾ [الأعراف: ١٧٢] فأقروا له بالربوبية، وأذعنوا له بالوحدانية، وبالوعد ما قال على لسانه صلى الله عليه وسلم: ((أن من مات لا يشرك بالله شيئا، وأدى ما افترض عليه أنه يدخله الجنة)).

قال الحافظ العسقلاني: وقوله: ((وأدى ما افترض عليه)) زيادة ليست بشرط في هذا المقام؛ لأنه جعل المراد بالعهد: الميثاق المأخوذ في عالم الذر، وهو التوحيد خاصة، فالوعد: هو إدخال من مات على ذلك الجنة.

وقال العيني: وإن لم يكن ذلك شرطا في هذا فهو شرط في غيره، فافهم.

قال: وفي قوله: ((ما استطعت)) إعلام لأمته أن أحدا لا يقدر على الإتيان بجميع ما يجب عليه لله تعالى من الوفاء بكمال الطاعات، والشكر على النعم، فرفق الله تعالى بعباده، فلم يكلفهم من ذلك إلا وسعهم، ففيه الإشارة إلى أن **الاعتراف بالعجز** والقصور عن كنه الواجب من حقه تعالى.

وقال الطيبي: يحتمل أن يراد بالعهد والوعد ما في الآية المذكورة.

(أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك علي) سقط لفظ: ((لك)) من رواية النسائي، و ((أبوء)) ــ بضم الموحدة وسكون الواو بعدها همزة ممدود ــ معناه: أعترف، من قولهم: باء بحقه؛ أي: أقر به، ووقع في رواية عثمان بن ربيعة عن شداد: ((وأعترف بذنوبي)) وقيل: أصله البواء، ومعناه: اللزوم ومنه بوأه منزلا: إذا أسكنه، فكأنه ألزمه به.

(وأبوء بذنبي) وفي رواية عن الكشميهني: [(٢)]؛ أي: أعترف به، وقيل: معناه: أحمله فلا أستطيع صرفه عني،

---

(١) نجاح القاري لصحيح البخاري ص/٤٦٦٦

(٢) وأبوء لك بذنبي

قال الخطابي: يريد به الاعتراف، يقال: قد باء فلان بذنبه: إذا احتمله كرها لا يستطيع دفعه عن نفسه.
وقال الطيبي: اعترف أولا بأنه أنعم عليه، ولم يقيده؛ ليشمل كل الإنعام، ثم اعترف بالتقصير، وأنه لم يقم بأداء شكرها، ثم بالغ فعده ذنبا مبالغة في التقصير وهضم النفس. انتهى.
وقال الحافظ العسقلاني: ويحتمل أن يكون قوله: ((أبوء لك بذنبي))؛ أي: أعترف بوقوع **الذنب** مطلقا؛ ليصح الاستغفار منه لا أنه عد ما قصر فيه من أداء النعم ذنبا.
(فاغفر لي) بزيادة فاء في رواية أبي ذر، وفي رواية غيره: [1]بدون فاء (إنه لا يغفر الذنوب
[ج ٢٦ ص ٤٢٢]
إلا أنت).." [2]

"قال الحافظ العسقلاني: يؤخذ منه أن من اعترف بذنبه غفر له، وقد وقع صريحا في حديث الإفك الطويل: ((العبد إذا اعترف بذنبه وتاب تاب الله عليه)) [خ ¦ ٢٦٦١].
(قال) صلى الله عليه وسلم: (ومن قالها) أي: الكلمات، وفي رواية النسائي: ((فمن قالها)) (من النهار موقنا) أي: مخلصا (بها) من قلبه مصدقا بثوابها (فمات من يومه قبل أن يمسي، فهو من أهل الجنة) وفي رواية النسائي: ((فإن قالها حين يصبح)) وفي رواية عثمان بن ربيعة: ((لا يقولها أحدكم حين يمسي، فيأتي عليه قدر قبل أن يصبح، أو حين يصبح فيأتي عليه قدر قبل أن يمسي إلا وجبت له الجنة)).
(ومن قالها من الليل وهو موقن بها، فمات قبل أن يصبح، فهو من أهل الجنة) أي: الداخلين لها ابتداء من غير دخول النار؛ لأن الغالب أن المؤمن بحقيتها، الموقن بمضمونها لا يعصي الله تعالى، أو لأن الله يعفو عنه ببركة هذا الاستغفار، قاله الكرماني. وقيل: يحتمل أن يكون هذا فيمن قالها، ومات قبل أن يفعل ما يغفر له به ذنوبه، أو يكون ما فعله من الوضوء وغيره من الحسنات لم يتقبل منه بوجه، وإلا فإن الحسنات يذهبن السيئات.
وفي «بهجة النفوس»: لابن أبي جمرة من شروط الاستغفار: صحة النية والتوجه والأدب، فلو أن أحدا حصل الشروط، واستغفر آخر بهذا اللفظ الوارد، لكن أخل بالشروط هل يتساويان؟ والذي يظهر: أن اللفظ المذكور إنما يكون سيد الاستغفار إذا جمع الشروط المذكورة.
وقال الحافظ العسقلاني: قال ابن أبي جمرة: جمع صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث من بديع المعاني،

---

(١) اغفر لي

(٢) نجاح القاري لصحيح البخاري ص/٢١٧٤٢

وحسن الألفاظ ما يحق له أن يسمى سيد الاستغفار؛ ففيه الإقرار لله وحده بالإلهية والعبودية، **والاعتراف بأنه** الخالق والإقرار بالعهد الذي أخذه عليه، والرجاء بما وعده به والاستعاذة من شر ما جنى العبد على نفسه، وإضافة النعماء إلى موجدها، وإضافة **الذنب** إلى نفسه ورغبته في المغفرة، واعترافه بأنه لا يقدر أحد على ذلك إلا هو، وفي كل ذلك الإشارة إلى الجمع بين الشريعة والحقيقة، فإن تكاليف الشريعة لا تحصل إلا إذا كان في ذلك عون

[ج ٢٦ ص ٤٢٣]." [1]

"وفي الكلام حذف؛ لدلالة ما تقدم عليه، فالتقدير: ولا يغفر الذنوب إلا أنت ولا يرحم العباد إلا أنت، فحذف: ولا يرحم العباد إلا أنت؛ لدلالة وارحمني، ويحتمل أن يكون التقدير: ولا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفر لي ولا يرحم العباد إلا أنت فارحمني.

قال الطبري: في حديث أبي بكر رضي الله عنه دلالة على رد قول من زعم أنه لا يستحق اسم الإيمان إلا من لا خطيئة له ولا ذنب؛ لأن الصديق رضي الله عنه أكبر أهل الإيمان، وقد علمه النبي صلى الله عليه وسلم قوله: ((إني ظلمت نفسي ظلما كثيرا ولا يغفر الذنوب إلا أنت)).

وقال الكرماني: وهذا الدعاء من الجوامع، إذ فيه اعتراف بغاية التقصير، وهو كونه ظالما ظلما كثيرا، وطلب غاية الإيمان التي هي المغفرة والرحمة، إذ المغفرة ستر الذنوب ونحوها، والرحمة إيصال الخيرات، فالأول عبارة عن الزحزحة عن النار، والثاني إدخال الجنة، وهذا هو الفوز العظيم. وقيل: إنه من أحسن الأدعية لا سيما في ترتيبه، فإن فيه تقديم نداء الرب واستغاثته بقوله: ((اللهم))، ثم **الاعتراف بالذنب** في قوله: ((ظلمت نفسي))، ثم **الاعتراف بالتوحيد** إلى غير ذلك مما لا يخفى مع ما اشتمل عليه من التأكيد بقوله: ((إنك أنت الغفور الرحيم)) بكلمة ((إن)) وضمير الفصل، وتعريف الخبر باللام، وبصيغة المبالغة.

ثم إن الأمر في قوله صلى الله عليه وسلم:

[ج ٢٦ ص ٤٨٠]

((قل)) يقتضي جواز الدعاء في الصلاة من غير تعيين محله، لكنه يخصص بالموضع اللائق بالدعاء، وعينه بعضهم في السجود لقوله صلى الله عليه وسلم: ((أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، فأكثروا من الدعاء)) رواه أبو هريرة رضي الله عنه رفعه. وقوله صلى الله عليه وسلم: ((فأما السجود فاجتهدوا فيه بالدعاء))، وعينه آخرون بعد التشهد لحديث: ((ثم ليتخير بعد ذلك في المسألة ما شاء)) رواه فضالة بن

---

(١) نجاح القاري لصحيح البخاري ص/٢١٧٤٣

عبيد عند أبي داود والترمذي وصححه. وفيه: ((أنه أمر رجلا بعد التشهد أن يثني على الله بما هو أهله، ثم يصلي على النبي صلى الله عليه وسلم، ثم ليدع بما شاء))، ومحصل ما ثبت عنه صلى الله عليه وسلم من المواضع التي كان يدعو فيها داخل الصلاة ستة مواطن:." [(١)]

"وقد تقدم في أول ((كتاب الدعوات)) [خ¦ ١٣٠٤ قبل] الأحاديث الدالة على أن دعوة المؤمن لا ترد، وأنها إما أن يعجل له الإجابة، وإما أن يدفع عنه من السوء مثلها، وإما أن يدخر له في الآخرة

[ج ٢٦ ص ٥٠٤]

خير مما سأل.

وإلى ذلك أشار ابن الجوزي بقوله: اعلم أن دعاء المؤمن لا يرد غير أنه قد يكون الأولى له تأخير الإجابة بأن يعوض بما هو أولى له عاجلا أو آجلا، فينبغي للمؤمن أن لا يترك الطلب من ربه، فإنه متعبد بالدعاء، كما هو متعبد بالتسليم والتفويض، انتهى.

والحاصل: أن تأخير الإجابة إما لأنه لم يأت وقتها، فإن لكل شيء وقتا، وإما لأنه لم يقدر في الأزل فيؤول دعائه في الدنيا ليعطى عوضه في الآخرة، وإما أن يؤخر القبول ليلح ويبالغ في ذلك، فإن الله تعالى يحب الإلحاح في الدعاء، ومن يكثر قرع الباب يوشك أن يفتح له، ومن يكثر الدعاء يوشك أن يستجاب له.

وللدعاء آداب:

منها: تحري الأوقات الفاضلة كالسجود، وعند الأذان.

ومنها: تقديم الوضوء، والصلاة، واستقبال القبلة، ورفع اليدين، وتقديم التوبة، **والاعتراف بالذنب**، والإخلاص، وافتتاحه بالحمد والثناء والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، والسؤال بالأسماء الحسنى، وأن يختم الدعاء بالطابع وهو آمين، وأن لا يخص نفسه بالدعاء بل يعم ليدرج دعاؤه وطلبه في تضاعيف دعاء الموحدين، ويخلط حاجته بحاجتهم لعلها أن يقبل ببركتهم ويجاب، وأكثر أدلة ذلك ذكرت في هذا الكتاب.

وأصل ذلك كله ورأسه اتقاء الشبهات فضلا عن الحرام، وفي حديث مالك بن يسار مرفوعا: ((إذا سألتم الله فاسألوه ببطون أكفكم، ولا تسألوه بظهورها، فإذا فرغتم فامسحوا بها وجوهكم)) رواه أبو داود. ومن عادة من يطلب شيئا من غيره أنه يمد كفه إليه، فالداعي يبسط كفه إلى الله تعالى متواضعا متخشعا.

وحكمة مسح الوجه بهما: التفاؤل بإصابة ما طلب، والتبرك بإيصاله إلى وجهه الذي هو أعلى الأعضاء

---

(١) نجاح القاري لصحيح البخاري ص/٢١٨٢٢

وأولاها فمنه يسري إلى سائر الأعضاء. وقال الكرماني: هنا شرط الاستجابة العدمان: عدم العجلة، وعدم القول؛ أي: قوله ((دعوت فلم يستجب لي))، فما حكمه في الصور الثلاث

[ج ٢٦ ص ٥٠٥]

الباقية وهي وجودهما ووجود العجلة دون القول والعكس؟." (١)

"وفي الاستدلال بحديث ابن مسعود رضي الله عنه للرد عليه نظر لجواز أن يكون المراد منه ما إذا قالها وفعل شروط التوبة، ويحتمل أن يكون الربيع قصد مجموع اللفظين لا خصوص «أستغفر الله»، فيصح كلامه كله، والله أعلم.

ثم إن فائدة هذا الحديث أن العود إلى **الذنب** وإن كان أقبح من ابتدائه؛ لأنه انضاف إلى ملابسة **الذنب** نقض التوبة لكن العود إلى التوبة أحسن من ابتدائها؛ لأنه انضاف إليها ملازمة الطلب من الكريم والإلحاح في سؤاله، **والاعتراف بأنه** لا غافر للذنب سواه.

ومطابقة الحديث للترجمة في قوله: ((فقال ربه)) وفي قوله: ((فقال: أعلم)). وقد أخرجه مسلم في «التوبة»، وأخرجه النسائي في ((اليوم والليلة)).

==================." (٢)

(١) نجاح القاري لصحيح البخاري ص/٢١٨٥٦

(٢) نجاح القاري لصحيح البخاري ص/٢٥٣٦٢